بحيرة وراء الريح

يحيى يخلف

رواية

دار الآداب

بحيرة وراء الريح

يحيى يخلف

بحيرة وراء الريح

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩١

الإهداء

إلى ذكرى عمِّي المجاهد الشيخ مصطفى يخلف (أبو السنوسي) أحد أبناء (سمخ) البررة.

وقد كان في أعماقه قبسٌ من الروحٍ الجهادية التي أضاءت نفوس أجداده العظام الذين قاتلوا جنباً إلى جنب مع الأمير عبد القادر في معاركه ضد الغزاة على أرض الجزائر المجيدة.

يحيى يخلف

يناير ١٩٩١

الفصل الأول

سمخ (جنوب البحيرة) ١٩٤٨

يجلس (راضي) في دكان خاله وراء الميزان الشاقولي، وفي انتظار عودة خاله يبيع قليلاً ويسأم كثيراً . . وعلى كل حال، فالناس في سمخ لا يدرون ماذا يفعلون. إنهم في حالة انتظار أيضاً . . ينتظرون قدوم المجهول. لم يعد ما يملأ فضاء البلدة بعد أن توقَّف صفير القطار القادم من حيفا والذاهب إلى درعا سوى القلق. لم يعد ثمّة ما يوحي بالطمأنينة.

والخال عبد الكريم بدأ يفتح دفاتره العتيقة ويفتِّش عن الديون المعدومة أو تلك المشكوك فيها، ويذهب هنا وهناك في محاولة لجمع ما يمكن جمعه. الخال عبد الكريم لم يعد يذهب إلى طبريا لتجديد بضاعته، فمنذ أسبوعين ذهب وعاد قبل انتصاف النهار. عاد هلعاً وقال لمحدّثيه إن طبريا مثل علبة الكبريت قد تشتعل بين لحظة وأخرى.

يجلس الرجال في المساء أمام الدكان. يجلس الخال معهم. إذاعة الشرق الأدنى تجعل القلب ينخلع من جذوره. والحاج محمود قائد الثوّار أيام ثورة ٣٦ يقول: احفروا الخنادق يا أهل قريتنا، فأمامكم يوم أسود.

وفي الليل تزداد العتمة حلكة. يتهامس الناس ويتساءلون عمّا يتعينّ عليهم أن يفعلوا. والصمت. الصمت. ولا شيء غير القلق.

في المساء أيضاً، على مصطبة المضافة، يتجمّع الرجال بعضهم حول

بعض.. يتحدَّثون بوجوه شاحبة كما لو كانوا يعانون من البرد، يتحدَّثون عن عام مضى وعام جديد فيه المتاعب؛ عن سنة قاسية أخرى؛ عن شتاء لا يهدأ فيه البال؛ عن وابل من غضب الرب؛ عن أيام قادمة كطعم العلقم.

يندسّ راضي بينهم، يلتصق بوالده الحاج حسين، ويشعر كأن ضجيج (بابور البحر) يهدر في أعماق الشيخ ذي اللحية البيضاء وهو يلفّ التبغ (الهيشي) بورقة (الأتومان)، ثم يبلِّل طرف الورقة بلسانه، ويكمل لفّها، ويسوِّي أطرافها، ثم يضعها بين شفتيه، ويشعلها.

وتدور أكواب الشاي، يحملها خالد الزهر سائس الدواب الذي يسكن في البايكه حيث يُخزَّن التبن والحبوب، وحيث تُحفظ أدوات الحراثة والغرابيل وسقط المتاع، وتعشّش طيور السنونو والسعالي وأبوبريص وأم أربع وأربعين.

لقد توقَّف دقّ الجرن، وكفَّ خالد الزهر عن تحضير القهوة بالهيل أو الزنجبيل، ومنذ بدأت القلاقل الأخيرة توقَّف الحديث عن الغلال والخير والأبقار التي ستلد عجولاً في الربيع، وحلَّ مكانه الحديث عن اليهود الذين بدأوا يتدرَّبون وراء مستعمرة دجانيا، وصاروا يقطعون الطرق كلما خطر لهم خاطر.

لم يعد الرجال في المضافة يتحدَّثون عن قصص الضباع والثعالب وبنات آوى، فلا حديث إلا حديث الأيام القادمة التي تشيب لشدّة هولها سود النواصي.

وعلى الرغم من الفضاء الفسيح، فإن طيور الدوري تحطّ على أسلاك أعمدة الهاتف، وقد أوجست خيفة.

الغول قادم، وثمة ما يوحي بأنَّ الأرض آخذة في الاهتزاز. وفي هذا

الـوقت ـ وقت القيلولة ـ يصمت الشجـر، والهواء، وتُصيب السكينة حتى أمواج البحيرة.

صمت وسكينـة يشبهـان اللحـظة التي تسبق انفجـار اللغم في مقـالـع الحجارة.

* * *

وقف بالباب فجأة جندي أشقر يحمل على كتفه حقيبة، واحد من الجنود الانكليز الهائمين الذين يمـرّون بكثرة هـذه الأيام قـادمين من معسكـر جسر المجامع في طريقهم إلى حيفا. يتسكّعون ويبيعون بعض المتـاع، أو يشترون السجائر والعلكة.

وقف. ولعلّه تردّد وهو يهمّ بالدخول، ثم دخل على كل حال. دخل ولم يقل شيئاً في البداية.

سـأله راضي إن كـان بحاجـة لمساعـدة، فالتفت الجنـدي خلفه، كـأنمـا ليطمئن إلى أن أحداً لا يراه، ثم أنزل حقيبته عن كتفيه.

وقف راضي وقد داخله خوف غريزي.

أشار له الجندي إشارة طمأنته.. ثم تكلّم: عندي شيء ثمين للبيـع.. هل تشتري؟

تنفّس راضي بهدوء وأزاح كفّة الميزان الشاقولي جانباً: ما هذا الشيء؟

انحنى الجندي على الحقيبة، وأخرج ما بداخلها.

سترة بدون كمّـين. سترة كحليـة اللون. واسعة. منتفخـة، لها جيـوب أماميّة واسعة.

قـال الجندي: إنها درع حقيقيـة.. سترة واقيـة من الرصـاص، خفيفـة الوزن، محشوة باللدائن المقوّاة بنسيج من الألياف الزجاجية.

نشرها أمامه. . حقاً. . ما هذا الشيء المدهش؟

درع واقية من الرصاص، يضعها المرء على صدره، فوق ملابسه، وتتصل بأحزمة عند الظهر تشدّه إلى الجسم تماماً فلا ينفذ الرصاص إلى الصدر ولا إلى القلب.

ـ إنها عدّة ثمينة للمحارب. . إنها شيء خاص.

قال الجندي، ثم أضاف بعد قليل: أرسلتها لي أمي من لندن. إنها شيء خاص كما قلت لك، كانت تخاف عليَّ من الموت، ولذلك لم تجد ما يحميني بالإضافة إلى صلواتها سوى هذه الدرع الواقية من الرصاص والشظايا. زاغت عينا راضي وهو ينظر إلى القطعة المرنة، المجسَّمة، الجميلة. .

قال الجندي: إن هذه الدرع. . أعني هذه السترة الواقية من الرصاص تلبس فوق الثياب، فتعطي للابسها هيئة مهيبة وتحميه من الموت.

ظلَّ راضي ينظر بانبهار، وظلَّ الجندي يشجِّعه: يمكنك أن تعاينها بنفسك وتتأكَّد من نقاء معدنها، وتستطيع في الحال أن تطلق عليها رصاصة وتتأكَّد بنفسك من متانتها.

فكَّر راضي فيما يتعيَّن عليه أن يقول أو أن يفعل، ولعلَّ الجندي قد لاحظ حيرته، فأردف:

ـ لقد انتهت خدمتي وبعد قليل سأذهب إلى ميناء حيفا، ومن هناك سأعود إلى بلادي. . إنني في عجلة من أمري وأريد أن أبيعها بثمن بخس.

ظلَّ راضي يفكِّر. ربما يفكِّر بالنقود الموجودة في درج الطاولة.

قال الجندي بإلحاح: لا تتوقَّع مني أن أبيع هذه الدرع بسعر مرتفع. . أكتفي بعشرين جنيهاً.

رفع راضي حاجبيه على غير إرادة منه. جاء بوق سيارة من الخارج. من الواضح أن ثمة من ينتظره.

ـ تستطيع أن تدفع عشرة جنيهات.. هيا..

فكّر راضي للحظات في الخال عبد الكريم الذي يأتمنه على الدكان كلما غاب أو ابتعد. فكّر فيما إذا كان الخال سيقابل الأمر بالاستحسان أم بالغضب، لكنه نحّى جانباً خوفه، وسحب الجنيهات العشرة من درج الطاولة، وسلّمها إلى الجندي مقابل الدرع.

خرج الجندي مسرعاً وتبع ذلك ضجيج المحرّكات. حدث الأمر في لحظات. وعند ذلك أحسَّ راضي بأنه يفيق من دهشة: ما الذي حدث.. وكيف دخل الجندي، وكيف خرج.. ثم ـ وهذا هو الأهمّ ـ كيف واتته الشجاعة على التصرّف بالنقود دون مشاورة الخال عبد الكريم؟

كانت الدرع فوق الطاولة. تحت الميزان الشاقولي تماماً.. تتمدَّد بلونها الكحلي وصدرها المنتفخ.

إنها خفيفة الوزن. كأنها درع من تلك الدروع القديمة التي كان يلبسها المحاربون لدرء ضربات السيوف أو طعنات الرماح.

وظلَّ راضي ينظر إليها، ويحاول أن يستوعب عاصفة غضب سيواجهها عما قريب بعد أن يعود الخال من جولته.

حمل الدرع وأنزلها عن الطاولة. وضعها في الزاوية بعيداً عن الأعين، ثم جلس مفكّراً..

كان يستطيع أن يقرِّر لو أن الأمر يتعلّق بشراء حفنة من البيض أو دجاجة، وكان مخوّلاً مبادلة صاع قمح بقطعة من الكعكبان، وكان من

الممكن أن يقرِّر بسهولة لو تعلَّق الأمر بسرير مستعمل أو سجَّادة قديمة، وأما أن يشتري درعاً عسكرية فهذا هو الجنون بعينه..

ومرَّت زوبعة من الغبار في الساحة الفارغة أمام الدكان، وهي تتحوَّل أيام الجمع إلى سوق للأغنام والطيور، وظلَّت الأوراق تتطاير. ثم أقبل منصور بائع التذاكر في محطّة القطار. جاء كما يبدو ليشتري علبة من دخان (ياتر).. طرح السلام ومدَّ يده بالنقود. لم يكن بحاجة لأن يقول ماذا يبغي، ففي مثل هذا الوقت من النهار يكون قد أتى على آخر سيجارة من علبته.

كان يلبس بدلة كحلية، البدلة الرسمية ذات الأزرار النحاسية. يحكي ومن وراء شفتيه تبدو أسنانه الاصطناعية الأنيقة التي تشبه الرز.

ناوله راضي علبة (ياتر) فأخذها، وتناول سيجارة منها دسَّها في فمه، وأشعلها، ثم رفع رأسه فتوقَّفت نظراته عند الدرع.

ـ ما هذا؟

تساءل منصور الذي يستطيع أن يقدِّر الأشياء حقّ قدرها.. ثم أردف: بالله عليك ما هذا؟

كانت الدرع قد أثارت فضوله.. أثارت فضوله للغاية!! أجاب راضي: إنها درع واقية من الرصاص.

ـ ومن أين جئت بها؟

ـ اشتريتها اليوم.. باعني إياها جندي انكليزي مَرَّ من هنا منذ لحظات.

ـ بكم اشتريتها؟

ـ بعشرة جنيهات.

رفع منصور حاجبيه: ـ غير معقول.. إنها تساوي أكثر من ذلك بكثير.

ـ لقد باعها لي بهذا الثمن لأنه كان في عجلة من أمره.

ـ دعني أعاينها..

واستدار منصور وراء الطاولة ودخل، ثم انحنى يتفحَّص السترة الكحلية، وأثناء ذلك واصل راضي النظر إلى وجهه ليرصد انفعالاته.

ارتسمت دهشة كبيرة على ملامحه.. عزَّزها بقوله: أنت محظوظ أيها الفتى.. إياك أن تنشر الخبر قبل أن يعود خالك.

امتلأ راضي بالطمأنينة. وما لبث منصور أن ثبَّت الطاقية على رأسه، ومضى ببذلته ذات الأزرار النحاسية متوجِّهاً إلى المحطة المهجورة.

* * *

حطَّت فراشة على مصيدة الذباب اللزجة التي تتدلَّى من السقف. من وراء الميزان، وجاهدت دون جدوى من أجل التخلّص. دسَّ راضي حبّة حلوى في فمه، وتركها تذوب متعمِّداً عدم النظر إلى الدرع التي كادت تخطف بصره، ثم مفكِّراً على الرغم من كل التطمينات باللحظة التي سيطلّ فيها وجه خاله. ودخل نجيب، هذا الصيَّاد الذي تفوح من ملابسه رائحة السمك وزنخ البحر، والذي اعتاد أن يشتري حاجياته بالدين.

لم يكن الخال عبد الكريم يرتاح إليه لأنه يتأخَّر في السداد، ولأنه كسول، ولأنه طلَّق زوجته (بدريّة) التي تمتّ بصلة ما إلى الخال.

دخل وطرح السلام، ثم جاست عيناه في أرجاء الدكان. تأهَّب راضي كي يصدّه فيما لو طلب أن يستدين، لكن نجيب جلس على الكرسي دون أن يقول شيئاً.

يعتاد الزبائن على الجلوس. اولئك الذين لديهم وقت لا يدرون ما

يفعلون خلاله، غير أن نجيب بدا مهموماً أو قلقاً. وبدت لـه في لحظة من اللحـظات ملامـح انسان مختلف عنـدمـا أخـرج زفيـراً حبيسـاً من صـدره العريض ذي العضلات البـارزة. استرخى راضي وتحـوّل إلى متعاطف مـع هذا الوجه المتعب. يا لحزمة الشمس هذه التي تسقط من نافذة الدكان على صدغه الأيمن الذي تسلّل إليه بعض الشيب.

سأل نجيب وهو ينظر إلى شيء ما في الساحة المقابلة: متى يعود الطاهر؟

الطاهر.. الطاهر.. كلهم يسألون عن عودة الطاهـر. لا أحد يـدري. قال بعضهم إنه شوهد في حارة الياسمين في نابلس، وفي روايـة أخرى أنـه شوهد في بيت المقدس عند السور أمام باب الزاهرة. وقيل إنه وصل إلى غزة في طريقه إلى مصر..

ـ الطاهر رجل مدهون بزيت ولا أحد يستطيع أن يمسكه.

ابتسم نجيب، لكنها ابتسامة خارجية. ابتسامة رجل مهموم. وقال كأنما يخاطب نفسه: ـ لا أحد يستطيع أن ينتشلني سواك يا الطاهر.

خطر ببال راضي أن يسـأل نجيباً عـما يقلقه. خـطر ببالـه أن يخفّف من وطأة هذا الهمّ الذي يجثم على صـدره. وانتبه إلى أن نجيبـاً لم يخرج علبتـه ويدخّن سيجارة، وفطن إلى أن هذا الرجل لا يملك ثمن خبزه وسجائره، لا يملك ثمن الشاي والسكّر، فتناول علبة سجائر من عـلى الرف، ودسّهـا في يده.

تلقّف نجيب علبـة السجائـر بلهفة، ولعلّه فـوجىء بهذا الكـرم، فقـال منعاً للالتبـاس: قل لخـالك إنني سـأدفع لـه كل مـا عليّ ذات يـوم.. قال ذلك، وسحب سيجارة.

ـ لماذا تسأل عن الطاهر؟

أشعل سيجارة. نفث دخانها. أجاب: أريد أن ألتحق بالمجاهدين.

عرف ما يدور بذهنه، فعشرات من الرجال يتوجّهون إلى الشرق. إلى القنيطرة وقطنا. يلتحقون بجيش الإنقاذ. يبحثون عن بارودة وملابس كاكية وأحلام عن البطولة والبسالة ونياشين الشرف.

ـ حدّثت أحمد بيك عدّة مرّات ولكنه لا يستجيب.

أحمد بيك، الضابط السامي بجيش الإنقاذ، وهو يحلّ ضيفاً عند والده منذ أيام، جاء لينشر الدعاية ويطمئن الناس ويبحث عن مواقع جديدة لقواته . .

ـ هل رفض طلبك؟

ـ لم يرفض ولكنه لم يقبل أيضاً.

في تلك اللحظة توقّفت في الساحة المقابلة سيارة أبو حامد، سيارة (فورد) الصفراء، القادمة من الناصرة، وكانت تمرّ في طريقها بصفورية وعرب الصبيح . . وهبط من وراء عجلة القيادة (أبو حامد) وبدأ يفكّ الحبل الذي يمسك بالحقائب والأشياء المكدّسة فوقها.

ظلّ نجيب يحدّق بالسيارة الصفراء اللامعة، ولعلّه تخيّل نفسه يركب مقعدها الخلفي وهي تنهب الأرض نهباً.

قال راضي: إذن أنت تنتظر عودة الطاهر.

هزّ نجيب رأسه: أريد أن يرشدني فأنا ذاهب إلى هناك. وأشار بيده إلى ما وراء الأفق.

الطاهر . . يا لهذا الطاهر المغامر الجريء الذي يدمن على الغربة والجسارة، ويشقّ طريقه وسط اللهب، ويركب المخاطر والمصاعب.

ـ على كل حال إذا رفض أحمد بيك فسأذهب إلى القاوقجي . . إنهم يحتاجون إلى مزيد من الرجال.

قال ذاك وجاست عيناه في أرجاء الدكان، وتوقّفت فجأة عند تلك الدرع.

- ما هذا يا راضي.. ما هذا الشيء العجيب؟

كان موقناً بأن هذا الشيء سيثير خياله، سيفتح شهية حبّ الاستطلاع لديه.

- إنها درع ما.. درع ليس إلاّ.
- تقول إنها درع. لا تمزح.. أستحلفك بالله ألاّ تمزح.
- لا أمزح مطلقاً.. إنها درع ضد الرصاص.
- ومن أين حصل عليها خالك؟
- اشتريتها أنا لا خالي.
- كيف.. أستحلفك بالله أن تقول.
- اشتريتها من جندي انكليزي.. عابر سبيل.
- هل تأذن لي بتفحّصها؟

قال ذلك واستدار إلى ما وراء الطاولة قبل أن يسمع الجواب، وإذ أصبح أمام الدرع تماماً فإن راضي لم يمانع، وتركه يتفحّصها بكل حرية. قلبها بين يديه. تأمّلها ملياً. وضعها على صدره. وربما تخيّل نفسه فارساً ولو لهنيهة واحدة. ثم أعادها إلى مكانها.

- ماذا ستفعلون بها.. هل تبيعونها؟
- لا أدري ماذا سيفعل بها خالي.
- خالك لا علاقة له بالحرب فهو لم يحمل البندقية مرّة واحدة في حياته.
- لا دخل لي بهذا..

وقف نجيب. مشى ثم توقّف. ألقى على الدرع نظرة أخيرة وقال:

- هذه الدرع تحتاج إلى محارب شجاع يليق بها.. قل لخالك هذا الكلام.. تذكّر أن تقول له ذلك.

كان يتكلّم باعتداد، كأنما يتحدَّث عن نفسه.

* * *

توقَّف خالد الزهر أمام الدكان. شدَّ لجام البغل الذي يجرّ العربة وهتف:

ـ هيَّا..

ما زال راضي ينتظر عودة الخال، ويقاوم النعاس، والمؤذِّن يدعو لصلاة المغرب.

ـ هيَّا..

هتف خالد الزهر مرة أخرى. قالها هذه المرة بصوت عال. خالد الزهر سائس وخادم ولكنه في الوقت نفسه أحد أفراد الأسرة، إنه سائس وخادم وحرَّاث أحياناً، لكنه يستطيع أن يأمر وينهى أيضاً.

تثاءب راضي ثم دسَّ بضع حبَّات من الحلوى في جيبه ووقف. كانت الدرع أمامه تماماً. تحجبها العتمة المبكرة، ولكنه يبصرها بعين الخيال حتى وهو مغمض العينين. يبصرها ويكاد يشعر بملمس معدنها حتى دون أن يمسكها. وفكَّر لحظة في أن يحملها معه إلى البيت، لكنه تردَّد ثم قرَّر أن يتركها في مكانها.

سحب الدرج ووضع النقود في صرّة دسّها في عبّه، ثم أغلق باب الدكان، وصعد إلى العربة التي أخذت تميل ذات اليمين وذات الشمال، بينما البغل يتحامل على نفسه، ويجرّها بقوى خائرة.

ـ البغل جائع.. لماذا لم تطعمه؟

كان خالد الزهر يلفّ رأسه بكوفية سوداء.

ـ لقد أطعمته منذ ساعة، لكنه أصبح شرهاً.

خالد الزهر يعامل الدواب مثلما يعامل البشر، يحنو عليها. ينظِّفها ويعالج سنابكها ويداويها. وعلى الرغم من أن بعضها صعب المراس فإنه لم يكن يلهب ظهورها بلسعات الكرابيج.

تناول راضي حبّة حلوى وقدَّمها إلى الزهر، فأخذها منه ودسّها في فمه، فيما ظلَّت العربة تتمايل بين الأزقّة وفي المنعطفات.

قال الزهر: لم يعد خالك بعد.. تراه لم يتمكَّن من الحصول على ديونه.. إنه لمن الصعب أن يخرج أحد ما محفظته في هذه الظروف الصعبة.

ألحَّ النعاس على راضي فأغمض عينيه، وظلَّ خالد الزهر يتكلَّم:
- لكن إذا ما فكَّر أحدهم بأن يفتح محفظته فإنه يفعل ذلك لكي يشتري بارودة عثملية ذات ماسورة طويلة.

استسلم راضي للنعاس، وربما لم يكن يسمع جيداً ما يقوله الزهر الذي واصل الكلام:
- حدّثني الحاج حسين عن رغبته في شراء بارودة.. ربما يبيع البقرة (الخيسية) من أجل ذلك.

مال راضي وأسند رأسه على كتف الزهر.

لم يقوَ على مقاومة النعاس فنام. وعند ذلك توقَّف الزهر عن الكلام، وحثَّ البغل بحركة من اللجام لكي يسرع.

* * *

أمام البوّابة نبح الكلب مرة أو أكثر ثم أخذ يبصبص بذيله، ففتح راضي عينيه بعد أن أخذته سِنة من النوم، وأيقن أنه قد وصل.

ترجَّل خالد الزهر لكي يفتح البوابة الكبيرة التي تفضي إلى البايكة

ومخزن التبن، فقفز راضي وعبر حوش الدار الكبيرة إلى الدرج الذي يتّصل بالعِلّيّة.

أمّه تلفّ رأسها بغطاء أبيض وتهزّ سرير أخيه الصغير الذي أوشك على النوم. وعندما عبر عتبة الباب أشارت له بإصبعها كي لا يثير الضوضاء. لذلك دخل على رؤوس أصابعه دون أن يتكلّم كلمة واحدة، وأخرج من عبّه صرّة النقود ووضعها في حجرها، فهزّت رأسها، وظلّت تواصل هدهدة الصغير ذي الوجه الأبيض المشرب بحمرة ورديّة، وكان ينام وهو يغمض جفنيه نصف إغماضة، وترتسم على شفتيه ابتسامة.

كانت أمّه تقول إنه يبتسم لأن غزالة مرّت في أحلامه. جلس على البساط ينتظر أن تفرغ من عملها ليحدّثها عن الدرع التي اشتراها هذا اليوم.. ليحدّثها ومن ثم ليراقب ملامحها، فمنذا يستطيع مواجهة خاله سواها؟

ظلّ صامتاً على كل حال، وظلّ الصغير الذي يغفو أول غفوة يبتسم كأنما قطيع من الغزلان يرعى في حقول أحلامه. طال انتظاره، وعندما حاول أن يتكلّم أشارت له إشارة فهم منها أن يخرج ثم يعود بعد أن يكون الطفل قد غطّ في نوم عميق.

هبط الدرجات، ونزل إلى حوش الدار، كان خالد الزهر قد فكّ رباط البغل وحرّره من قيد العربة، وعلّق في رقبته الكيس ليأكل نصيبه من التبن، بينما الكلب (الذيب) يقعي على ذيله ويراقب ذلك.

ومن الجهة الأخرى كانت المضافة مضاءة فتوجّه نحوها. طرح السلام فلم يسمعه أحد. كان الرجال منهمكين في الحديث: أبوه، وزوج عمّته، ومختار الحارة التحتا، والشركسي، وأحمد بيك الضابط في جيش الإنقاذ،

وطارش غريب، بينما تمدَّدت أمامهم بندقية ذات رقبة طويلة كانت هي موضوع الحديث.

جلس راضي وأنصت. كان والده كعادته قد لفَّ سيكارة لتوّه ووضعها بين شفتيه وأشعلها بالقدَّاحة ذات الفتيل، بينما أحمد بيك يضع علبة «السعوط» أمامه، ويفتل بين حين وآخر شاربه الأشقر الجميل، ويهزّ رأسه.

كان الحديث عن هذه البندقية التي أسماها الطارش الغريب بالنمساوية، فصحَّح أحمد بيك معلوماته وقال إن اسمها البارودة الخديوية، وأنها من غنائم أهالي نجد في حربهم مع المصريين أيام الخديوي.

كانت هناك مساومة على سعرها، وتبيَّن أن الطارش الغريب هو صاحبها، وأنه من مكان ما بالجليل، ويريد بيعها لضيق ذات اليد.

قال الشركسي: إنها لا تساوي أكثر من عشرة جنيهات. فحلف الطارش الغريب بالطلاق أنه اشتراها بعشرين، وتدخَّل عند ذلك والده وطرح حلاً وسطاً، أي اقترح شراءها بخمسة عشر جنيهاً.

وعندما لان الطارش الغريب ووافق على بيعها بهذا الثمن، تدخَّل أحمد بيك وقال: ولكن هذا النوع من البنادق لا تتوفَّر له ذخيرة. فتراجع والده عن الشراء، وفسد البيع.

قام الطارش غاضباً وحمل بارودته، فوقف الشركسي محاولاً تطييب خاطره، إلا أن الرجل دسَّ رجليه في مداسه ومضى. وبعد خروجه خيَّم الصمت. . وانتبه والده لوجوده، وسأل مختار الحارة التحتا إن كان خاله قد عاد من سفرته أم لا، وجاء خالد الزهر فصب الشاي ودار به على الجالسين. ثم قام فأشعل مدفأة الحطب لأن الطقس أخذ يميل إلى البرودة، ثم عاد أحمد بيك وفتح حديث البنادق وأنواعها وذخيرتها وميزات كل منها.

الفرنسية أمّ حبّة، والألمانية ذات «البوز» الطويل، والعثمانية «أمّ صندوق»، والبندقية التركية المعشّرة، ثم التشيكية الممتازة لكن عيبها أن عتادها غير متوفّر. ثم فتح حديث المدافع. مدافع التومي، والبويز، والهاون، والمورتر.. وبعدها جاء حديث الرشاشات.. السْتِنْ، الفرنسي، السيداوم، الهوشكس، وعندما بدأ الحديث عن قنابل الميلز والسلبند استعرض معلوماته بالتفصيل، وإذ ذاك كان الجالسون قد تحوّلوا إلى آذان صاغية، وقد أثار الحديث أقصى حدود غريزة حب الاستطلاع لديهم. خطر ببال راضي أن يقول شيئاً عن كنزه الثمين الذي تركه في الدكان، إلاّ أن صوت أحمد بيك كان يعلو، والرجال يستمعون بانتباه ويطلبون المزيد، واللهب في المدفأة يأتي ويذهب، يندلع ثم يتراجع، يتطاير منه الشرر ثم يهدأ، وأثناء ذلك طرقت البوابة الخارجية، وهرع خالد الزهر ليفتح الباب. وقطع حبل الحديث دخول منصور بائع التذاكر في محطّة القطار. سبقه صوته وهو يعبر الحوش ويستأذن في الدخول. ثم طرح السلام، وخلع نعليه، ودخل.

دخل يلبس عباءة تحتها ثوب صوفيّ، وعلى رأسه الحطّة والعقال. كان منظره وقد خلع البدلة ذات الأزرار النحاسية يشبه أفندية حيفا، ولم يكن يعوزه لكي يكون أفندياً سوى الطربوش الأحمر.

فسحوا له مكاناً في الوسط، وقام خالد الزهر فأحضر المزيد من المساند.

وبعد السلام، وكلام المجاملة، واصل أحمد بيك حديثه، وكان قد وصل إلى المتفجرات (ت.ن.ت) وفعاليتها، وبعد ذلك تحدّث عن «الجلنجيت» وكيفية صنع فتائلها، ومن ثم حكى عن المدافع المضادة للطائرات، وعيارها.. الثابت منها والمحمول، وحكى بعدها عن المصفحات والدبابات، والمدافع المركّبة عليها، وأطوال سبطاناتها.. وخيّل

لراضي أن الرجال قد أصابهم الذهـول، وأن أحمد بيـك يبدو رجـلاً خارقـاً يأتي بالمعجزات، ولذلك أوغل في الوصف وذهب بعيداً في ذكر التفاصيـل، ولم يبقَ أمامه سوى الحديث عن القنبلة الـذريّة. ومـرة أخرى قـطع منصور بائع التذاكر سياق الحديث، وتساءل:

ـ وماذا يا أحمد بيك عن الدروع الواقية من الرصاص؟

أحسَّ راضي بالدماء تندفع في عروقه، وأضاءت في خياله الدرع الجميلة، الـزرقاء الغـامقة، دون كُمَّـيْن، وبصدر منتفـخ. تنـاول أحمـد بيـك علبـة «السعوط». فتحها، وأخذ شيئاً من المسحوق بإصبعيـه، ودفع بـه في أنفه. استنشقـه جيـداً بـأن رفـع رأسـه إلى الـوراء، ثم انحنى وهـو يمسـح أنفـه بالمنديل. وما هي إلاّ لحظات حتى عطس مـرة، وأخرى، وثـالثة.. وعنـد ذلك اعتدل مزاجه، فـاعتدل في جلستـه، وتهيأ لمـواصلة الحديث، غـير أن منصور بائع التذاكر عاجله بالقول:

ـ أراهن أنك لن ترى مثل الدرع التي بحوزة راضي!

تحـوَّلت النظرات إلى وجـه راضي، سقطت عليـه كـرشقـة مـطر. شعـر بـالعـرق يبلِّل جبينـه، ولعلّه ارتجف أو خـاف. تقـدّم أو تـراجــع. واتتـه الشجاعة أو تصنَّـع الجرأة، فـاندفـع يقول: إنها درع جميلة، لـونها كحلي، خفيفـة الوزن، بـدون كمَّيْن.. اشـتريتها هـذا اليوم، بـاعني إياهـا جندي انكليزي بثمن بخس، اشتريتها بنقود خالي عبد الكريم، ولا أدري إن كان ذلك سيعجبه أم يغضبه.

نظر إليه والده نظرة زاجرة: لماذا لم تخبرنا منذ أن وصلت أيها الفتى؟

حكَّ راضي رأسه، وصمت، فقال منصور:

ـ لقـد شاهـدت الدرع بعينيّ.. إنها شيء ثمـين حقاً، فـإذا مـا لبسهـا المحارب فإن كل رصاص الدنيا لن يثقب صدره.

ويبـدو أن أحمد بيـك احتاج إلى دفعـة جديـدة من السعـوط ليتمكّن من إدراك هذا الكلام الذي يُقال أمامه، وبعد أن عطس عطسة واحدة قال:

ـ ماذا تقول يا فتى. . هل أنت جاد حقاً؟

قاطعه منصور: لقد شاهدت الدرع بعينيّ. . أقسم على ذلك.

وانتقلت عينا راضي عبر الوجوه، والده الذي أخذته الدهشة، الشركسي الذي ازداد وجهه حمرة، زوج عمّته الـذي لا يحرِّك سـاكناً حتى لـو حدثت هزّة أرضيّة، ومنصور بائع التذاكـر الذي يبـدو مزهـوّاً لأنه جـذب بحديثـه الانتباه، أما أحمد بيك، فهزَّ رأسه عدّة مرّات قبل أن يقول:

ـ حسناً. . يجب أن نشاهد الدرع لنحكم لها أو عليها.

ومرّة أخرى توجَّهت الأنظار نحو راضي. أحسَّ أنه أصبح موضع اهتمام بعد أن لم يكن يحسّ أحد بوجوده، وشعر بزهـوٍّ أكبر من ذلـك الذي أحسَّ به يوم أن عيَّنه المدير عريفاً للصف.

نظر إلى والـده فشعر من نظراته المتعاطفة أن هذا الشيخ يضمر في قلبـه حناناً بحجم البحيرة.

قال له والده: اذهب مع الزهر واحضر الدرع من دكان خالك.

قال ذلك وناوله (الشبريّة) ذات المقبض الفضي لتكـون سلاحـه في أزقّة القرية الموحشة.

وقف راضي على الفور. وقف ووضع (الشبريّـة) على جنبـه تحت الحزام وشدّ قامته ومشى، وقبل أن يعبر العتبة قال له الوالد:

ـ خذ الذيب معك.

وكـان الذيب ما يزال يقعي على ذيله وسط الحـوش، لكنه مـا إن سمع اسمه حتى وقف، وانتصبت أذناه. كان الذيب كلبـاً يشبه الـذئاب، وكـان

متحفّزاً على الدوام، وينتظر إشارة ما لكي يعدو ويسابق الريح.

* * *

شدَّ خالد الزهر البغل إلى العربة، فبدا أكثر حيوية بعد أن أكل وجبة من التبن.

جلس راضي في المقدمة إلى جانب الزهر. جلس وهو يحمل بيديه الفانوس الصغير الذي يبدِّد شيئاً من عتمة الطريق. شدَّ الزهر اللجام فمشت العربة، ومشت هذه المرة بشكل أفضل.

كان البغل الذي يغرز سنابكه في الأرض الموحلة يجرّ العربة بقوّة وقد استعاد بعض نشاطه، بينما الذيب يرمح. يسبق العربة تارة، ويسير بمحاذاتها تارة أخرى. وبعد أن خرجت العربة من بين الأزقّة، ووصلت إلى الطريق العام، نشط البغل، ومضى يخبّ فوق الشارع المبلّط، بينما كان يقف في الشارع هنا وهناك حرس البلدية الذين يطلقون صفّارة بين الحين والآخر ليثبتوا لمن يهمه الأمر أنهم مستيقظون، وأن كل شيء على ما يرام.

وأمام مركز الشرطة كان الحارس الليلي يتدثّر بمعطف ثقيل ويشعل كومة من الحطب للدفء أو لطرد الوحشة. وهناك في الأعماق، في السهول البعيدة، عواء يبعث الرجفة في البدن.

توقّفت العربة أمام دكان الخال. حمل الزهر الفانوس وقام راضي بفتح الباب. أحضر الدرع ووضعها في العربة ثم أغلق الباب فيما الكلب يشبّ في الهواء، وغير بعيد ينبعث نقيق الضفادع.

قبل أن يصعد راضي إلى العربة جاء من بعيد صوت انفجار أضاء الأفق. أحسَّ راضي بجسده يرتجف، وإذ ذاك دكَّ الفضاء انفجار ثانٍ أكثر قوة.

ـ اصعد.. اصعد.

قال خالـد الزهـر، وشدّه إلى أعـلى. ثم استـدار بالعـربة وأطلق لبغله العنان. ولعلّ البغل شعر بالخطـر فانطلق يعدو، وانطلق معه الذيب يعدو ولا يتوقّف عن النباح.

دكّ انفجار ثالث الأفق الملبّـد بالغيـوم، فقال الـزهر: يـا لطيف ألـطف بنا..

كان الشارع قد خلا تماماً، فما من أحد يـطلّ من وراء باب أو من وراء نـافذة. استـدار نحو الشـوارع الضيّقة. كـان البغل يعـرف طريقـه جيداً، ويمشي بـالغريـزة. وكاد راضي ينسى الـدرع إذ ظلّ يحمـل الفـانـوس بيـد، ويضع اليد الأخرى على مقبض الشبريّة.

وعندما وصلا إلى البوّابة الكبيرة كانت الانفجارات قد توقّفت، وأعقب ذلك صمت شديد الغموض. وقف الذيب يلهث.. وداخل المضـافة كـان هرج ومرج، فقال أحمد بيك الذي كان قد نزل لتوّه من عـلى سطح المنـزل وقد استطلع الأمر: إن شيئاً ما يحدث في طبريا.

ثم أضاف مخاطباً نفسه: على كل حال وصل صبحي شاهين مـع رجالـه إلى هناك منذ أيام، والأمور تمام التمام.

فقاطعه الشركسي: ولكن اليهود أكثر من العرب في طبريا.

كـان الرجـال ينظرون وقـد ارتسم على وجـوههم الخوف أو الإحسـاس بالضياع.

قال أحمد بيك: لا تخافوا. فوج اليرموك الثاني من جيش الإنقاذ يتـأهّب على الحدود.

ثم دسّ شيئـاً من السعوط في أنفـه، وأضاف: سـوف نمسحهم من على وجه الأرض أولاد الميتة.

وإذ ذاك دخل خالد الزهر يحمل بين يديه الدرع ذات الأبّهة. وعندها صمت أحمد بيك أو وجم وهبَّ واقفاً على قدميه.

أية قوة خارقة جعلته يقف بهذه المهابة؟ أمسكها بكلتا يديه. قلبها. ثم نظر إليها من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل. دقَّق في ظاهرها وفي باطنها. طرق على معدنها بأصابعه، والناس يتحلَّقون حوله وينظرون بانبهار.

- إنها شيء ثمين حقاً.. درع واقية من الرصاص من طراز (بريستول) من صنع بريطاني. درع عسكرية فاخرة.

انبرى منصور بائع التذاكر:

- ألم أقل لكم؟

التفت أحمد بيك إلى راضي:

- لقد فعلت شيئاً عظيماً أيها الفتى.. بكم اشتريت هذه الدرع؟

أجاب راضي: بعشرة جنيهات.

قال أحمد بيك: إنني أدفع فوقها خمسة جنيهات وأشتريها منك.. هل تبيعني؟

شعر راضي بنشوة. إنهم ينظرون إليه كرجل حقيقي ويتعاملون معه على هذا الأساس.

نظر إلى والده الشيخ يستمدّ منه الرضى وقوّة القلب، فابتسم الشيخ وقال: أنت تنوب عن خالك أيها الولد.. تصرَّف كالرجال.

نظر راضي إلى أحمد بيك. إلى ملابسه العسكرية، وإلى النجوم التي تلمع على كتفيه، وخيِّل إليه أن أحمد بيك هو الجدير بمثل هذه الدرع، هو الفارس الذي يمكن أن يلبسها وينطلق إلى الحرب بثقة.

ـ النقـود ليست مهمّة يـا بيك. . المهم أن تجـد الـدرع الـرجـل الـذي يستحقّها.

ضحك منصور، وهتف الشركسي:

ـ ينصر دينك يا ولد.

وأضاف راضي: وأنت خير من يلبسها يا بيك.

انفرجت أسارير أحمد بيك، واتسع صدره، وبرقت عيناه، ومدَّ يـده إلى جيبه، وأخرج ورقتين من فئة عشرة جنيهات وقال:

ـ هـذه عشرون جنيهاً. خمسـة عشر جنيهاً لخـالك، وخمسة لك. . أنت فتى شجاع يا راضي وذات يوم ستكون مقاتلاً جيداً.

قال ذلك، وأمسك بالدرع يتحسَّس قماشها المتين.

* * *

جاء نجيب في الصباح الباكر. جاء يلبس سروال «بريشز» ينتهي بحذاء ذي رقبة طويلة، وسترة كاكية شتوية غامقـة، وقد أضـاء وجهه الحليق (إنها لمن المرَّات النادرة التي حلق فيهـا ذقنه). . وزاده الشـارب الأسود الـرفيـع وسـامة وفتـوّة. من أين حصل عـلى كل هـذه الملابس؟ لقـد جاء عـلى كل حال. جاء وطرق الباب مرتين. الباب المفتوح الذي كان الشيـخ قد فتحـه منذ الفجر وهو يخاطب خالق الخلق، وباسط الرزق. الباب الذي عبر منـه البغل والعربة وخالد الزهر للالتحاق بموقـع قطيـع الغنم، جهة الكـرنتينا، قبـل أن يخرج الخيط الأبيض من الخيط الأسـود. طـرق البـاب طـرقتـين، فجاءه الإذن بالدخول.

عبر الحوش الـذي ظلَّت مياه المـزاريب تتساقط عـلى جوانبه طوال الليل فحّولته إلى برك صغيرة. . ودخل المضافة، بينما كانت تسقط في الزاوية بين الحين والآخر نقطة ماء من سقف القصب.

ـ صباح الخير يا بيك.

ظلَّ البيك يتدثَّر بفروته، ولكنه تمتم بما يشبه التحية. جلس نجيب غير بعيد، وعلى الرغم من أنه قلما يأتي إلى المضافة باعتباره شخصاً غير مرحَّب به، إلاَّ أنه يعرف المكان الذي يتعينَّ عليه أن يجلس فيه أمثاله من غير المرغوب فيهم. سقطت نقطة ماء أخرى في تلك الزاوية. سقطت من ثغرة ما في السقف، فقال نجيب:

ـ المطر الشديد جعل السقف يدلف يا بيك.

هزَّ البيك رأسه، ولعلّه انتبه إلى هذا اللباس النظيف الذي يلبسه نجيب، وظهر ذلك من خلال إدامته النظر إلى السترة الكاكية الجميلة، ولكنه لم يقل كلمة واحدة. وفي الوقت نفسه وقعت عينا نجيب على تلك الدرع التي يضعها البيك قرب وسادته، فهتف:

ـ يا لهذه الدرع الرائعة! أظن أنني شاهدتها من قبل.

سعل البيك، واعتصم بالصمت. كان من الواضح أنه لا يرغب في رفع الكلفة مع هذا الرجل اللجوج الذي لا يملّ من طرق الأبواب الموصدة.

ـ إنها درع متينة على كل حال.

ظلَّ أحمد بيك يخلد إلى الصمت، لكنه صمت ظاهري، وسكينة خارجية. أما من الداخل فقد بدأ صبره ينفد، إذ ليس من اللائق أن يستمرّ هذا الرجل في كسر الحاجز والبحث عن ثغرة في الحديث ينفذ من خلالها إلى غرضه، كما أنه ليس من اللائق أن يتكلَّم مشروع جندي في ملابس شبه عسكرية مع ضابط كبير وهو في ثياب النوم، بينما بزّته العسكرية معلَّقة على مسمار في الحائط.

ـ أراهن أن هذه الدرع ليس لها شبيه يا بيك.

وعند ذلك وصل الغضب إلى درجة لا تطاق، فغطّى البيك الدرع

بطرف فروته الصوفية، وحجبها عن الأنظار. وقال كأنه يصدر أمراً عسكرياً:

- قم واعمل الشاي بدلاً من الحديث الفارغ.

ربما كان نجيب قد فوجىء، ولكنه امتثل ووقف، بل إنه شعر بالفرح لهذا الأمر الذي يعني الاعتراف به والتعاطي معه. بحث في الزاوية عن الحطب فأشعل الموقد، ثم فتّش عن الإبريق المطليّ بالشحار فنظّفه عند العتبة التي تنتهي بمصرف، وملأه من (الخابية) التي نبت الطحلب على سطحها. ومن الصندوق أخرج حفنة من السكّر وحفنة من الشاي وألقاهما في الإبريق الكبير الذي لا ينزل عن منصب الحديد فوق الموقد إلاّ وقت النوم. وسحب وسادة محشوّة بالتبن فجلس عليها ينتظر الشاي لكي يغلي ويفور. وخلال ذلك قام أحمد بيك بالفانلة البيضاء والسروال الأبيض الشتوي الطويل المصنوع من الصوف الخشن، قام فغسل وجهه ثم ذهب إلى مرحاض البايكة لقضاء حاجته. وفي الوقت الذي كان فيه صوت الهواء المضغوط الخارج من أمعاء البيك يقرقر من داخل البايكة كالماء في النرجيلة، أخذ البخار يتصاعد من فم الإبريق. بل إن البيك أخذ يصدر بعد قليل وهو يعاني من الإمساك أصواتاً عالية تشبه الفرقعة. فكتم نجيب ضحكة أفلتت منه. وإذ عاد البيك بوجه أحمر لكثرة ما توتّر وهو يشدّ ويرخي فقد وجد الشاي جاهزاً في (الكباية) الكبيرة.

وعلى الرغم من أنه توقّع أن يكون هذا الرجل قد سمع عراك أمعائه من داخل البايكة، إلاّ أنه تجاهل ذلك، وعمد إلى بزّته العسكرية المعلّقة على المسمار فلبسها، ثم دسَّ قدميه في البسطار، ووقف وشدَّ قامته، وبدا رجلاً آخر غير ذاك الذي كان منذ قليل في المرحاض يبيع ويشتري.

وأصدر أمره الثاني بعد ذلك: هيّا.. رتّب الفراش.

ولقد أصبح نجيب مهيأً لتنفيذ الأوامر مثل جندي ما زال في دورة (أغرار)، فنفّذ على التوّ ما طلب منه. جلس أحمد بيك أو على الأصح تربّع على الفرشة. الحقيقة أنه تربّع فوق فرشتين وضعت الواحدة فوق الأخرى إمعاناً من صاحب البيت في تكريم ضيفه.

تربّع ورفع بيده «كباية» الشاي الغامق؛ الشاي الذي تخمّر في الإبريق وفاح شذاه. وفيها ألسنة اللهب تتعالى في المدفأة وقف «الذيب» في الباب، وقف بفروته البيضاء المتسخة، ولعل رائحة الدفء قد جذبته، وظلّ واقفاً عند العتبة دون أن يجتازها ولو بوصة واحدة.

أخذ نجيب ينظر إلى طرف الدرع الذي يظهر من تحت الفروة. وودّ لو قام البيك بكشف الدرع ذات النداء الخفيّ.. ودّ لو استطاع ذات يوم أن يلبسها مثلما يفعل المحاربون الأشداء.

شرب البيك كباية الشاي حتى الثمالة، فقام نجيب وصبّ له أخرى.
- يا سيدي البيك.. أريد أن أكون جندياً معك.

إنها ليست المرة الأولى التي يطلب فيها هذا الطلب، ولعلها المرة الخامسة أو السادسة، ولكنه لم يسمع الجواب ولو مرة واحدة.

فكّر البيك الضابط قليلاً.. ما الذي يمنعه من قبول هذا الشاب الذي يتدفّق حيوية؟ بل ما الذي يمنعه من أن يكون حاجباً له وخادماً؟ إنه مطيع كما يبدو، ويتحرّق شوقاً للانخراط في الجيش. لكن ماذا سيقول أهل البلدة؟ أية شكوك ستساورهم إذا ما قبل الجيش في صفوفه متسكّعين وعاطلين تعوزهم المشاعر الوطنية الوهّاجة؟

قال البيك فجأة: اسمع يا نجيب.. عليك أن تثبت أنك جدير بشرف العسكرية أولاً قبل أن نقبلك.

صبَّ له الكباية الثالثة وقال: حاضر يا سيدي.

احتسى البيك الضابط المزيد من الشاي: إنها الحرب يا نجيب.. الحرب تحتاج إلى جنود حقيقيين.

وقف نجيب وأدَّى التحية معبِّراً عن غبطته باعتبار أن كلام البيك يعني أنه قطع نصف الطريق إلى الانخراط في الجندية.

ـ أنا في خدمتك يا سيدي.

فتح الضابط علبة (السعوط) وحشا أنفه: يجب أن تحصل على تزكية من رئيس البلدية أو من شخص ما يتمتَّع بالأهلية والوجاهة.

ـ أحضرت ورقة تزكية من المختار يا سيدي.

وأدخل يده في جيبه وسحب ورقة مطوية وقدَّمها للبيك الذي فتحها وألقى عليها نظرة سريعة:

ـ جيِّد.. ولكن عليك أن تعلم أنك ستخضع للفحص الطبي.

ـ ولِمَ لا؟ ها أنت تراني يا سيدي مثل الحائط أو الصخر؟

ـ وسيتعيَّن عليك أن تخضع لدورة عسكرية مكثَّفة في معسكر قطنا.

ـ أعرف ذلك يا سيدي.

ـ دورة عسكرية قاسية لا يصمد فيها إلَّا الأقوياء.

ـ أعرف ذلك أيضاً.

ـ أما معاشك فهو أربعة جنيهات ونصف الجنيه.

ـ أريد أن أتطوَّع لكي أدافع عن بلادي، وليس من أجل المال يا سيدي.

ودقَّق البيك في ملامحه ليتأكَّد من صحة قوله، ثم قال: إذن ستكون جندياً يخضع للانضباط.

كادت دمعة تطفر من عينيه، فقال بتأثُّر: سأرفع رأسك عالياً يا سيدي.

وعند ذلك، انسلّ الذيب وابتعـد عن عتبة البـاب، فقد جـاء راضي. . دخل يحمل صينية الإفطار.

* * *

دخل راضي يحمل صينية الإفطار. صينية واسعة، عليها صحون البيض المقلي والجبنة والزيتون واللبنة والزعتر والعسل ودستة من الأرغفة الساخنة.

كان قد أفاق من نومه باكراً. فتح عينيه على فضـاء رائق وسماء صـافية، وعصفور يزهو بريشـه حطَّ وراء زجاج النافذة.

توقّف مطر ظلّ يسح على الزجاج. توقّف مطر هطل غـزيراً فظلّ يجذبه الدفء اللذيذ، لكن صوت والدته أيقظه تماماً، فالساعة أصبحت السادسة والنصف، وعليـه أن يقوم بـأعمال عـدّة قبل أن يحـين موعـد الـذهـاب إلى المـدرسة. وكـانت الوالـدة قد أنجـزت أعمالهـا الصبـاحيـة المعتـادة. سقت أصص الـزهور والحبق والعـطرة، ثم أرضعت الصغـير وغسلت مـلابسـه، وبعـد ذلك أعـدّت الفطور للضيف، ثم فتحت ديـوانية عـبر السطوح مـع عمّته. عندما دخل وقف نجيب الذي يلبس ثياباً نظيفة، ويبدو حليقـاً على غـير عادة، وقف وتنـاول منه صينيـة الإفطار، ووضعهـا أمام البيـك الذي يتربّع على فرشتين من الصوف، وقد ارتدى بزّته العسكرية.

قال الضابط البيك: بارك الله بك أيها الفتى الطيّب.

قال ذلك وامتـدّت يده إلى رغيف سـاخـن فشقّه إلى نصفـين، ثم نزع كسرة غمسها بالزيت ثم بالعسل ودسّها في فمه.

كانت لقمة كبيرة عبّأت فمـه من كل النـواحي، حتى كاد يعجـز عن أن يلوك على الجانبين. وعندما سأله نجيب إن كان يرغب في شرب الشاي مع

الطعـام لم يتمكّن من الإجابة، فاكتفى بأن رفع حاجبيه إشارة للنفي.

جلس راضي بـالقـرب من نجيب الـذي لم يجـرؤ عـلى الاقـتراب من الـطعام، إذ إن البيـك تجاهـل دعوتـه. جلس ووقعت نظراتـه عـلى طـرف الدرع المغطّاة، وودّ لـو يكشف عنها ويلقي عليهـا نظرة أخـيرة قبل رحيـل البيك.

بلع البيك لقمته أو عـلى الأصح ازدردهـا، فقد أصيب بغصّـة. توقّفت اللقمـة في حلقـه وكـاد يختنق لـولا أن هبَّ نجيب وأحضر كـوب مـاء من الخابية.

ساعده على بلع اللقمة بعد أن أصبح وجهه شديـد الحمرة. أمـا اللقمة الثانية فقـد غمسها بـالزيت واللبن المصفّى، لكنـه قبل أن يلقيهـا في فمه دخل الحاج حسين قادماً من صلاة الفجر يسبقه عكازه، وبعض الدعـوات الصالحات التي يحفظها عن ظهر قلب من كتاب «دلائل الخيرات».

وضع البيك اللقمة جانباً وتهيّأ للوقوف، فحلف الحاج يميناً غليظة أن لا يقوم أحد عن الزاد.

جلس الحاج بعد أن نحّى جانباً عباءته الصوفية الثقيلة، وسـأل ضيفه: هل نمت جيداً؟

- الحمد لله..

أجاب البيك، ثم أشار إلى الطعام: ألا تشاركنا يا حاجّ؟

كـان الحاج لا يتنـاول في الصبـاح سـوى مقـدار فنجـان قهـوة من زيت الزيتون الصافي، وغير ذلك لا يأكل شيئاً: بالهناء والشفاء.

وواصل البيك مهمّته. دسّ اللقمة بين فكّيه، في حين ظلّ نجيب ينـظر أو ينتظر.

قال الحاجّ: كل يا نجيب. . خير الله كثير.

تعلقت عينا نجيب بوجه البيك. كان يخشى أن يحدث ما يعكر الجو، فأشار له البيك إشارة ما، هزة من الرأس لا تكاد تلحظ، فهم منها أن لا مانع، فامتدّت يده إلى الزاد وأكل بنهم.

قال البيك: ـ نجيب أصبح متطوّعاً في جيش الإنقاذ يا حاجّ.

كان الحاج قد أخرج علبة التبغ وورق السيجارة، فقال وهو يهم بفتح العلبة: الله الموفق.

لم يفهم كلام الحاج تماماً، فهل يقصد الاستحسان أم الاستهجان؟

وتدخل راضي، وقال بحماس: نجيب قويّ وشجاع.

ورفع البيك رأسه ونظر إلى ملامح الحاج، غير أن الحاج واصل العمل. وضع دفتر السيجارة بين الإبهام والسبابة، ووضع التبغ الناشف فوق الورقة وسوّاها، ثم بلل طرف الورقة بلسانه ولحمها بالطرف الآخر وأدارها، ثم سوّى مقدمتها، ووضعها في فمه وأشعلها.

قال البيك بعد أن شبع: البلاد طلبت أهلها يا حاجّ.
كانت تلك إشارة تعني أن البيك قد عزم على السفر.
ـ البيت بيتك. . نحن الضيوف وأنت صاحب الدار.
أجاب البيك: ـ تسلم الدار وأصحابها.

وسحب طرف الفروة الصوفية فانكشفت الدرع، وسقطت عليها الأعين من كل صوب. وكان نجيب ينظر بانبهار، فأصدر البيك له الأمر الثالث هذا الصباح:

ـ هيّا يا نجيب. . إذهب وأحضر حقيبتك، فبعد ساعة تأتي السيارة لتنقلنا إلى بيسان.

بعد ساعة كانت سيارة (أبو حامد) قد انطلقت وبدأت تقطع الفيافي.

البيك يجلس في المقعد الخلفي، ونجيب يجلس بجوار (أبو حامد).. أما الدرع فكانت قد وضعت مع الأمتعة في الحقيبة الكبيرة.

أوغلت السيارة باتجاه الجنوب، وأبو حامد يرسم على جبينه تقطيبة حادّة، ويسوق دون أن يلتفت حوله أو ينظر عبر المرآة إلى الضابط الذي ظل يدخن الغليون بلا توقف.

ـ أما زالت المسافة طويلة؟

قال نجيب. فاكتفى أبو حامد بهزة من رأسه هزّة لا تعني شيئاً، فأعاد نجيب السؤال:

ـ كم عدد الأميال المتبقية حتى نصل إلى ضواحي بيسان؟

تذّمر أبو حامد وقال بعصبية: وحّد الله..

فتدخّل عند ذلك البيك، وقال وهو يغوص في إسفنج المقعد متصنعاً خفة الظل:

ـ لا تنس يا أبو حامد أنك تخاطب جندياً في جيش الإنقاذ لا نجيباً صياد السمك.

وكانت السيارة تدور حول منعطف. وكان على (أبو حامد) أن يأخذ حذره خوفاً من الانزلاق، فاستدار دون أن يعلّق بكلمة.

تدخّل نجيب ممازحاً: أبو حامد من جماعة المفتي.

اعتدل البيك قليلاً: إذن هو من جماعة الطاهر.

التقت نظراته بنظرات أبو حامد على المرآة الأمامية. فخرج أبو حامد عن صمته قائلاً:

ـ هذا صحيح يا بيك.. أنا من جماعة الطاهر.

أشاح البيك بوجهه، ثم أسند ظهره إلى ظهر المقعد وقال متعجباً:

ـ بالله عليك: أيّ ساحر هذا الذي تدعونه الطاهر؟

قال نجيب باقتضاب: الطاهر ابن بلدنا.

وأضاف أبو حامد: يمكنك أن تعتبره البلدة بأسرها.

وعند ذلك تم وضع حدّ للمحادثة الوحيدة والقصيرة التي جرت طوال الطريق. وعند مشارف بيسان توقفت السيارة، فهناك أمام مدخل المعسكر، هناك بين الأشجار، كانت قد ضربت عشرات الخيام العسكرية في براري الغور الشاسعة.

* * *

عندما ترجل البيك من السيارة خفّ إليه جندي يحرس البوابة، وأدّى له التحية كيفما اتفق. وقال:

ـ الحمد لله على السلامة يا سيدي.

كان جندياً شاباً ذا شارب كث عريض، يحمل على كتفه بندقية طويلة، وعلى الكتف الأخرى «جربندية»، وعلى الخصر حزام «سلحلك» مرصع بالفشك، ومن طرف الحزام تتدلى زمزمية ماء. ووراء كتفه تتدلى خوذة عسكرية.

ـ إنهم ينتظرونك في الداخل يا سيدي.. لقد جاء مندوب المفتش العام من دمشق.

بدا على البيك اهتمام مفاجىء: قلت لي مندوب المفتش العام؟.

ـ أجل يا سيدي، وأعلنت في السرية حالة الاستنفار.

تحوّل الاهتمام إلى ارتباك، وداری ارتباكه بابتسامة، ومدّ يده إلى جيبه،

ونقد (أبو حامد) أجرته، بينما عمد نجيب والجندي إلى مؤخرة السيارة لسحب الحقائب.

ـ خذ حذرك.

قال البيك للجندي الذي حمل الحقيبة الكبيرة، وفي الوقت نفسه استدار أبو حامد راجعاً، فعبر البيك ونجيب البوابة. وبعد خطوات التفت إلى الجندي وخاطبه بلطف قائلاً:

ـ يا أسد الشهباء، خذ نجيب إلى خيمتك وأنزله بصحبتك ريثما نرسله إلى قطنا، أما هذه الحقيبة فضعها في مهجعي.

ثم سوّى من وضع ثيابه، وحسّن لياقته وهندامه، وأسرع إلى مقر قيادة السرية.

قال الجندي: هذه خيمتي.. أعني خيمتنا.. ستبقى لوحدك إلى أن تنتهي نوبتي.

ولم يكن أحد هناك في الخيام القريبة الأخرى.

ـ إنهم يتجمعون في مكان قريب حسب قرار الاستنفار.

دخل الخيمة الصغيرة. خيمة ذات سريرين. سرير مرتّب فوقه غطاء من الصوف الملوّن، وآخر فوقه فرشة من الإسفنج دونما وسادة ولا غطاء، فجلس عليه. جلس ووضع حقيبته الصغيرة على الأرض. الحقيبة التي تحوي بعض الملابس الداخلية وقميصاً من القطن، وسروالاً كان يأمل في أن يلبسه لو قدر له أن يذهب في إجازة من قطنا إلى دمشق.

لم يدر ماذا يفعل. كان الجو غائماً ولكن في هذه المناطق الدافئة لا أثر للبرد. خطر له أن يخرج فيتمشى، لكنه تردد. ثم وقف بعد أن ملَّ الانتظار، وأطل برأسه من باب الخيمة.

الساحة فارغة، ثمة طائر من فصيلة الحجل يحط على شجرة دفلى، وهنا وهناك كانت الأعشاب ونبات الشومر والخرفيش والكرسعنة قد بدأت تطل برؤوسها، وهناك في الأعالي كان الفضاء ملبداً بالغيوم السوداء.

* * *

عند باب خيمة قريبة، كان رجل يجلس على حجر ويكتب. ماذا يكتب؟ كان يكتب بانفعال كأنه ينحني على وعاء غسيل ويدعك قطعة من الثياب.

ـ السلام عليكم.

رفع الرجل رأسه، توقف قلمه عن الكتابة، ورفع ذراعه إلى أعلى، كان يبدو كما لو أن يده قد غاصت حتى المرفق بالماء والصابون.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قالها كاملة، على الرغم من الإعياء الذي يبدو على وجهه.

ـ هل أنت جديد هنا؟

ـ لقد وصلت لتوّي.

ـ أهلاً بك.. تفضل.

قرفص نجيب أمامه. وضع الرجل الأوراق في حجره، وحرص على ألاّ يبدي انزعاجه، لكن كان واضحاً أن ملامحه تقول: «من الأفضل أن يكون المرء وحيداً في بعض الأحيان».

ـ من أين أتيت أيها الأخ؟

قال الرجل الطيب الملامح. وأعاد القلم إلى جيبه فعرف نجيب أن لهجة محدِّثه عراقية، فأجاب:

ـ من سمخ.

ـ آه... إنها لا تبعد كثيراً عن هذا المكان.

وعبرت من أمامها دراجة عسكرية تلتصق بمحاذاتها عربة فارغة، وأشار سائقها الذي يضع على رأسه خوذة، وعلى عينيه نظارة سوداء واقية من الريح ، أشار أو لوّح بيده قائلاً:

ـ لا تنس أن تتناول الدواء في مواعيده.

قال ذلك ومضت دراجته تتقافز كالجندب فوق الأرض المفروشة بالحصى، وبعد أن غابت تماماً، ضحك الرجل وقال:

ـ إنه الممّرض عدنان . .

ـ هل تشكو من شيء؟

ـ قليل من البرد . . ووجع خفيف في المعدة. لا تقلق.

لكنه كان متعباً ومكدوداً على الرغم من ذلك.

لمع البرق، وتبعه صوت الرعد . . وما هي إلاّ لحظات حتى بدأ الرذاذ يتساقط.

ـ هيا إلى الداخل.

لم يكن في الخيمة أسرّة، كانت أرضيتها مفروشة بالأغطية الصوفية، وتتناثر هنا وهناك، الجعب، وأمشطة الرصاص، وأدوات التنظيف، وبندقية تستند على عمود الخيمة.

جلسا متقابلين، وظلت خيوط المطر تنقر قماش الخيمة. صمت الرجل العراقي. صمتت عيناه. صمتت ملامحه. صمت شحوبه. وصمت نجيب. تمنى لو أغمض عينيه وفتحهما فإذا هو في «قطنا». كم سيكون منظره غريباً بين هؤلاء الرجال المدربين. ماذا سيقول لو أن هذا الرجل ذا الوجه الجليل طلب منه أن يساعده في تنظيف البندقية؟ أو ماذا سيقول لو جرى الحديث عن السلاح وأنواعه أو عن الحرب وفنونها؟

ازداد رشق المطر. تساقط بغزارة ورافق ذلك برق ورعد.

ـ إنه شباط ما عليه رباط.

قال نجيب ذلك وتذكَّر في الوقت نفسه سمخ وحنَّ إليها. يا إلهي. لعل هذا الرجل الذي يصمت أمامه يمسك بين يديه رزمة من الأوراق البيضاء، لعله يفكر الآن في البصرة أو بغداد أو في بيت ما من ضواحي النجف.

ـ ماذا تكتب؟

ـ إنها أوراق شخصية.. محاولات لكتابة شيء ما. وتستطيع أن تقول على وجه الدقة أنني أتسلى بالكتابة.

وعند ذلك جاء جندي الحراسة «أسد الشهباء». جاء والماء ينقط من خوذته وملابسه العسكرية الثقيلة.

ـ أين أنت يا رجل.. هل سحرك عبد الرحمن بحديثه؟

عرف أن اسمه عبد الرحمن فابتسم، فيما أضاف «أسد الشهباء»:

ـ هل سحرك بقصصه وحكاياته ومشاهداته وأحاديثه الغرائبية العجيبة؟

ضحك عبد الرحمن وقال: لم يكن لدينا الوقت الكافي.. ثم إنه جاءني في لحظة كآبة.

خلع «أسد الشهباء» معطفه المبتل، وأزاح خوذته ووضعها جانباً. وجلس.

كان «أسد الشهباء» قد أنهى نوبته في الحراسة، وملّ من الوحدة. وفيما صمت عبد الرحمن ظل «أسد الشهباء» يحكي. حكى كثيراً. حكى عن نفسه وعن مدينته حلب، وحكى عن التدريب في قطنا، والقيادة في الشام، ووصف المفتش العام، ومندوب المفتش العام، وسرد قصصاً عن الرئيس محمد صفا قائد الفوج، والرئيس أحمد بيك قائد السرية، وعن المتطوعين المصريين، وعن الأسلحة، وعن المناورة، وعن اليهود ـ أولاد الميتة ـ الذين

بدأوا يقطعون الطرق، وعن قوة الاستطلاع، وعن المستعمرات وعددها، وعن أسلحة العدو وأنواعها، وعن الضباط ومزاجهم، والضباط وسياراتهم، وعن اللاسلكي «الويرلس»، والبرقيات العاجلة، وعن الاستنفار الحقيقي، والاستنفار الكاذب، وعن المعركة التي اقترب أوانها.. أحس نجيب بالتعب والإرهاق، وبدأ عبد الرحمن يتثاءب.

* * *

نام نجيب في هذه الظهيرة. نام واستغرق في النوم. ورأى في أحلامه البحيرة، وحقول الباذنجان، وبساتين الموز والليمون. رأى الأمواج تناطح الصخور، وأحمد الملاّ يزق الماء ويفتح باب الرضا. ورأى خالد الزهر وقد ارتسمت حول وجهه هالة الأنبياء، أما الذيب ذلك الكلب الأبيض الذي يسابق الريح فقد ظل يركض حتى آخر مدى. والولد راضي يسأله عن الدرع بينما تنبجس من عينيه دمعتان، والرياح الشرقية تهب حاملة صفير القطارات، وهدير بوابير البحر، وضجيج طواحين الحبوب، وعواء ذئاب البراري، ومواء قطط شباط الشبقة. ثم رأى بدرية مكحلة العينين.. رآها في ثياب النوم ترخي جدائلها، فتندلع الحمى في الجسد، يغلي الدم في العروق. تسقط قذيفة في مكان ما. يختلط الشهيق بالانفجار، وتطبق الشفاه على الشفاه، ويصبح للقبلة مذاق الدم. وأفاق على هزّة عنيفة. أفاق وفتح عينيه في وجه يطل منه الرعب.

قال له «أسد الشهباء»: ـ يا نجيب هيا.. أحمد بيك يطلبك وعليك المثول أمامه حالاً.

دَعَك عينيه، وهبط من السرير بتثاقل، يا لأضغاث الأحلام. يا لهذا المنام الممزق. فتح الزمزمية المعلقة، وشرب قليلاً، ثم مسح وجهه بحفنة ماء، وأصبح بإمكانه أن يستوعب ما قيل.

ـ قلت لي إن البيك يطلبني.

ـ يريدك على الفور.

دس قدميه في الحذاء الثقيل، ووقف يصلح من شأن ثيابه، وقد انتابته رهبة اللحظة القادمة.

* * *

خيمة كبيرة تتسع لعشرة أشخاص، في الوسط طاولة حديدية من النوع الذي يُطوى عند الضرورة. ومن السقف يتدلى «لوكس» مضاء على الرغم من أن المساء لم يحل بعد.

توقف تساقط المطر، لكن الجلبة والضوضاء لم تتوقفا، فمن الداخل إلى الخارج، أو من الخارج إلى الداخل حركة دخول وخروج. الأوامر. الأوراق. كأن شيئاً جللاً حدث أو يحدث الآن.

يجلس أحمد بيك وراء الطاولة يوقع الأوراق ويصدر الأوامر.

يدخل «المكوجي» الذي أصبح لحذائه نعل آخر من الطين، وقد ملس حلته العسكرية وجعلها في أحسن هيئة، ويعلقها على مسمار في عمود الخيمة.

يدخل حاجب يحمل الحذاء الأسود ذا الرقبة الطويلة وقد صبغه، وجعل للمعانه بريقاً. ونجيب يقف ولا يفعل شيئاً. يقف ولا يجرؤ على الجلوس فوق كرسي من هذه الكراسي الكثيرة التي تملأ الخيمة. يقف وينتظر، والبيك لا ينظر إليه، ولا يكلمه، ولا يشعر حتى بوجوده.. فلماذا إذن طلبه وألح في الطلب؟ ودخل الحلّاق يحمل حقيبته، ووقف ينتظر السماح له بأن يقوم بواجبه.

يقف أحمد بيك مثل الديك. يدس يده في جيبه ويفكر.. أي اشتباك يحدث في هذا الرأس الكبير؟!

هل تأذن لي يا سيدي أن أحلق لك ذقنك.

رمقه بنظرة ذات دلالـة، ولم يقل شيئـاً، كـأنـه يقـول: ألا تـرى كم أنـا مستغرق في التفكير.. فكيف تقطع حبل أفكاري؟ ظل الحلّاق الذي يحتذي بحذاء تلتصق بنعله طبقة كثيفة من الطين يقف ممسكاً بحقيبته، وظـل نجيب يحسّ بغربة أو رهبة.

دخـل «أسد الشهبـاء» فجأة. دخـل وأدى التحية، وقـدم للبيـك رسـالـة قرأها، وبدا عليه الرضى والاطمئنان، وربما انفرجت أساريره فقد ارتسم على شفتيه ما يشبه الابتسامة، وقال: «عـلى بركـة الله.. على بـركة الله» ولم يفهم نجيب شيئاً إلّا أن الأرض التي يقف عليها ثبتت قليلاً، والهواء دخل، والتوتر بدأ يزول.

أدى «أسد الشهباء» الذي كان يلبس خوذة على رأسه التحية مرة ثانيـة، واستـدار خارجاً.. وهنـا التفت البيك إلى الحـلّاق: هيـا قبـل أن يـدركنـا الوقت.

قال ذلـك وجلس على الكرسي، فخف الحلّاق إلى الطاولة ووضع عليهـا حقيبته، ثم أخرج المشط، المقص، المـوسى، الفوطـة، المنشفة، الصـابون، الفرشاة، الشبّه، طاسـة الماء، المـرآة، القطن، البـودرة، الماء.. وضـع أولاً الفوطة البيضاء حول رقبة البيك، وتركها تغطي كرشه. صبَّ قليلاً من الماء في الطاسة. غمس الفرشاة بـالماء. أدارهـا على قـطعة الصـابون، وفي مثـل لمح البصر كانت الرغوة قد انتقلت إلى وجه البيك الذي «جعص» على الكـرسي، وأغمض عينيه متأملاً أو مستسلماً لموسى الحلاقة.

راقب نجيب المـوسى وهي تكشط الصابـون عن ذقنه وتكشط معـه الشعر الغزير الذي يشبه الشوك. وفجأة.. دخل «أسد الشهبـاء» مرة أخـرى يحمل ورقة جديـدة. دخل وأدّى التحيـة. حرّك البيـك رأسه دون أن يـأخذ حـذره

فغاصت شفرة الموسى بجلد الوجه، وانبجس خيط من الدم على طول الجرح.

تألم البيك، ارتبك الحلّاق، تراجع «أسد الشهباء» خطوة. قال الحلّاق:

- سامحني يا سيدي. . لم أتعمد ذلك.

مدّ البيك أصابعه إلى الجرح فاختلط على أطراف أصابعه الدم برغوة الصابون، وعند ذلك تحرك نجيب وقدّم المنشفة إلى البيك الذي مسح بها وجهه، ثم تناول الرسالة متجاهلاً جرحه. قرأها ثم أعادها وقال:

- قل لهم إن كل شيء على ما يرام.

وحين استدار «أسد الشهباء» وخرج، مرّر البيك المنشفة على خده، لكن الدم لم يتوقف.

- أصبر قليلاً يا سيدي، سأعالج الجرح وينقطع الدم على الفور.

أسرعت يد الحلّاق إلى قطعة الشبة البلّورية، ومررها على الجرح عدة مرات.

تشوشت ملامح البيك الذي لسعته المادة الكاوية، غير أن الدم بقي على حاله، فتقدم نجيب خطوة وقال:

- من الضروري يا سيدي أن يأتي الممرض ويعالج الجرح.

رمق البيك الحلّاق بطرف عينه اليسرى، وتمتم:

- أجل، ليأتِ الممرض.

***

خرج الحلاق خائباً، متوجساً خيفة، موقناً بأن صمت البيك يعني أنه سيقتصّ منه في الوقت المناسب. ودخل الممرض الذي خلع الخوذة والنظارة، وهيأ نفسه للمثول أمام البيك.

دخل يحمل حقيبة الإسعاف فيها الطين قد أصاب ثنية سرواله. ما زال البيك يجلس على الكرسي نفسه وقد غطى مكان الجرح بقطعة كبيرة من القطن.

أدى الممرض التحية، وهبّ إلى العمل سريعاً.

وقف نجيب إلى جانبه، وحمل الحقيبة بدلاً منه.

- «افتح لي الحقيبة»، قال الممرض، وتقدم ليكشف عن الجرح.

- آه.. إنه جرح عميق.

أطلّ الخوف من عيني البيك لأن كلمات الممرض تجعل اللقمة تقف في الحلق.

- يجب أن نخيط الجرح يا سيدي.. إنه يحتاج إلى خمس قطب بسيطة، ولكن قبل ذلك يجب أن أنظّف الجرح باليود، فمن يدري كم من الجراثيم يقف على شفرة موسى الحلاقة الصدئة.

شحب البيك، غاص قلبه، وتصبب العرق من جبينه. وقد أدار عينيه في أرجاء الخيمة كأنه يستنجد، ولكن لم يكن ثمة سوى نجيب والبدلة العسكرية المعلقة على عمود الخيمة.

أخرج الممرض لفائفه، ومقصه، وخيوطه.. ونجيب ينظر إلى البيك وقد هاله أن يكون كل هذا الفزع قد ارتسم على وجهه.

لم يتردد الممرض، وباشر عمله. وإذ ذاك استسلم البيك، وتصنع الشجاعة. لكنه عندما بدأ الممرض يخيط الجرح تأوّه بشدة، وأمسك يد الممرض محاولاً ثنيه عن اتمام عمله. غير أن الممرض الذي يعرف واجبه جيداً، والذي تمرّس بمثل هذا النوع من العمل، أبعد يد البيك بلطف وواصل عمله.

بعد نصف ساعة أصبح للبيك ضمادة تلتصق بخده تحت عينه اليسرى تماماً.

كان قد قاسى لشدة الانفعال والتوتر، فاسترخى على الكرسي، فيما الممرض يجمع حاجياته، ويطلب من البيك مقابل هذا العمل إجازة لمدة ثلاثة أيام.

* * *

الساعة ١٨..

خلت الخيمة من الناس، واستعاد البيك شيئاً من هدوئه. والآن صار عليه أن يستعد.

- افتح الصندوق الحديدي.

في الزاوية هناك صندوق حديدي من النوع الذي يجلبون به الذخيرة.

رفع نجيب الغطاء: هات ما بداخله.

داخل الصندوق كانت الدرع نفسها، وإلى جانب الدرع حزام أسود يتدلى منه مسدس (باريبلو) في حافظة جلدية. أخرج الدرع والحزام ووضعهما على الطاولة.

يا لهذه الدرع العظيمة!!

تخيل نفسه يلبس الدرع ويمضي إلى الحرب.. مجرد تخيّل لا أكثر ولا أقل..

خلع البيك بدلته القديمة، ولبس البدلة الجديدة المعلقة على عمود الخيمة، ثم تمنطق بالحزام الذي يتدلى منه المسدس.

- هيا.. ساعدني على ارتداء الدرع.

لبس البيك الدرع فوق ملابسه العسكرية، أصبحت الدرع تلبس

البيك. . أجل الدرع تلبس البيك، وأصبح للبيك هيبة ليث نفش شعر لبدته.

ـ كيف تبدو هذه الدرع؟ . . هه. . قل لي كيف تبدو؟

سقطت الكلمات من فم البيك. ارتطمت بأذنيه. يا للدهشة! إن البيك يلغي المسافة الواسعة، ويتحدث بلهجة حميمة.

ـ إنها رائعة. رائعة يا سيدي.

ويبدو أنه تناسى موضوع الجرح فيما بعد، وبدأ يفكر بما هو مقدم عليه.

«إنها الحرب». . قال نجيب لنفسه. حكى مع حاله، في حين شدَّ البيك قامته، ومشى بضع خطوات خارج الخيمة.

لحقه نجيب. ثمة بقايا فضاء يطل من وراء سحب سوداء. ثمة سيارة «جيب» تنتظر. في المقدمة يجلس السائق، ومن الخلف يطل هوائيّ لاسلكي. ثمة حركة جنود لم ير مثلها من قبل. سيارات عسكرية تقف هنا وهناك. أسلحة. خوذ. جعب. حقائب وراء الظهر.

ثمة صوت جندي يأتي من إحدى الحافلات يغنّي بصوت رخيم للبلبل الذي حطَّ على شجرة الرمّان.

ـ سنذهب لأداء الواجب. معنويات الرجال عالية.

قال البيك ذلك محدِّثاً نفسه، فقال نجيب بإلحاح:

ـ خذوني معكم يا سيدي.

ـ أنت غير مدرّب يا نجيب.

ـ أحمل لكم الذخيرة على كتفي يا سيدي.

ـ لا تجادل يا نجيب. . ابق هنا مع حرس المعسكر. هل تسمع؟

ـ أمرك يا سيدي.

ثم تحرك البيك. مشى نحو السيارة دون أن يلتفت، فتح بابها ثم صعد. مشت السيارة وقد عادت القسوة فلبسته مثلما لبسته الدرع.

بقي نجيب يحدق بسيارة الجيب حتى اختفت وراء التلة. ثم تبعها رتل من السيارات العسكرية. وما هي إلاّ دقائق حتى أصبح المكان خاوياً.

* * *

مشى بين الخيام. ليس هناك سوى علب الصفيح الفارغة، وبقايا قشور البيض، ومفاتيح علب السردين. وليس هناك سوى ثلة من الحرس يتجمعون أمام باب المعسكر.

مرّ من أمام خيمة صديقه العراقي.. لا أثر لبندقيته ولا لثيابه العسكرية، لقد التحق بالحرب.. ليته يعود وقد رحلت الكآبة عن محيّاه. ليته يعود وقد أضاءت وجهه فرحة الانتصار. ثمة أوراق تحت وسادته، ماذا يكتب هذا الرجل على هذه الأوراق؟ اجتاز الخيمة دون أن يدخلها. كانت العتمة تنتشر ببطء. مشى. ذهب وجاء. قعد ووقف، وعندما ازداد السأم ذهب إلى خيمته. في الليل. في قلب العتمة. لا حركة سوى دقات القلب، وسوى الريح التي تولول، وصوتها يجرح القلب. توقف الحرس في الخارج عن الكلام بصوت مرتفع. كأنهم سئموا أيضاً أو حزنوا حتى ما عاد في عروقهم متسع. ظلت عيناه مفتوحتين في هذا الظلام الحالك، فلا يرى سوى الظلام، ومثل السمك الذي لا ينام في أعماق الماء ظلت العين لا يطويها جفن، ومثل السمك ظلت الهواجس تسبح في داخله ولا تتوقف. مثل الزعانف تضرب الأفكار السوداء شغاف القلب المضني.

وحيداً يا نجيب تزورك الوساوس. تزورك الأفكار السوداء. يفكر ويحكي مع نفسه. ينام أو لا ينام. يسبح في السديم. نوم أو ما يشبه النوم. أضغاث أحلام أو مزق التخيلات.

يتسع المجهول حتى يصبح بحجم السماء. تدوي المدافع. ترتجّ الدنيا. يشتعل الفضاء. يسحب البيك مسدسه من وراء الأفق الملتهب. جاءت الصيحة. جاءت الرجفة. سال الدم. هبت الرياح. احتدم القتال. قعقع السلاح. طارت الأنفس شعاعاً. التقى السلاح الأبيض بالسلاح الأبيض. غاص النصل تحت الإبط. بلغت القلوب الحناجر. تكاثرت الجثث فوق التراب، صارت الساحة كالعهن المنفوش. ملأ الدنيا نداء استغاثة أو حريق.

وعلى حين غرة أفاق من نومه. هبَّ واقفاً على قدميه، وسط الخيمة.. وسط العتمة داهمه إحساس من دفن حيّاً واستيقظ بعد رحل المشيّعين.

أي غراب أسود حط على شجرة الوجع الذي لا يطاق؟ بسمل وقرأ الفاتحة. جسّ في الظلام حتى وقعت يداه على الإبريق، فشرب وصفع وجهه بحفنة ماء. حلقه جاف.. فما أقساك يا عطش الليل!

كان الحرس قد عادوا إلى الكلام بصوت مرتفع. عادوا إلى حديث الأهوال. حديث النار التي تهب من رؤوس الجبال. وتمنى لو أن ذلك الصوت الذي حرّك حنينه يعود ويغني للبلبل الذي يحط على شجرة الرمان. تمنى لو يغمض عينيه ويفتحهما فيجد نفسه أمام البحيرة.. وأحسّ بحاجة ماسة لأن يكلم أحداً أو أن يكلّمه أحد.

* * *

جلس معهم ينظر إلى شعلة النار: كانوا ثلاثة، يحرسون مدخل المعسكر، ويلفون أنفسهم بمعاطف سميكة، ويتغلبون على البرد والليل الطويل بإشعال الحطب وحديث الحرب. قدموا له السجائر، وقدموا له الشاي، وأمدوه بآخر أخبار المعركة. كان جندي الإشارة قد أسرّ لهم أن الهدف هو مستعمرة (طيرة تسفي) أو قلعة الزراعة كما يسميها الأهالي، وأن المجاهدين يطوقونها الآن من

كل الجهات ويتهيأون لاقتحامها. وأضاف الأول أن الملازم غسان يقود المشاة الذين جيء بهم من قطنا قبل أن يتموا تدريبهم. وقال الثاني إن الملازم سعدون يقود قوات البدو الذين جاءوا من الحجاز، والذين يتقنون الإغارة بالإبل والضرب بالخناجر، ولكنهم غير مدربين على فنون القتال الحديث. وقال الثالث: إن السرية الثالثة وأغلبها من المتطوعين المصريين مكلفة بالإسناد والحماية، وهي القوة الوحيدة المدربة بشكل جيد. وعاد الأول يقول إن الرئيس محمد هو قائد الفوج الذي سيخوض المعركة، وأن أحمد بيك هو من أبرز مساعديه. فرد الآخر بسرد طويل تنبأ فيه بما سيحدث عندما تحين ساعة الصفر.

يا لهذه التوقعات السوداء التي تطلق الرعب المسعور من عقاله، وتتركه يملأ سطح الأرض وشقوقها. وفجأة دكّ الرعد السماء السوداء، وما عتم أن أنشق الضوء المخيف. وما هي إلاّ لحظات حتى زخ المطر فأطفأ النار، وهبت الرياح وكادت تقتلع الخيام، فاقشعرّت الأبدان، وأصابت الفرائص رجفة.

* * *

الساعة العاشرة ـ الصباح التالي:

وصلت ناقلة جنود ملطّخة بالطين. هبط منها عدد من الجنود المنهكين، وثيابهم ملطخة أيضاً بالطين. وكان الطين يلتصق كذلك برموش أعينهم، وبياقات سترهم الكاكية.

هبطوا بلا حماس. بفتور وتعب.. يمسكون بنادقهم بقبضات رخوة كأنهم يحملون جذوع الأشجار.

هبّ الحرس الذين بللت الأمطار معاطفهم التي تفوح منها رائحة «النفتالين»، وأقبلوا يستطلعون الأخبار. عاد الجنود منكسرين.

كان وجه الجندي الأول وسيماً، لكنه يشبه علماً منكّساً. وأما الثاني فقد كان

يملك عينين مطفأتين. والثالث كان يتوكأ على كتف رفيقه. والرابع كان شاحباً، وتعبر ملامحه سحابة دمع.

ـ ما الأخبار يا جماعة؟

لم يكن ثمة من يرغب في الحديث. كان ثمة من يرغب في العودة السريعة إلى المهاجع. يريدون أن يدفنوا أنفسهم في بئر النوم. يريدون غفوة طويلة أو غيبوبة.

الساعة العاشرة والنصف

وصلت شاحنة تحمل الأسلحة الثقيلة والقذائف. كانت عجلاتها قد غاصت بالتراب الأحمر. وكان سائقها لا يكاد يظهر من وراء الزجاج المطلخ.

الساعة الرابعة عشرة

وصلت ثُلّة من المشاة بلا بنادق، وقد تمزّقت ثيابهم، وتلطّخت وجوههم، وتمزّقت أحذيتهم.

الساعة الخامسة عشرة

وصل أحمد بيك في سيارة أجرة. هبط بوجه متورم، تحت خوذة ملطخة. اندفع في ثياب مبتلة، بينما المسدس (الباربيلو) يتدلى من حزامه ويتأرجح. واجهته الأسئلة، والكلام، فاندفع دون أن يجيب، وأسرع دون توقف إلى الخيمة. ولم يجرؤ نجيب على الدخول، ولكنه عندما اقترب أكثر فأكثر خيل إليه أنه يسمع نشيجاً خافتاً.

* * *

نشر «أسد الشهباء» ثيابه المبتلة، ولف نفسه بغطاء من الصوف. كان نجيب قد أشعل كومة حطب في حلة أحضرها من المطبخ، وعندما أيقن أنها تحولت إلى جمر أدخلها ووضعها وسط الخيمة. كان «أسد الشهباء» يرتعد،

من البرد أو من هول الليلة الفائتة. وتدفقت على وجهه شتى الانفعالات، ثم بكى.

لم يقل نجيب شيئاً. تركه يفرّج عن همّه بطريقته الخاصة. لكنه ودَّ لو يتكلَّم. ودَّ لو يقول شيئاً عمّا جرى. وعمّا تمَّ، ودَّ لو يسأله عن عبد الرحمن العراقي، وعن ذلك الفتى الذي كان يغني للبلبل الذي حطّ على شجرة الرمّان. ودّ لو يستطيع البكاء مثله، لو يستطيع أن ينفجر أو يطير. طال الصمت. اتّقد الجمر وتطاير بعض الشرر. وبمرور الوقت جفّت الملابس، انتشر الدفء. جفت الدمعة في عين. جفّ قليلاً البلل الذي أصاب الروح. وتهيأ «أسد الشهباء» للحديث..

بدأ الهجوم على مستعمرة «طيرة تسفي» أو الزرّاعة، في الثالثة صباحاً. طوقناها من جهات ثلاث. إنها حصن وليست مستعمرة. حصن محاط بالأبراج، والأسلاك الشائكة، والخنادق.

عندما أحسّ اليهود أننا نعد للهجوم فتحوا خراطيم المياه، فغمرت السهل كله، وتحول السهل إلى مستنقع. لم يكن معنا دبابات لاختراق هذا المستنقع.

صدر إليَّ الأمر بالتسلّل لنسف الأبراج تحت جنح الظلام. في اللحظة التي بدأت فيها بالتحرك وسط هذا الليل البارد الدامس، تساقط المطر. هطل بغزارة، وزاد هذا الطين بلّة.

رافقني بعض الرجال الذين يحملون الألغام. تمكنّا بعد طول عذاب من الاقتراب من البرج. تحوّل الكشاف نحونا، وفتح اليهود النار. انبطحنا على الأرض. على الطين، وبعد أن تحول الكشاف عنا أسرعنا إلى الأسلاك الشائكة ففتحنا بها ثغرة. فوجئنا بعد ذلك بخندق طافح بالماء. كان الكشاف قد أضاعنا، ولفتنا العتمة من جديد. لم نكن نعرف أن هناك خندقاً. لم يقولوا لنا إن هذا المانع موجود عندما قدموا شرحاً عن استطلاعاتهم.

ألقيت بجسدي في الخندق، وخضت فيه حتى العنق وأنا أرفع يدي إلى أعلى، وعبرت الخندق بشق الأنفس. خرجت مبللاً والمطر يرشقني من كل صوب. وصلت إلى البرج الرئيسي فزرعت اللغم تحته تماماً. وأشعلت الفتيل، وابتعدت قليلاً، لكن الفتيل انطفأ بسبب المطر. عدت مرة أخرى وأشعلت الفتيل لكن غزارة المطر أطفأته للمرة الثانية، وحاولت مرة ثالثة ورابعة لكن دون جدوى.

كان الفجر يقترب، وانتابني اليأس، فصرخت من أعماقي. ناشدت الرب أن يوقف هذا المطر اللعين. وتحول الرصاص نحوي فجأة، فانبطحت وبدأت الزحف. ومرة أخرى عبرت الخندق. تسللت عبر ثغرة الأسلاك، وعدت من حيث أتيت.

وعندها صوّب المجاهدون مدافع الهاون على البرج، فأحدثوا عطباً في الكشاف، ثم تكاثرت القذائف، وبدأ البرج ينهار ويتساقط.. لكن المشاة الذين يقودهم الملازم غسان لم يتمكنوا من التقدم بسبب الطين والمطر والأرض الرخوة التي تشبه المستنقع. وواصل اليهود إطلاق القذائف، وصليات الرشاشات، فاستشهد عدد كبير من المجاهدين. وبعد هذه الخسائر صدرت الأوامر إلينا بالانسحاب، فانسحبنا. وغطّى الملازم عبد العزيز وقواته حمايتنا.

انتهى هجومنا الفاشل في الثامنة والنصف صباحاً. رأيت الجثث بأم عيني ملقاة فوق المستنقع وفي كل اتجاه. رأيت بأم عيني أحمد بيك ينسحب قبلنا، ويولي الأدبار بعد أن علقت سيارته بالطين. رأيت سميح الحداد يسبح في دمائه. رأيت سالم البشتاوي وقد اندلقت أمعاؤه. رأيت زين الصعيدي وقد سقطت عليه قذيفة مباشرة وبعثرته إلى أشلاء. ثم صمت «أسد الشهباء». توقف عن الحديث. غصّ بالكلمات. فسأله نجيب بصوت أجش: «وماذا

عن عبد الرحمن العراقي؟» أجاب «أسد الشهباء» بصوت مجروح: «لا أدري.. لا أدري..».

الساعة الثامنة عشرة

جاء المزيد من الرجال يجرجرون أقدامهم، ولم يأت العراقي.

مشى نجيب إلى الخيمة، فأشعل عود ثقاب وأضاء فتيل السراج. كان الضوء شاحباً، وقرب فراش عبد الرحمن العراقي كانت زجاجة دواء، وهناك تحت الوسادة تظهر رزمة من الأوراق.. أوراق كثيرة.. ماذا كان يكتب هذا الرجل؟ أهي وصيته؟

الساعة التاسعة عشرة

وصل عدد من الرجال الذين ضلوا الطريق. المعنويات محطمة والجراح بليغة، طعم الفشل مر، وكل شيء يتداعى.

الساعة العشرون

- البيك يطلبك حالاً.

مشى نجيب، ذهب بلا حماس. ودخل الخيمة.

كان البيك يرقد في السرير وقد تدثر بعدد من الأغطية الصوفية الثقيلة.

وجهه متورم بسبب الجرح الذي انزلقت عنه الضمادة. الجرح الذي تعرّض للبرد والمطر والطين. وبسبب الورم فإن عينه مغمضة.

كان قد نزع ملابسه العسكرية وألقاها هنا وهناك، ونام بملابسه الداخلية. وعلى الأرض كان حذاؤه العسكري الملطخ بالطين، وكانت الدرع الثمينة الملطخة أيضاً ملقاة بإهمال تحت السرير.

قال البيك: أريد كوباً من الحليب الساخن يا نجيب.. إذهب إلى المطبخ وأطلب منهم أن يعدّوا لك الحليب على الفور.

شعر نجيب بكثير من الأسى والحزن والانكسار. شعر بالوجع، وضيق الصدر، فتمتم: حاضر يا سيدي.

وعند ذلك أطل شخص ما وقال بعجلة وارتباك: جاء مندوب المفتش العام يا سيدي.

وجذب البيك أطراف الأغطية الصوفية، كأنما يداري عريه. لم يكن أمامه بعض الوقت، فقد دخل مندوب المفتش العام بكامل أناقته، وبثياب عسكرية مكوية، ونيشان واحد يتدلى على صدره.

حاول البيك أن يقوم، فأشار له مندوب المفتش العام الذي جاء لتوه من الشام أن يبقى كما هو... جمع نجيب الحذاء والملابس الملقاة على الأرض، ووضعها تحت السرير. تماماً بالقرب من الدرع، ووقف في الزاوية ينتظر.

قال مندوب المفتش العام:

ـ انقل لك تحيات القيادة، وأهنئك على شجاعتك، كما أقدم لك التعازي بالشهداء.

وقبل أن يجيب البيك اقترب مندوب المفتش العام وألقى نظرة على الجرح المتورم في خد البيك، ثم قال:

ـ وهذا وسام شرف يحمل ذكر هذه المعركة المجيدة.

وعند ذلك استعاد البيك شيئاً من الثقة، وقال:

ـ لقد قمنا بواجبنا خير قيام يا سيدي.

أخرج مندوب المفتش العام مغلفاً من جيبه ووضعه تحت وسادة البيك قائلاً:

ـ هذه تحية صغيرة من المفتش العام.

رمّم البيك معنوياته المنهارة وقال:

ـ شكراً على ثقتكم وثقة المفتش العام يا سيدي.

وعاد مندوب المفتش العام يقول:

ـ كانت معركة مجيدة على كل حال.

فأجاب البيك وهو لا يزال مغطى بالأغطية الصوفية:

ـ لقد لقّناهم درساً لا ينسى أولاد الميتة.

فابتسم المندوب وقال:

اكتب ذلـك في تقريـرك إلى المفتش العام ولا تنس أن تتحـدث إلى مندوبي الصحف الذين سيحضرون غداً مع ممثل شعبة الإعلام.

فأضاف البيك:

ـ ولقـد أوقعنا بهم خسـائر فـادحة، وغنمنـا منهم أعتدة حـربية ومعـدّات أخرى.

فأكد مندوب المفتش العام:

ـ أكتب ذلك في تقريرك واذكره للصحفيين.

وواصل البيك الذي نسي هزيمته قائلاً:

ـ ولقد غنمنا منهم يا سيدي درعاً عظيمة ليس لها مثيل.

نظر نجيب إلى البيك بـدهشة. لم يكن يصـدق ما يجـري.. كيف يكذب البيك هذه الكـذبة الكبـيرة؟! وأمال البيـك نفسه، ومـد يده تحت السريـر، وسحب الدرع التي علـق بجوانبها بعض الطين وقال:

ـ إنها درع عـظيمة. حصلنـا عليها غنيمـة من اليهود.. غنيمـة من غنائم هذه المعركة. لقد علق بها بعض الطين، ولكن يمكن تنظيفها بسهولة.

تأمل مندوب المفتش الدرع، ثم أمسـك بها، وتفحصهـا. تفحّصها وهـزّ رأسـه معجباً، وقـال وهو يـديم النظر إليـه: إنها بريـطانية الصنـع من طـراز «بريستول».

فأجاب البيك : ـ أجل . . إنها من طراز «بريستول» .

ثم أضاف :

ـ أرجو أن تحملها معكم يا سيدي وأن تقدّمها هدية لسيادة المفتش العام ، هدية وذكرى من جنوده الأوفياء .

واعتدل قليلاً ، وخاطب نجيب بلهجة آمرة :

ـ خذ الدرع يا نجيب وضعها في سيارة سيادة اللواء الركن .

وأحسّ نجيب بأن الكلمات تسقط من عل وتصطدم برأسه . وعلى الرغم من ذلك فقد انحنى وحمل الدرع وخرج من الخيمة . لم يتوقف عند سيارة سيادة اللواء التي تتوقف في الخارج ويحيط بها عدد من مرافقيه .

مضى وهو يحتضن الدرع . خرج من باب المعسكر دون أن يوقفه أحد . شق طريقه وسط الرذاذ والرياح الباردة .

مشى بعيداً وأوغل في المشي . كان يستسلم لبوصلة في أعماقه ، وكانت تجذبه وتجذبه من بعيد رائحة البحيرة .

الفصل الثاني

صباح دافىء. رحلت الغيوم، وبزغت شمس طريّة العود. أمام مبنى المحطة ذي السقف القرميدي قرفص عدد من الأطفال بجلابيب بيضاء ينتظرون أن تقوى عين الشمس ليتسنّى لهم اللعب بالبنانير في يوم عطلتهم هذا . .

أمام مبنى المحطة كان منصور بائع التذاكر يضع كرسيّه مقابل غرفة رئيس المحطة المغلق، يفتل الكرسي ويجلس متوكئاً على ظهره. وأمامه، وحتى آخر مدى يدركه البصر، تمتدّ سكة الحديد ـ وسط المنطقة الزراعية ـ صامتة . . مديدة . . وشاغرة.

هناك فوق البساتين يرفرف سرب من طيور اللقلق التي عادت لتوّها من هجرتها الموسمية.

كان ثمة من يمرّ بين الحين والآخر ويرفع يده بالتحية من راكبي الدوابّ الذين جاؤوا من القرى والمضارب القريبة حاملين حبوبهم لطحنها في مطحنة إسحٰق الشامي.

كان منصور الذي فك أزرار بدلته الكحلية يمسك جريدة عتيقة سبق أن قرأها وظل يعاود قراءتها دفعاً للملل.

لم يكن أحد سواه في المحطة التي ظلّت تصفر في جنباتها الرياح طوال الليلة الماضية.

لم يكن ثمة سوى عامل تمديدات ـ على مرمى حجر ـ يواصل مدّ المواسير في مشروع البلدية لإيصال مياه البحيرة إلى البيوت.

ظل منصور منذ الصباح جالساً على الكرسي، يضع رجله اليمنى فوق رجله اليسرى تارة، ثم ينقل رجله اليسرى فيضعها فوق اليمنى تارة أخرى، وينفد صبره فيقوم ويتمشى على الرصيف الفارغ بجانب السكة حيث الحديد اللامع، وبقع الزيت، وآثار الشحوم.

يسأم وتنفد سجائره فيلقي بالصحيفة جانباً ويذهب إلى دكان عبد الكريم الحمد طامعاً، بالإضافة إلى شراء علبة سجائر، في أن يجد من يتجاذب معه أطراف الحديث.

عند باب الدكان كان (راضي) واقفاً يمسك بيده قفصاً من الأسلاك اعتاد الأولاد أن يصطادوا به الأسماك..

ـ أراك تحمل هذا العب(*).. هل ستذهب إلى البحيرة؟

رفع عبد الكريم الحمد رأسه عن الدفتر الكبير ليرى من المتكلم. نظر إليه ثم رجع إلى دفتره.

أجاب راضي الذي كان يلبس ثوباً فضفاضاً، وكان قد مشط شعره، ورتّبه جيداً:

ـ اليوم الجمعة.. وهناك متّسع من الوقت.. والبحيرة تحت السطح دافئة.

دقّق منصور ـ الذي يثير اهتمامه كل شيء ـ دقّق النظر في قفص الأسلاك مرة أخرى وقال:

(*) «عبّ» هي الكلمة التي يطلقها الأهالي على قفص الصيد.

ـ لقد أتقنت صناعة هذا (العبّ) أيها الفتى . . ما أشدّ نشاطك!!

ظلّ عبد الكريم الحمد الـذي أصابتـه حمى استرداد ديـونه منكبّـاً يجمع أو يطرح، ثم رفع رأسه ثانية، ووقف، وتناول علبة (الباتر) فقدمهـا إلى منصور وتناول نقوده، وعاد إلى دفتره.

أخذ منصور علبـة السجائـر. أشعل واحـدة. . لعله لم ييأس من إمكـانية جذب انتباه عبد الكريم الحمد.

ـ هل سمعت بالمعركة التي دارت أمس في مستعمـرة الزراعـة . . يقولـون إن جيـش الإنقاذ أثخن بالجراح والخسائر.

بـدا وكأن عبـد الكريم الحمـد لم يسمع، ولكن الحـديث أثار انتبـاه الفتى راضي الذي وضع قفص الأسلاك جانبـاً وأنصت باهتمام.

وأضاف منصور قائلاً:

ـ ويعلم الله ماذا حلّ بأحمد بيك الذي اشترى تلك الدرع العظيمة.

عند ذلك رفع عبد الركيم الحمد رأسه عن الدفتر، فتساءل راضي بلهفة:

ـ وما هي أخبار نجيب؟

أجاب منصور: الله وحده يعرف ماذا حلّ به . .

ولم يستطع عبد الكريم الحمد أن يمنع نفسـه فتكلّم:

ـ لقد تحدثّت عن الدرع . . هه . . قل لي . . ماذا حل بتلك الدرع؟

كان عبد الكريم يسأل بغريزة حبّ الاستطلاع عن تلك الدرع التي ربـح بها خمسة جنيهات دون أن يتسنى له أن يراها . . تلك الدرع العظيمة، الواقية من الرصاص، الكحليّة ذات الجيوب الواسعة.

ـ الدرع بخير يا عبد الكريم . . الدرع بخير لن يمسّها سوء ما دام لابسهـا أحمد بيك.

وعاد راضي يسأل بلهفة: وماذا حلّ بنجيب.. ألم تسمع شيئاً عنه؟
: ـ لا تخف على نجيب أيها الفتى.. نجيب له سبع أرواح مثل القطط.

صمت راضي. لعله حزن أو ذهب بعيداً في أفكاره.
أما عبد الكريم الحمد فقد ألحّ بالسؤال عن الدرع.
وأجابه منصور. أجاب بما تيسّر من المبالغة اللذيذة، والخيال الواسع.

وعند ذلك أقبل خالد الزهر يستحثّ راضي:
ـ هيّا.

كان قد أوقف عربته بعيداً، إذ ليس من اللائق أن يوقفها أمام الدكان لأن العمة (حفيظة) تركب إلى جانبه، فانحنى راضي والتقط قفص الأسلاك، ومشى دون أن يقول شيئاً، خشية أن يتفطّن خاله لأمر ما فيؤخّره عن الذهاب إلى البحيرة.

كانت عمته حفيظة ـ أخت الرجال ـ التي تلبس ثوباً أسود وتلفّ خصرها بحزام عريض تتدلّى من طرفه سلسلة مفاتيح، تجلس في المقعد الأمامي، ووراءها، داخل العربة، يتكوّم (بيت الشعر) الذي أعتادت أن تنصبه كل ربيع فوق تله (الدوير) في موسم (التغريب)، موسم جمع السمن والعسل والكشك والفريكة، وكانت تشعل (سيكارة لفّ)، فطرح عليها السلام ودون أن ينتظر إجابتها صعد إلى العربة وصعد معه قفص الأسلاك.

ـ عبد الكريم الحمد أصابه مسّ من الجنون. عندما يموت هل سيأخذ معه المال إلى القبر؟

قالت ذلك وهي متجهّمة، كأنها تؤنّبه ولا تؤنّب خاله، وعند ذلك شدّ خالد الزهر اللجام فمشت العربة. مشت تتمايل كأن عجلاتها التي يصدر عنها صرير مزعج تنوء تحت ثقل بيت الشعر هذا الذي لا يستطيع أن يحمله

عادة إلاّ الجمل (العفي) الصبـور الـذي يتحمـل الشدائـد. كانت متجهّمـة وعابسة، ولكنه عبوس عابر، فهذه المرأة الطيّبة لا تعرف الغضب. وعمّا قليل تصل إلى البحر وأمام فضائه الرحب تنقشع الغيوم عن وجهها السمح، وتشرق ابتسامتها.

عمّا قليل تشمّر أردان ثوبهـا وتغسل بيت الشعر الذي تخرجه من مكانه في (سـدّة) البيت في مثل هـذا الوقت من كـل عام. تغسله بحـماس كـما جـرت العادة، وهي منتشية برائحة النسيم القادم من أقصى نقطة يدركها البصر فوق البحيرة، وهي تتخيّل رحلتها الموسمية إلى عزبـة الدويـر، فهناك فـوق التلّة، قريباً من النهر، وغير بعيد عن أشجار الدفلى يقوم الرعاة أمام ناظريهـا بنصب بيت الشعر الأسود الكبـير إيذاناً ببدء العمل في جني المحاصيل وجمع العسـل من الأجران، وخضّ اللبن، وإخراج الزبدة، وتحضير الكشك والجميـد وجزّ الصوف.

انعطفت العربة نحو الزواريب التي تفضي إلى الشاطىء.. مرّت من وراء مبنى اللجنة القوميـة، ومن أمام قهـوة «أبو العـلا»، وانحدرت نحـو رصيف البنط.. تـوقّفت العربـة عند سـور الإسمنت الذي يلجم انـدفاعـة البحـيرة عندما تهيج الأمواج. نزلت العمة أولاً، ثم نزل خالد الزهر، وبعد ذلك نزل راضي وأنزل معه قفص الأسلاك. نزل وانحدر عبر الدرجات الحجـرّية نحـو رصيف (البنط) الذي يدخل كاللسان على ضفة البحيرة.

عـلى امتداد الشـاطىء كان النسـوة يغسلن الأواني والمـلابس، والـرجـال يتنزّهون أو يصطادون بالصنارة، وأحمد المـلاّ يمرّ مسرعـاً، حامـلاً على كتفيـه خشبـة يتدلّى من طـرفيهـا سـطلان. يتصبّب العـرق من جبينـه، ويحمـل إلى البيوت الماء الصافي.

وغـير بعيد كـان عدد من الصبيـة الـذين أغـراهم هـذا الصبـاح الـدافىء

بالخروج قد اصطفَّ بعضهم وراء بعض مشكِّلين هيئة قطار، وقد أطلقوا من أفـواههم صفيراً يشبـه صفير القـطارات، وجاسـوا في أطراف الشـاطىء الرملي.

وضع القفص على حافة الرصيف، وجلس تاركاً ساقيه يتدليان. أما العمّة فقد هبطت إلى الشاطىء بوقار ليس له شبيه، وتبعها خالد الـزهر يحمـل بيت الشعر قطعة قطعة إذ ليس من الممكن حمله دفعة واحدة.

وعنـدما وصلت العمّـة شمّـرت عن سـاعـديهـا؛ ورفعت قليـلاً سـروالهـا المحجّل إلى ما فـوق الخلخال بقليـل، وخلعت حذاءهـا الذي يشبـه أحذيـة الجنـود، وأخرجت من كيس كـان بيدهـا ألواح الصـابون، ونـزلت إلى المـاء لغسل القطعة الأولى. وعند ذلك، هبّ لمساعدتها بعض النسوة.

كانت (بدريّة) أولى النساء. تـركت أواني الطعـام التي كانت بـين يديهـا، وخفّت سريعـا لمعاونـة العمّـة حفيـظة، ثم جـاءت بنت العتعت، وفـاطمـة المغربية، وسلطانة الداية والماشطة.

* * *

من على رصيف (البنط) كان راضي يطلّ على المشهد كله، البحيرة والناس والبيـوت البعيـدة و«اللنشـات» التي تبحـر في العمق، وبعض (الشخــاتـير) الصغيرة، وثمة (كيك)(*) واحد يتجه إلى الشمال.

وكان (العبّ)، هذا القفص المجدول بعنايـة، ما يزال بجانبه. لقـد أمضى وقتـاً طويـلاً في جـدل الأسـلاك وتغليفهـا بـالشبـك الـذي يستعمـل في قنّ الدجاج.

(*) الكيك نوع من الزوارق الصغيرة يُصنع بطريقة بدائية.

كان (العبّ) معمولاً على هيئة قفص له مدخل إجباري ضيّق على شكل مخروطي بحيث يستطيع السمك الدخول إليه لأكل الطعم، ولكنه يضلّ طريقه ولا يستطيع الخروج بعد ذلك.

خلع راضي جلبابه وتهيّأ للنزول إلى الماء.

كان قد أعدّ كل شيء. وضع الطعم داخل القفص، وربط بطرفه خيطاً من القنّب ينتهي بقطعة خشب، فقطعة الخشب التي تطفو على سطح الماء هي الشاخص الذي يدلّ على مكان القفص إذا ما أبعدته الأمواج.

رمى القفص في الماء، وألقى بنفسه وراءه، وبدأ يسبح دافعاً القفص أمامه.

استسلم للمياه الدافئة تحت السطح، ظل ينزلق وسط الأمواج الهادئة. وكانت رياح خفيفة وناعمة تهبّ على السطح فتصنع تلك التجاعيد أو تلك الدوائر. كان سطح البحيرة ناعماً مثل بطن غزالة.

ظلّ يسبح ويدفع القفص أمامه. وعند النقطة التي قدرها في خياله قرّر أن يغوص، فانزلق كالسمكة إلى الأعماق دافعاً القفص إلى أسفل حتى استقرّ في القاع ثم صعد وهو يمسك بالخيط والخشبة.

فوق السطح، ملأ رئتيه بالهواء المفعم. برائحة الليمون القادم من البساتين، وقفل راجعاً إلى الشاطىء يسبح تارة على جانبيه، ويسبح تارة أخرى على ظهره.

ارتفعت الشمس في السماء، ومن موقعه فوق رصيف البنط كان راضي يتفرج وينتظر.

كان ضجيج مطحنة (إسحٰق الشامي) يدق برتابة دون أن يثير ذعر طيور اللقلق التي عادت من هجرتها السنوية مؤذنة باقتراب موعد الربيع.

أما الأولاد الذين كانوا يطلقون الصفارات ويندفعون فقد توقّفوا، وانفرط عقدهم، وبدأوا يلعبون بالرمال والمحار.

وكانت العمّة حفيظة تقف دون أن تفعل شيئاً، بينما النساء الأخريات يقمن بالعمل نيابة عنها، وقد أمسكت كل منهن قطعة وأخذت تدعكها.

وقد حلّ خالد الزهر رباط الحصان، وخلع اللجام والسرج، وتركه يهبط المنحدر الترابي يرعى أو يشرب الماء. أما خالد الزهر نفسه فقد ذهب ليأخذ (نَفَس تنباك) في قهوة «أبو العلا»، وهو قلّما يفعل ذلك. وإنها لمن المرّات القليلة التي تجرّأ فيها على الاقتراب من النرجيلة.

وفجأة ظهرت في الأفق طائرة شراعية، أفصح عنها أزيزها، فارتفعت الأنظار إلى الفضاء.

إنها واحدة من الطائرات البرمائية التي تمرّ من حين إلى آخر ـ وهي تابعة لحرس قوة الحدود ـ وتحطّ فوق سطح البحيرة على المدرج الخاص بين البراميل الطافية.

ظلت الطائرة الشراعية تقترب حتى ظهر وجه قائدها الذي يضع على عينيه نظارة سوداء.

استدارت دورة واحدة ثم بدأت تهبط، وما هي إلّا لحظات حتى كانت تحطّ فوق الأمواج برفق كما لو كانت أوزّة بريّة.

ظلّ راضي يراقب المشهد من موقعه على رصيف البنط، ويرى الطائرة وهي تحط فوق المدرج المائي المخصّص لها.

رأى من موقعه الأولاد الذين تركوا الرمال والمحار يتأهبّون. كانت طائرة بزلّاجات، لها جناحان طويلان.. جناح أسفلها وآخر فوقها.. استقرّت داخل الحوض المخصّص لها بين البراميل المطليّة بالأحمر والكرات السود

وجنازير الحديد التي تحيط بقاعدة الإسمنت حيث ربطت الطائرة لكيلا تجرفها الأمواج.

لـوّح الأولاد بأيديهـم.. ثم خلعوا جـلابيبهم وأسرعـوا إلى المـاء. ألقـوا بأنفسهم بين الأمواج الهادئة، وأخذوا يتسابقون للوصول إلى الطائرة التي كان مـلاّحها عـادة يفتح لهم أبـوابها، ويلقي إليهم بقـطع (البسكـويت) وحبّـات (البنبون)، وأحياناً يلقي بقطع النقود إلى قعر البحيرة، فيغوصون إلى الأعماق للفوز بها.

كـانوا أولاداً ذوي خـبرة، ففي مثل هـذا الوقت من العـام يكـون سـطح البحيرة شديد البرودة، أما تحت السطح بقليـل فالميـاه دافئة، لـذلك غـطسوا تحت السطح، ولم يعد يظهر سوى رؤوسهم الصغيرة.

ظلّوا يجدّفون بأياديهم وأرجلهم تحت المـاء مثلما السلاحف. ولقـد اقتربـوا واقـتربوا، وأصبحـوا على بعـد امتار من الـطائرة التي لم تفتـح أبوابهـا، وظلّ الطيّار الذي يضع على عينيه نظارة عابساً، فيما كان يجلس على المقعـد الخلفي ضابط بملابسه العسكرية لم تظهر ملامح وجهه بسبب رذاذ الماء على الزجاج، وإن كان قد ظهر لون وجهه الأحمر.

ظلت الطائرة تتأوّد فوق المياه، تميل مع الأمواج فتشدّها السلاسل..

أقبـل زورق من زوارق معسكر قـوة الحدود فتـوقف الأولاد. وجموا.. ثم تراجعوا.

انفتح باب الطائرة. اقترب الزورق منها. خرج الضابط وساعـده أحدهم على النزول إلى الزورق.

كان ضابطاً طويل القامة، يلبس بدلـة عسكريـة خضراء داكنة.. وعندما استقرّ وجلس اندفع الزورق نحو الشاطىء المحاذي للمعسكر.

عاد الأولاد من حيث أتوا . .

عادوا يلهثون . لبسوا جلابيبهم وتهامسوا . .

ثم أشار أحدهم بأصابعه نحو الطائرة وهتف :

ـ طيارة حرامية !

وردّد الآخرون وراءه :

ـ تحت السيف مرميّة .

ضحك راضي من موقعه على رصيف البنط ، وأقبل (أحمد الملاّ) بسطليه الفارغين ، يتصبّب العرق من جبينه ، وتبرز العروق في ذراعيه ، ويبدو وجهه شاحباً من التعب ، ولكنه كرجل شهم وصادق ، يدخل إلى أقصى عمق يستطيع الوصول إليه على ساقيه من أجل أن يملأ سطليه بماء صافٍ مثل عين الديك .

بعد أن قامت (بدرية) بواجبها تجاه العمّة (حفيظة) عادت إلى موقعها على الشاطىء وواصلت غسل الأواني والطناجر والصحون والملاعق .

وكانت الأسماك الصغيرة التي أثارتها رائحة الطعام وبقاياه تقترب باحثة عن صيد سهل . تقترب وتقترب ويكاد الماء ينحسر عنها ويتركها عارية فوق الرمال ، ولكن في اللحظة الأخيرة تتراجع بغريزة حب البقاء .

عادت بدرية ، ورفعت ثوبها كي لا يبتلّ ـ تركته ينحسر عن ساقين بيضاوين . وحملت طنجرة الطعام بيد وغطاء الطنجرة باليد الأخرى ، ودخلت بضع خطوات في الماء ، ونصبت كميناً للأسماك التي يعوزها الحذر ، وما هي إلّا لحظات حتى دخلت سمكة متوسطة الحجم إلى قعر الطنجرة مدفوعة برائحة الطعام العالق على الحواف . وعلى حين غره أطبقت الغطاء على السمكة ، وإذ ذاك قهقه (راضي) من موقعه المرتفع ، فابتسمت بدرية ، ولكنها انزلت الثوب ليغطي ساقيها ، فقد بدأ يكبر هذا الفتى .

وخلال ذلك ومضت في ذاكرة راضي صورة نجيب، نجيب الذي كان زوجاً لبدرية ذات يوم، وخطر له أن يقول لها إن نجيباً تطوّع في جيش الإنقاذ، وأنه حارب اليهود في واقعة الزراعة كما ذكر منصور هذا الصباح. خطر له أن. .

وجاء فجأة صوت العمة حفيظة:

ـ ماذا تفعل يا ولد. . إذهب وأبحث عن خالد الزهر ليساعدنا في نشر بيت الشعر تحت الشمس حتى يجف.

كانت عمته التي تتمنطق بحزام عريض تبدو قوية، وكانت لا تزال تمتلك القدرة على فعل أشياء خارقة. ما زالت قوية ومسيطرة وصاحبة قرار لم يتزحزح. ولكنه وضع أصابعه في فمه وأطلق صفيراً متقطعاً، وكرّر ذلك مرات كثيرة.

وما هي إلاّ لحظات حتى أقبل خالد الزهر يركض أو يتدحرج. وصل يلهث على الرغم من أن المسافة ما بين قهوة «أبو العلا» والبنط تقاس بالأمتار.

حدقت فيه العمّة بنظرة تعني اللوم والتوبيخ، وقالت بصرامة: جاء دورك. .

ودون أن تقول له ما يتعينّ عليه أن يفعل استطاع بالحدس أن يقوم بواجبه.

حمل القطع المغسولة والمطوّية، وفرشها على الرمل الناعم. كانت القطع ثقيلة للغاية بعد أن تشرّبت بالماء. فرشها هنا وهناك، والعمة تنظر وتهز رأسها، وبنت العتعت تقف إلى جانبها، فيما انصرفت فاطمة المغربية وانصرفت معها الداية سلطانة.

والآن أصبح بيت الشعر منشوراً على الرمل. والعمّة تتأمّله. هذا هو (الرفراف) الأيمن، وبجانبه (الشق) المخصص للجلوس، وهناك (المنامة)،

ثم (الرفراف) الأيسر حيث توضع الأمتعة، وتلك هي الحواشي والأطراف.

وتذكر راضي فجأة قفص الأسلاك. تخيل السمك يهجم بضراوة وقد أثارت شهيته رائحة الطعم، فوقف متهيّئاً للنزول إلى الماء.

أخذ يسبح بنشاط. جدف بذراعيه وساقيه. سبح مثل قارب واتته الرياح فأخذ يشقّ العباب بقوة. كان يسبح ويفتّش بعينيه عن الشاخص، عن الخشبة الطافية، وإذ شاهدها فقد رفع يديه إلى أعلى ووثب ثم انزلق إلى قلب البحيرة. غاص في العمق متتبعاً أثر الخيط. المياه دافئة، والشمس تضيء، وهناك في القاع كانت الأسماك التي دخلت القفص تثير الضوضاء. أغلق باب القفص وشدّه إلى أعلى. ظل يدفع القفص أمامه ويخمن ويقدّر وزن الأسماك التي بداخله. أحسّ بتعب في عضلاته لكنه واصل السباحة. استمر في المضي قدماً.

وصل إلى الشاطىء ورفع القفص عالياً، وإذ ذاك سكنت معظم الأسماك بينما ظل بعضها يلعبط ويقاوم، فعرف أنه اصطاد فيها اصطاد سمك البلبوط الذي يظل حيّاً بعد أن يخرج من الماء لساعات طويلة.

حين رفع القفص عالياً قالت بدرية بإعجاب: يخزي العين... (يخزي العين الحاسدة).

غير أن العمّة لم تعره التفاتاً، وظلت تحدق بالبحيرة.. تنظر بعيداً، لعله تحرك في أعماقها ما يثير الشجن. أما خالد الزهر فقد اقترب ونظر بإعجاب، وبدأ يعدّ السمك. مشط واحد أبيض عظاظي، ثلاثة أفراخ سمك قشري، أربعة أفراخ سمك كرسين، أربعة أفراخ مرمور، فرخان كبيران من سمك البلبوط، خمسة أو ستة من العظاظي الأسود.

سمك من كل نوع.. يا للوجبة الشهية في هذه الظهيرة!! ظلت العمة شاردة تحدق في نقطة ما في عمق البحر وراء قوارب الصيد. لعلها تفكر

بربيع مضى فيه السكينة والراحة والخير، وبربيع قادم لا يهدأ فيه بال ولا يعلم ما سيحدث فيه إلاّ الخالق.

أية ذكريات أثارها (بيت الشعر) هذا الذي صنعته بنفسها لثلاثة مواسم خلت.. صنعته من شعر الماعز. ففي ربيع مضى، أيام جزّ الصوف، جمعت العمة بيدراً من شعر الغنم الأسود، هناك في عزبة (الدوير)... وفي نهر اليرموك غسله الرعاة وهم يغنّون أغنية جماعية، ثم نشروه على الحصى في نهار قائظ. ففي هذه الأغوار يقبل الحرّ باكراً، وبعد أن جفّ نظفته العمّة بـ (الكرداش)، أخرجت منه (العليق) والشوائب، ثم حوّلته بيديها إلى لفائف. وعلى المغزل حولت اللفائف إلى خيوط.

يتذكر راضي العمة في تلك الأيام، العمة ـ أخت الرجال ـ تنصب (الشقة) باكراً، وتبدأ بالنسج منذ مطلع الفجر بواسطة (المنساس) و(المخرز المعقوف)، وتَصِل الليل بالنهار. تأبى أن يساعدها أحد. تقيس الطول بذراعها، وتقدر الحجم بالعين، فعين الفلاحة الأصيلة ميزان.

وخلال شهر واحد أتّمت العمّة نسج بيت الشعر. أتّمت نسج كل قطعة على حدة، ثم ربطت القطع بعضها إلى بعض، وجاء الرعاة فهيأوا الأعمدة والأوتاد والحبال، واشتغلوا بحماس وهم يغنون أغنية جماعية، وما هي إلاّ ساعة فإذا بيت الشعر يقف على تلة (الدوير) بمهابة، وإذا بالعمة ـ ودائماً هي أخت الرجال ـ تجالسهم في العصيرة، وتقوم مقام الحاج حسين، فتصنع القهوة السادة، وعلى الرغم من وجود زوجها فإنها الآمرة المطاعة. وزوج عمته نحيل البنية، ضعيف الشخصية، صامت.. قلما يدلي بدلوه في الحديث. لا ينفعل لما يجري، ولا ينتشله من صمته سوى صوت العمة التي يحسب لها ألف حساب.

ـ ما أكبر هذا البلبوط!

قال خالد الزهر ذلك وظل يحدق بالسمكة الكبيرة التي اتسعت خياشيمها. وواصلت الحركة كأنها تتشبّث بالحياة.

ومن مكانها أمام البحيرة رفعت العمّة يدها ومسحت أطراف عينيها كأنها تمسح دمعة.

ما الذي يثير أحزان العمّة في هذه الظهيرة؟

ـ أعد هذه السمكة إلى الماء..

وأشارت إلى سمكة البلبوط التي لا تكفّ عن الحركة..

ـ إنك تثير أعصابي..

كانت السمكة التي تحاول أن تتشبّث بالحياة تواصل المقاومة، وقد اتّسعت خياشيمها، وفتحت فمها على سعته كأنها تستنجد.

انحنى راضي وحمل السمكة التي ظلّت تتحرّك، وكادت تنزلق من بين كفيه، ثم ألقى بها في الماء أمام دهشة الواقفين.

جاءت بدرية بعد أن أتمت غسل الصحون والأواني وسألته: لماذا فعلت ذلك.

لم يجب، ومشت العمة بضع خطوات ثم استدارت وقالت:

ـ أنا ذاهبة يا أولاد. عندما يجف بيت الشعر عودوا إلى البيت.

مشت بضع خطوات، مشت كأنها تطرد الخواطر السوداء، ثم توقفت. التفتت وراءها التفاتة سريعة، ثم استأنفت المشي.

قال راضي لنفسه: «استطيع أن أقول إنني فهمت».

قال خالد الزهر بصوت عال:

ـ انتظري يا عمّة. أشدّ الحصان إلى العربة و..

قاطعته دون أن تلتفت هذه المرة:

ـ أريد أن أمشي على قدمي.

واصلت المشي وهي تشدّ قامتها المديدة، وصعدت السلالم الحجرية.

عاد الأولاد ينطنطون هنا وهناك، ويثيرون الصخب والضجيج.

* * *

عند العصر بدأت مياه البحيرة تتعكّر.

انصرف الأولاد.. عادوا من حيث أتوا.

وضع خالد الزهر قطع بيت الشعر في العربة.

كان الحصان الذي أكل وشرب يتأهّب.

قفز خالد الزهر، وأمسك أطراف اللجام، وقفز راضي إلى جانبه، واضعاً عبّ السمك بين قدميه.

من فوق (عراق) الشاطىء نظر راضي إلى المياه التي بدأ لونها يتغيّر.

تساءل خالد الزهر: «لماذا تصرفت العمة على ذلك النحو»؟ وقبل أن يجيب راضي، جاء من بعيد هدير الطائرة المائية، ارتفع أزيزها، وبدأت تبتعد عن البراميل الطافية.

تعلقت نظرات راضي بها وهي تنطلق فوق سطح البحيرة الذي تعكّر بسبب الرياح، وارتفاع الأمواج، واختلاط المياه بالرمال، تنطلق محمولة على زلاجتيها، ثم تبدأ في الصعود، مشكّلة دائرة واسعة في الأفق.. وما لبثت أن ارتفعت، وابتعدت وظلّت تبدو مثل نقطة صغيرة إلى أن اختفت وراء غيوم ضالّة في الفضاء الواسع.

مشى الحصان بقوة على الرغم من هذه الحمولة الثقيلة، وانصرف خالد الزهر لشأنه، لكن راضي الذي بدأت دائرة أفكاره تتسع، تساءل بدوره بينه وبين نفسه: «ما الذي أثار أشجان العمّة ولماذا تصرفت على هذا النحو؟».

الفصل الثالث

من أوراق عبد الرحمن العراقي

خرجت من أتون الصحراء. خرجت من بين ذرّات الرمال. أسلمتني الرياح إلى الرياح، ووخز الصقيع رؤوس أصابعي وأنفي.

ركبت سيارة أجرة من بغداد إلى مفرق الجبانية.. ثم مشيت على قدميّ ساعات لا تعدّ ولا تحصى.

لا حقيبة ولا جواز سفر. أمشي متحاشياً دوريات الشرطة. عطشت. لفظتني الصحراء المشحونة بصقيع كانون. ما أشدّ برد الصحراء! ما أكثر ما تذكّرت الهجير والقيظ والرمضاء. ما أكثر ما ناشدت الشمس أن تطلق سهامها، وتلفح وجهي بحرّها اللاهب.

كان برد الصحراء في مثل هذا الوقت من السنة أشد قسوة من كرابيج شرطة نوري السعيد، فيا لليلة النحس تلك التي أمضيتها في العراء ملتصقاً بحفرة على طرف الشارع. ويالرهبة اللحظة حين أتاني صوت عواء قادم من أعماق الصحراء. لعله لذئب جريح أو لضبع جائعة.

كانت ليلة باردة لها طعم الدموع المرّة. ظللت أنام فيها على أشواك الصقيع إلى أن التقطتني مع الفجر شاحنة تحمل الغنم.

عندما سمعت صوت محركاتها خرجت من حفرتي، ولم أستطع أن أقاوم الرغبة في البقاء على قيد الحياة فاندفعت أمامها. تردّد سائقها في الوقوف ثم

ضغط على فرامله. لعلّه أدرك هدفي، ففي هذه الأيام يجتاز الصحراء عدد كبير من الرجال في طريقهم إلى فلسطين.

عندما توقّفت الشاحنة ركضت مكدوداً ممزّقاً، ولم أدر ماذا سألني سائقها ولا ماذا قلت له، لكن ببقايا الرمق صعدت إلى صندوقها الخلفيّ، ونمت بين الأغنام المضطربة المذعورة، نمت فوق بعرها، لكن تحت دفء صوفها أيضاً.

نمت على الطوى، فعلى الرغم من الجوع هدّني التعب، ونمت متدثراً بأنفاس هذه الحيوانات الأليفة.

ولم أفق من نومي إلاّ حين توقّفت الشاحنة، وقال السائق بصوت مرتفع وهو يطلّ من النافذة:

: ـ لقد وصلنا (دوما).. انزل (من غير مطرود)..

جمعت نفسي ونهضت، وببقايا قوتي قفزت من عل، وأحسست بصلابة الأرض، لكن الدوار كان شديداً. مشت الشاحنة، وألقيت نظرة على تلك الكائنات الضعيفة التي تساق إلى المسلخ، فعما قريب يذبحونها، ويسلخون جلودها، ويعلّقونها من عراقيبها بالكلاليب.

شيّعتها بنظراتي وهي تغيب وراء الغبش.

كنت بصعوبة أفتح عيني في وهج الضحى.

واكتشفت أنني أقف قريباً من ساحة البلدة التي تكتظ ـ على الرغم من البرد الشديد ـ بالناس الذين يلفّون رؤوسهم بالحطّات، ويدخّنون سجائر اللف، ويتجمهرون حول الباعة...

ما ألذ رائحة (الفلافل) وهي تقلى في يوم بارد.

مددت يدي إلى جيبي وتحسّست قطعة النقود من فئة عشرة دنانير. لكن البائع، ابن البلد، الذي يلفّ رأسه بـ (لحشة) شامية، قدّم لي الطعام،

وحلف ألّا يأخذ قرشاً واحداً، وبعد الشبع، أحسست بتضاريس المكان.

هاندا أصبحت أمام الغوطة. تركت ورائي الصحراء. والرطبة، وأبو الشامات، وعواء الذئاب الهرمة.. تركت ورائي بغداد، وتيّار دجلة المندفع الذي يواصل مسيرته الأزلية، دون أن يشعر أحد بالآلام التي تمزّق أحشاءه. حين يرخي الليل سدوله على شرفات بغداد، ويبدأ رجال نوري السعيد وعبد الإله يجوسون في الأزقّة، ويسترقون السمع من وراء النوافذ..

«آه يا عبد الرحمن بن كاظم.. كم سئمت الحديث الذي ظل يدور عاماً كاملاً بين الأساتذة والأفندية والمتعلمين في مقاهي الرشيد، بين الحزبيين الذين يعملون بالسرّ والمتحزبين للنضال القومي. جرائد. إذاعة. مناقشات.. كلام جرائد. كلام ليل يمحوه النهار.. فهل هناك أبلغ من هذا الذي فعلت؟!.

عبرتُ الغوطة إلى دمشق مشياً على الأقدام. جئت إلى مدخلها من باب توما ثم إلى منطقة العمارة، ومن شارع إلى شارع حتى وجدت نفسي في ساحة المرجة. آه يا وجه دمشق الرائع، صار يتعينّ عليّ أن أسأل عن المكان الذي أستطيع أن أقابل فيه القاوقجي. كنت أحمل قصاصة ورق كتبها إليه عمي (الحجي) الذي خدم مع القاوقجي أيام ثورة ٣٦. عمي (الحجي) لم يعد كما كان في السابق.

هجمت عليه شيخوخة عاتية، واستوطنت جسده الأمراض، وعندما قرأ أفكاري في تلك الأمسية، وكنّا نأكل على مائدة واحدة، رمقني بنظراته العميقة وهو يسكب (المرق) على (التمّن)، وقال:

- ليكن.. إنها مشيئة الله... إن الله ألهمك واستجبت لنداء الجهاد. إذهب وسأوصي بك القاوقجي خيراً.

ذهب إلى مقرّ القيادة العامة في (قدسية). ولم أجد صعوبة في مقابلة

القاوقجي، ووجدت نفسي أمثل أمامه بأسرع مما كنت أتخيّل.

حين دخلت على حضرته كنت أشعر بالتهيّب، برهبة خفيّة، فأنا أمام رجل يشغل الناس.

كان يضع على رأسه حطّة صفراء، وفوقها العقال، وبدا وجهه نحيفاً يختلف كثيراً عن رسمه الذي يظهر في الصحف.

رفع نظراته عن قصاصة الورق التي كان قد أدخلها الحاجب إليه، ثم نظر إليّ بإمعان وقال:

ـ وكيف حال عمّك؟

قالها بلا حماس، وربما على سبيل المجاملة لا أكثر.

ثم أضاف: ـ تريد أن تصبح متطوعاً.. هذا جيّد. فأنت معلّم مدرسة، أي مثقّف.. بالفعل هذا جيّد.

ثم هزّ رأسه، وبدأ ينظر إلى ملابسي المتسخة دون استنكار. كأنه يدرك أنني عبرت الصحراء مشياً على القدمين، وبعد ذلك ضغط على الجرس فجاء أحد مساعديه، وأمر بإحالتي إلى المفتشيّة العامة لتسجيل اسمي، وصرف لي مبلغاً بسيطاً لشراء ملابس جديدة. والذهاب إلى الحمّام.

نمت ليلة في فندق المشرق بالمرجة. اغتسلت وحلقت ذقني. واشتريت ملابس جديدة، ونمت نوماً لم أذق مثله منذ أن بدأت فكرة التطوّع تشغلني.

في الصباح التالي التقيت بالرجل الذي أصبح واحداً من أعزّ أصدقائي واسمه (أسد الشهباء). التقيت به حين جمعتنا طاولة الإفطار. لم يكن ثمة متّسع في المطعم. لم يكن ثمة سوى المكان الوحيد على طاولته.

استأذنته في أن أجلس فأذن لي. كانت طاولة من رخام أبيض. طاولة ثقيلة، وكان صاحبي قد طلب صحناً من الفول، ورغيفاً ساخناً من خبز التنّور.

ـ تفضّل . .

قالها بكرم أنبأ عنه وجهه البشوش.

ودون أن أجد حرجاً أمسكت بكسرة من رغيفه وأكلتها.

وهكذا كان، فأكلت معه لأول مرة (العيش والملح).

أسد الشهباء ـ ليمتلىء قلب هذا الرجل الشجاع بالطمأنينة ـ هبّ واقفاً عندما عرف أنني جئت للتطوّع في جيش الإنقاذ:

ـ إذا كنت على عجل فهيّا معي إلى معسكر قطنا.

كان قد انتهى لتوّه من دورة عسكرية. لكنه عاد فجلس وقال برقة وإشفاق:

ـ حذار أن يصدمك الواقع الصعب، إن جيشنا يعوزه المدرّبون الأكفياء والملابس والأسلحة والذخيرة . .

وأردف قائلاً:

ـ جيشنا ما زال في بداية الطريق، والقائد وعدنا بتوفير كل شيء فيما بعد.

لم أكن في وضع يسمح لي بالتردّد، فقد وطّنتّ النفس على أن أتحمل كل صعوبة في سبيل الوصول إلى تراب فلسطين.

وفجأة جاء خادم المطعم وانحنى على أذن (أسد الشهباء) وهمس بضع كلمات مشيراً في الوقت نفسه إلى المدخل. كانت تقف بالباب امرأة متّشحة بالملاءة الشامية، وتغطي وجهها بمنديل أسود رقيق، ولا يظهر منها سوى كفيّها المخضبتين بالحنّاء.

امتقع وجه أسد الشهباء، وارتبك، ثم وقف، وخفّ إليها، ماشياً معها إلى ركن الفندق.

غاب بعض الوقت ثم عاد متصنّعاً الهدوء، محاولاً أن يعيد ربط ما انقطع

من حديثنا. لكنني - وإن كنت تحاشيت إحراجه - لاحظت أن أصابع يده اليمنى ترتجف، وأنه على الرغم من عودته إلى الحديث عن معسكر قطنا فإن شيئاً من الارتباك بدا عليه وهو يشرب كوب الشاي الذي صار بارداً. وقد تمكن بعد قليل من السيطرة على مشاعره، فوقف قائلاً:

- هيّا.. أحضر حاجياتك لنغادر..

رافقته في الطريق من دمشق إلى قطنا. كانت تنتظره في ساحة المرجه سيّارة عسكرية تنقل التموين، ولذلك فإن الطحين يغطّي مقاعدها وسقفها وأطراف زجاجها الأمامي، وربما رموش سائقها.

وفي الطريق حدّثني عن مدينته حلب، وعن أهله، وعن قطنا، والتدريب، والفوضى، وطول الانتظار.. عن بارودة الباراشوت، ومدفع براون، وعن البازوكا التي تحتاج إلى تصليح، ومدافع الفيكرز القوسية التي بلا ذخيرة، والبراوننغ المحمولة التي لا يجدون لها نصف مجنزرة تحملها.

وقال: عليك أن تتجمّل بالصبر، والحماس وحده لا يكفي، وإذا كنت متحمساً وتحمل صورة مثالية فإن الواقع سوف يصدمك. جيشنا ما زال في بداية الإعداد، فلا تحزن. ستفكر في الأيام الأولى بالعودة من حيث أتيت، لكنك لن تفعل ذلك، فنداء الجهاد أعلى مما كنت تتوقّع، وماذا ستقول للناس؟

اسألني.. فقد لازمني الأرق وأنا أفكر بالعودة إلى بيتي. كيف أعود؟ لقد خرج شباب محلتنا يودعونني حتى معرّة النعمان، وأطلقوا في الهواء الرصاص من مسدّساتهم تحية للشهامة والرجولة، وغنّوا الأهازيج التي تمجّد الجسارة، ودقّوا الأرض بأقدامهم في حلقة الدبكة انتظاراً للنار التي تشتعل في رؤوس الجبال.. بالله عليك كيف أترك المعسكر وأعود إليهم منكّس الرأس؟

لم يعد بعد ذلك ما يسبب لي الإحباط، لا الفوضى، ولا الأوامر المتضاربة

من الضباط، وضباط الصفّ، ولا هذا الخليط غير المتجانس من الأسلحة الفرنسية والانكليزية والألمانية. تدرّبت بعض الوقت في قطنا، ثم نقلت إلى معسكر الضمير حيث الفوضى والمشاكل التي لا تجد الحلول. تعوّدت على الصعوبات، وعلى الشتائم الصادرة عن المدّربين، وعلى طوابير الإزعاج.. تعوّدت على الانتظار والصبر، والتكيّف مع الواقع، ومع البرد الذي يخترق العظام.

***

ذات ليلة جاء القاوقجي بنفسه.

سبقته ضوضاء وحركة غير عادية. وسبقه من جاء لتنبيهنا إلى أن القائد في الطريق إلينا.

وتحوّل المدرّب الشرس فجأة إلى حمل وديع، وخاطبنا بودّ، وناشدنا أن نكون عند حسن ظنه أمام القائد.

عندما وصلت سيارة القائدة كنا نصطف في الطابور بانتظاره. هبط حاملاً عصاه، وقد لفّ نفسه بمعطف شتوي سميك. وهبط وراءه بعض الضباط الذين تبدو الأناقة على وجوههم وتظهر على ملابسهم.

اقترب قائد المعسكر وأدّى له التحية، ومن ورائه كان المدرّب قد أعطى الإيعاز بالاستعداد، وعند ذلك شددنا قاماتنا إلى أقصى حدود الانتباه.

نظر القائد إلى الطابور. نظر إلى بعض الوجوه في الصفّ الأمامي. نظر إلى ثيابنا غير المتجانسة، وإلى أحذيتنا التي لا يشبه أيّ منها الآخر.. وهزّ رأسه..

هل كان يعلن عن أسفه وألمه؟!

ثم أشار إلى المدرب إشارة أعطانا المدرّب بعدها الإيعاز بالاستراحة.

وقال القائد كلاماً قليلاً فهمنا منه أن وقت العمل قد حان. لم يطل

الحديث على كل حال. . هـل لاحظ أن ثيابنـا خفيفة، وأننـا نرتجف في هـذا المعسكـر الذي يـربض على أبـواب الصحراء؟ ثم مشى داخـلاً خيمـة قـائـد المعسكر، ومشى وراءه ضبّاطه.

* * *

في اليـوم التالي جـاءت الشاحنـات وأعادتنـا إلى معسكر قـطنـا، ووسط الزحام التقيت (أسد الشهباء) الذي جاء يبحث عني، ويسأل بلهفة.

فرحت برؤيته كأنه صديق من أصدقاء الطفولة.

أسرّ لي بما لديه من معلومات، ففي ساعة صفر معيّنة، سننتقـل من قطنـا إلى الموقع المحدّد لنا في فلسطين.

يا لجلال هذه اللحظة!!

خفق قلبي بعنف، واجتاحتني الرهبة ثم الفرح. وعنـدما كـانوا يـوزّعون علينـا الملابس السميكـة الشتويـة، والبنادق، والجعب التي تحتـوي على مئـة طلقة، والخوذ الحديدية، أيقنت أننا سنلتحق بالميدان.

* * *

قبل بزوغ الفجـر تحرّك الـرتل. كنت أجلس في الصنـدوق الخلفي لحاملة جنـود. أمامنـا سيارات شـاحنة، ومن خلفنـا سيارات شـاحنة، ومن خـلال الأضواء الصفراء الشاحبة تبدو كتل الضباب.

الفجر يقترب، والعتمة تأخذ في الانحسار.

- يجلس إلى جـانبي عـدد من الجنـود، كلّهم شبـان، ويتـدثـرون جميعـاً بالمعاطف السميكة، يمسكون ببنادقهم التي لا يشبه بعضها بعضاً.

كـانوا صـامتين تـظللهم رهبة هـذه اللحـظات التي طـال انـتظارهـا. . يفكـرون في الاشتبـاك والصـدام واللهب، وفي الأفق المشتعـل، والفجـر الدامي، والراية الخفّاقة.

وما لبثوا أن خرجوا بعد ساعة من أعماق هذا الصمت. غنّى أحدهم بصوت عذب:

واحنا ناوينا ع السفر وبخاطرك يا بلادنا

وتبعه آخر مردّداً ما قاله، ثم صار الترديد جماعياً. ووجدت نفسي أشاركهم. وفي لحظات انهارت المسافة التي تفصل بعضنا عن بعض.. وفي لحظات أخرى فرشنا بساط الألفة والصداقة، وتسلّل الدفء إلى الحناجر، ومن الحناجر إلى الأكفّ، وشيئاً فشيئاً أصبح للفجر لون اللبن الرائب.

وفي الطريق إلى درعا كان الناس يلوّحون لنا من وراء محاريثهم. ومن على أسطح منازلهم، وكانت الصبايا، الفلاحات الحورانيات يزغردن بأعلى ما تستطيعه حناجرهن.

توقّفنا عند نقطة ما في الخلاء لتناول الفطور وقضاء الحاجات، ثم واصلنا السير. وتوقّف الرتل في دغل من الأشجار في ضواحي درعا بانتظار التعليمات.

كانت سريّتنا هي طليعة الفوج، وقد تعرّفنا في ذلك الدغل على شخصية قائد السرية (أحمد بيك).. لماذا سمّى نفسه بهذا الاسم، ومن أين جاءته الباكوية.. لا أدري؟!

مرّ أحمد بيك على المجموعات، وشاركنا شرب الشاي، وتكلم كثيراً عن اليهود، ووصفهم بـ (أولاد الميتة)، ولم يبتسم أبداً طوال ذلك اليوم.

طال انتظارنا للتعليمات في ذلك الدغل.

وفي اليوم الثالث علمنا من أحمد بيك أن هناك مفاوضات جارية بين قائد فوجنا المقدم محمد صفا، وبين متصرّف لواء أربد في شمال شرق الأردن بشأن عبورنا الأراضي شرق الأردنية إلى فلسطين.

قال أحمد بيك إن كلوب باشا يمنعنا من العبور، وإن بعض الضباط الأردنيين الوطنيين يبذلون محاولات من وراء الستار.

فرجت في اليوم الرابع، وكانت الغيوم السوداء تغطّي الفضاء، وإن كانت الزرقة تطلّ من بعض الفجوات ما بين غيمة وأخرى.

ومشى الرتل مرة أخرى. مررنا من درعا.. وبعد ذلك الرمثا، ثم انعطفت بنا الطريق إلى إربد، فوادي العرب، فكفر أسد، فقرى الوسطية، فدير أبي سعيد، فمثلث الشونة الشمالية.. وهناك توقّفت السريّة بالقرب من قبر الصحابي معاذ بن جبل.

كان ضريحاً بسيطاً يؤمّه الفقراء ويتبركون به، ويشعلون أمامه الشموع، ويربطون بنوافذه الأشرطة الخضراء، وكان يخدمه شيخ طاعن في السنّ، فانتشرنا في رحاب هذا الصحابيّ الذي جاء من الجزيرة ليطرد الروم من فلسطين.

قال أحمد بيك إن المكان الذي حدثت فيه موقعة اليرموك الكبرى ليس بعيداً. قال ذلك وهو يتدثّر بمعطفه ويرفع ياقته على الرغم من أن البرد أقلّ حدّة في هذه الأغوار الهادئة. ومن خلال الرذاذ الخفيف كنت أحدّق في الجبال المقابلة، جبال فلسطين. كان النهر يفصلنا عن تلك الكثبان والسهول، ولم يبق أمامنا سوى (فركة كعب) كما قال أحمد بيك قبل أن نصل إلى الهدف المحدّد لنا.

في تلك الليلة التحقت بنا السريّة الثانية، حطّت قربنا، واختلط رجالها برجالنا، وجاء معهم أسد الشهباء. جاء بمعطفه الواسع، وخوذته، وبندقيته، وصخبه ومرحه.

قدّم لي السجاير، وعلبة لحم محفوظ، وبرتقالة.

وهمس: عمّا قريب نتحرّك إلى جسر دامية الذي يربط ما بين ضفتي النهر،

فنعبره إلى المكان المحدّد لنا في غور بيسان . . من أين كان يأتي بالمعلومات؟

وعندما كنّا نتهيأ للعبور في مجموعات صغيرة، وأثناء الانتظار جلست أدوّن بعض الملاحظات في دفتري .

اقترب أسد الشهباء وسألني : ـ ماذا تكتب؟

قلت له متملصاً : ـ رسالة إلى أصدقائي .

ففكـر قليلاً، ثم قـال عـلى استحيـاء : ـ ربمـا احتـاج إلى كلماتـك الجميلة لتكتب لي رسالة . .

هل ارتبك أم تلعثم؟

وهجمت عليّ إذ ذاك صورة تلك المـرأة التي تلف جسدهـا بملاءة شـامية . تلك التي جـاءت لزيـارته في الفنـدق في ذلك الصبـاح، والتي كان الخضـاب يغطي كفيها، ففهمت ما قصده، ولم أعد بحاجة لشرحه حتى أعرف ما الذي يتعين عليّ أن أكتبه .

ولاذ بالصمت . انسحب إذ شعر أنـه تسرّع، أو لعلّ حـالة وجـدٍ داهمته، لكن وجهه أصبح داكناً، صار بلون الخضاب الأحمر الذي كان يغطّي باطن كفّها .

في تلك اللحظة جاء جنديّ من جنود سريّتنا ونقل ـ بفرح ـ خبراً مفاده أن فـوج اليرمـوك الأول بقيادة الشيشكـلي هجم عـلى مستعمـرة (جـدين) قـرب ترشيحا لتغطية عبورنا .

* * *

انفرط عقد السرايا إلى مجموعـات صغيرة . تحـرّكنا في الـظلام نحو جسـر (دامية) .

دخلت في البداية الشـاحنات والمـدافع وسيـارات التموين . ثم عـبر مشاة

السريّة الثانية، وقبل أن يأتي دوري كان الفجـر قد لاح، فتـوقّف العبور حتى إشعار آخر، لكيلا يلفت دخولنا الأنظار.

ظللت وبقية المجموعات ننتظر في حقل ليمون يحـاذي نهر الشريعة. بقينـا نرقب الرتل الذي عبر النهر وهو يبتعد، ونحسد رفاقنا الذين وطئت أقـدامهم تراب فلسطين.

كان النهر يصطخب ويفور، فكمية الأمطار هذه السنة رفعت منسوب المياه في مجرى النهر، فكأنه بحر متلاطم الأمواج، لذلـك فإن المـرء مهما كـانت قوة عضـلاته لا يستـطيع أن يعـبر سباحـة إلى الضفة الأخـرى. . إنه لمن الجنـون التفكير في ذلك، كـما أنّ الزوارق، صغـيرة كانت أو كبـيرة، لا يمكن أن تعبر دون أن يجرفها التيّار، ويقلبها رأساً على عقب، لـذلك لم يكن هنـاك من حل سوى انتظار التعليمات.

كان الفصيل الذي لم يعبر يتكوّن من ثلاث مجموعات، لذلك فإن عبورنـا مـع أسلحتنا لن يحتـاج إلى أكثر من ساعة. ولا بـدّ أن يأتي المسـاء مهما طـال الانتظار لنتسلّل عبر كتل الظلام، ونعبر جسر (دامية) إلى الغرب.

وأجـرى القائـد محمد صفـا أوّل اتصال بنـا من مقرّه في الـطرف الآخر في ساعة مبكرّة من الصباح التالي. كان جندي الإشارة ينتظر تلك المكالمـة بفارغ الصبر، وكنت أتخيّل أسد الشهباء وقد دمعت عيناه في حبّ تراب فلسطين، وكنت أحسّ بخفقـات قلبي تدقّ بشـدة، كأنها قبضـة تطرق بـدون تـوقّف، ومهما طال الزمان فلا بدّ أن نعبر إلى الطرف الآخر.

غير أن ذلك لم يحدث، بل إن قـوّة انكليزيـة جاءت وضربت نـطاقاً حـول المنطقة المحاذية، وبدأت تفكيك الحديد والخشب.

جاءتنا الأوامر عبر جهاز الإشارة باليقظة والترقب. قال أحـد رفاقنـا: لقد فعلها كلوب باشا.

لم يقترب منا أحد، واكتفت القوة الانكليزية بتفكيك الجسر، فحلت الأخشاب والحديد في الشاحنات، وعادت من حيث أتت.

في ذلك المساء هطل المطر غزيراً، واندفعت كتل الماء اندفاعة عمياء، وكادت تغرق الأراضي المحاذية. لم يعد ما يربطنا بالضفّة الأخرى بعد تفكيك الجسر. أصبحنا في جانب، وأصبح رفاقنا في جانب آخر. ولم يَعد ثمة ما يربطنا سوى جهاز (الويرلس).

في المساء، جاءنا ضابط من دمشق، وطمأننا بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

وعند منتصف الليل عاد ومعه بعض الضباط من جيش شرق الأردن.

كان يتعيّن علينا أن نختفي في صناديق الشاحنات التي تنقل التموين إلى الفيلق العربي في أريحا عبر جسر (اللبني)، وقد تمّ ترتيب هذا الأمر مع بعض الضباط الوطنيين الساخطين على الجنرال كلوب باشا.

في الواحدة صباحاً جاءت الشاحنات فصعدنا إلى صناديقها، وصعدت مع من صعد إلى الشاحنة الأولى التي تحمل الخُضَر واللحوم.

كانت اللحوم محفوظة في صناديق مكشوفة، وكانت تنبعث منها رائحة أغنام رعت كثيراً في البراري الخصبة، وعلى الرغم من سلخ جلودها فإن رائحة القطيع كانت تفوح منها... وتذكرت والشاحنة تنقلنا جنباً إلى جنب مع الأغنام المذبوحة، تذكرت تلك الكائنات اللطيفة التي تدثّرت بدفء صوفها عندما نقلتني شاحنة مدنيّة من صحراء (أبو الشامات) إلى دوما، فدعوت من أعماقي ألاّ يكون مصيرنا كمصير هذه الأغنام المذبوحة المسلوخة.

ظلت الشاحنة تندفع في الطريق الضيّق الخالي نحو الجنوب، وما هي إلاّ

ساعة أو بعض ساعة حتى وصلت إلى جسر (اللبني) الـذي تحرسـه القوات البريطانية.

أحسست بالانقباض، وخطر لي أنهم سيكتشفوننا، ويمنعوننـا من العبور، غير أن كل شيء مرّ بسلام، مـرّ سريعاً، فقـد فتح الجنـدي الحاجـز، وعبرت الشـاحنات وهي تصبّ ضـوءها السـاطع الـذي ينفـذ بعيـداً، ويكشـف عن أشجار النخيل في الضفّة الأخرى.

مـرّ كل شيء في لحـظات، وظلّت الشاحنـات منـدفعـة في ذلـك الصبـاح البـارد، ولم تتوقف إلاّ في ضـواحي أريحا حيث كـانت تنـتـظرنـا سيـارات من جيش الإنقاذ. انتقلت من سيارة إلى سيارة، البرد والجوع والدوار.. لم أعـد أعرف ما الذي يجري.. بـين النوم واليقـظة توقفّت السيـارات في آخر الأمـر وسط معسكرنا الجديد.

وأيقنت عندها أنني أقف الآن فعلاً فوق تراب فلسطين.

* * *

يا لفورة الحماس، والأحلام الواسعة لهؤلاء الـرجال القـادمين من سـورية والعراق ومصر!

يا لهذه الجسـارة التي يتحلّون بها! غـابت الفوضى، وتـراجعت الخلافـات الصغيرة، وأصبح لهم جميعاً قلب واحد. أندمجت السرايا، وأُعيد ترتيبهـا من جـديد. صرت وأسـد الشهباء ننتمي إلى فصيـل واحد. صرنـا نقضي أغلب الأوقات معاً.. نمسح البنادق، ونقوم بصيانـة المدافـع. نتناقش في الأخبـار، وفي الليالي الطويلة نتجاذب أطراف الحـديث، ويقصّ كل منّـا سيرة حيـاته، وما واجهه من مشكلات.

وإذ كنّـا نعرّج قليلاً على ذكر النساء كان وجـه أسد الشهباء يحتقن، فأتـذكر عندها الكفّ المخضّبة لتلك المرأة الطويلة القامـة التي تلفّ جسدهـا بالمـلاءة

الشـامية، والله وحـده أعلم أيّ وجه صبـوح ذلك الـذي يختفي وراء الغطاء الأسود الرقيق!

* * *

ذات مـرّة كنت أكتب يوميّـاتي في الدفـتر الصغـير حـين جاء يقـول بـلا مقدمات:

ـ حان الوقت الذي يجب أن أبوح لـك فيه بقصتي مـع تلك المرأة.. هـل تذكرها؟

ابتسمت له. أقسم أن وجهه كان يضيء بفرح ليس له مثيل. كان يقرفص أمامي، خارج الخيمة.

أيّ دافع هذا الـذي جعله يروي لي قصتـه مع المـرأة ذات الكف المخضبّة بالحنّاء؟!

رواها بحنين الجنديّ الذي أمضّته الذكريات وذهبت به المخيّلة بعيداً.

كانت المشاعر قد غمرته حتى رؤوس أصابعه المـرتعشة. «عنـدما غـادرت حلب وجئت إلى دمشق، كان عليّ أن انتظر بضعة أيام قبل أن ألحق بمعسكـر قطنا...».

قـال أسد الشهبـاء ذلك وهـو ينظر إلى وجهي ليستـطلع مـدى اهتـمامي بقصته التي لم يقصّها بعد، فأشعرته بالاهتمام، ووضعت الـدفتر والقلم جـانباً تأكيداً له بتفرّغي للانصات. واسترسل بعد ذلك..

«تحوّلت الأيام الثلاثة التي كان يتعين عليّ أن أنتظرهـا إلى ثلاثـة أسابيـع، وخـلال ذلك أقمت بمنـزل خـالي في حي (العـمارة) خـالي ذو شخصيـة غنيـة بالطيبة والأصالة. ابن بلد وأفندي في آن واحد. يصلي ويصوم ويقرأ القـرآن وفي الـوقت نفسه يحب السهـر والغناء والـطرب واللهو. يعـزف على العـود،

ويتأنّق في المأكل والملبس والأثاث، يحلو لـه كل صبـاح أن يشرب قهوتـه أمام النـافورة التي تتـوسّط صحن الـدار. يحلو لـه أن يحتسي قهـوتـه بينـما زوجتـه الشامية تسقي الزهور اليانعة في أحواضها.

خـالي وزوجته يعيشـان وحيدين منـذ أن تزوجت ابنتهـما الوحيـدة، وعلى الـرغم من اقترابهـما من الشيخـوخـة فـإنهما يحنـو أحـدهمـا عـلى الآخـر مثـل عصفورين. يكسوها بأجمل الملابس، ويمـلأ يديهـا بالأسـاور، وتعطيـه النقاء والنظافة وراحة البال.

عندما طرقت بابهما استقبلاني بـالترحـاب والعواطف الجيّـاشة، وأدخـل وجودي المزيد من الحيوية على هذا المنزل الذي تفوح منه رائحة الياسمين.

في النهـار كنت أذهب مع خـالي إلى دكان الأقمشـة الذي يمتلكـه في سوق الحميدية، فيتباهى أمام التجار بوطنيـة ابن أخته القـادم من حلب في طريقـه إلى فلسطين.

وبعد أيام صرت معروفاً بالحيّ، بل إنه اصطحبني إلى مجلس الشيخ محمد الأشمر في باب المصلى.

وكنت أذهب كل يوم إلى (قدسية) لمراجعة المفتشية العامة، متحرّقـاً لأخذ جواب الالتحاق بمعسكر قطنا. إلاّ أنهم كانوا يطلبون مني الانتظار.

في هذه الأجواء التقيت بالآنسة (ملك).

عندما كنت أجتاز الزقاق المؤدي إلى بيت خالي شاهدتها. كانت تقف وراء النافذة تسقي الياسمينة التي تتعربش على نـافذتهـا. عندمـا رأتني لم تبتعد. لم تسدل الستائر. يا إلهي.. أيّ قمـر أضاء أعـماقي. أيّة رعشـة هزّت شغـاف قلبي؟

التقت عيناي بعينيها.. هل ارتسمت ظلال ابتسـامة عـلى ثغرهـا؟ حدث ذلك في لحظات، وكنت أقترب من بوابـة دار خالي، حـين أبطأت خـطواتي،

وحين صرت أمام الباب، وطرقته ودخلت كانت دقات قلبي تفضحني.

قالت زوجة خالي: وجهك شاحب.. هل أنت متعب؟

داريت اضطرابي بابتسامة ما، ودخلت الغرفة المخصّصة لي.

في اليوم التالي خرجت مبكراً قبل خروج خالي. مشيت بخطوات بطيئة وعيني على النافذة. كانت الستائر مسدلة. وإذ عبرت من أمام النافذة.. أمامها تماماً.. أحسست بأن الستارة تهتزّ كما لو أن خلفها من يراني ولا أراه

قضيت ذلك النهار أمشي على غير هدى. ظللت أمشي. قطعت المرجة إلى السبع بحرات، ثم مشيت حتى الشيخ محي الدين. كنت بحاجة إلى شيء من السكينة والصمت. كنت بحاجة إلى أن أملأ رئتي بالهواء. بالنسيم البارد الذي تدمع منه العيون.

عدت في المساء. عبرت الزقاق خطوة خطوة. النافذة مغلقة مغلقة تماماً. لم يكن ثمة بصيص أمل.

طرقت الباب فواجهني خالي بعاصفة من الاحتجاج. أين كنت؟ بحثنا عنك وانتظرناك لتتناول معنا الغداء.. وقالت زوجة خالي (غلي قلبنا عليك). وعلى الرغم من كل المحاولات التي بذلتها لكي أكون طبيعياً فإنني لم أستطع إبعاد الوجوم عن ملامحي. ولعل خالي شعر بأنني متعب ومرهق فاحترم رغبتي في الصمت. وتركني أنام مبكراً، وأعفاني من سهراته الطويلة.

في الصباح.. عندما فتحت البوابة، واجتزت عتبتها إلى الخارج، فوجئت بها تقف أمام بوابة منزلها، فكأننا على موعد!

وحينما رأتني أنزلت غطاء وجهها.

كانت تلف جسدها بالملاءة السوداء. كان جسداً رشيقاً طويلاً. مشت أمامي بحذائها ذي الكعب العالي، وكنت أستطيع أن أرى الحنّاء في باطن كفها.

مشيت خلفها. لم يكن في الزقاق أحد سوى الأطفال.

مشيت، وصرت بإزائها. خفق قلبي. كنت سأكلمها، ولكني جبنت في اللحظة الأخيرة. ظلّت تمشي دون أن تلوي على شيء. توقّفت أخيراً عند محطة (الترام). كان هناك عدد من الرجال والنساء ينتظرون، فوقفت في هذا الزحام، وعندما توقّفت الحافلة صعد الناس إليها فصعدت مع الصاعدين.

وجدت نفسي أمامها.. وجهاً لوجه. كانت تنظر إليّ من وراء برقعها الخفيف، كنت أحسّ بنظراتها التي تصبّ الزيت على الحريق الذي يندلع في قلبي.

توقّفت عربة (الترام) وسط ساحة (المرجة).

هبطت. سرت وراءها. مشت هنا وهناك. مشيت خلفها، وإن كنت قد تركت مسافة ما بحيث لا أثير شكوك الناس. مشت كيفما أتفق بمحاذاة (بردى). لم يكن ثمة من هدف لخروجها، فبعد (بردى) انعطفت نحو محطة الحجاز، وتوقّفت أمام بعض الواجهات تتأمّل الملابس والعطور. هل كانت تراني على الزجاج وأنا أقف على الرصيف المقابل أمام مقهى الحجاز أرقبها؟

قطعت الرصيف، ومرّت أمام مبنى البريد ثم الإذاعة، فقصر العدل، ثم توجهت إلى الحريقة. وفي لحظة من اللحظات استدارت وقابلتني، وأحسست بأنها ستتوقف وتخاطبني، ولكنها عبرت مثل النسمة دون أن تتوقف.

لم أدر ماذا أفعل. كانت الجرأة تخونني.

دخلت حانوتاً يبيع الخيوط والأزرار وكلفة الفساتين. رفعت نصف الغطاء عن وجهها وهي تتأمل الأزرار، وابتاعت ما تريد، ثم خرجت من الحانوت مثل غزالة نزقة.

ومن الحريقة دخلت إلى البزورية.. وكادت تضيع في الزحام أكثر من

مرة. وعلى الرغم من أن كثيراً من النساء مررن في كل الاتجاهات بالملاءات السود فإنني كنت أستطيع أن أميّزها من بين المئات.

دخلت سوق الحرير. الأقمشة المعروضة في الأزقة الضيّقة من كل صنف ولون. رائحة البخور تملأ الفجوات والقناطر. توقفت عند أحد الباعة وتركته ينزل بضاعته من الأقمشة ويبسطها أمام ناظريها، ثم اشترت منه بضع أذرع من حرير أحمر هفهاف.

وانتقلت بعدها إلى سوق العطور. يا للرائحة النفّاذة! نساء. صبايا، وباعة خبراء في التعامل مع الحريم.

باعة يبادرون بمخاطبة النساء بأجمل الألفاظ والكلمات.

باعة يمتلكون الجرأة والجسارة وبعض الفجور.

كان الباعة يوجّهون كلماتهم التي تشبه الغزل إليها، غير أنها لم تلتفت. هل كانت تريد إثارة أقصى حدود الغيرة في قلبي؟

أقول لك بصراحة، لقد أحسست بالغيرة تأكلني وتنهش أعصابي. وعندما خرجت من سوق العطارين أحسست ببعض الارتياح.. والآن.. إلى أين؟

مرّت من أمامي دون أن ترمقني، وإن كانت قد تعمّدت ـ عندما صارت بازائي ـ أن تترك الملاءة تنزلق عن كتفها. فيظهر طرف فستانها المزدان بورود الليلك قبل أن تردّ الملاءة إلى وضعها الذي كانت عليه.

خرجت مرة أخرى إلى الشارع المزدحم بالناس. ومرة أخرى مشيت وراءها دون أن تواتيني الشجاعة لأكلمها.

وتوقّفت مرة أخرى أمام محطة (الترام).

وكان بعض أطفال المدارس ينتظرون. اقتربت واقتربت حتى صرت على بعد ذراع منها، وكنت أستطيع أن أشمّ رائحة حديقة من الورد تنبعث من وراء غطائها.

والآن . . تعالت دقّات قلبي، وتصبّب العرق من جبيني . هل أكلّمها؟

داهمني الخجل، ولم أقو على الكلام .

مرت لحظات شابها قلق لم أشعر بمثله من قبل .

جاءت الحافلة، صعد أولاد المدارس إليها، وصعدنا .

جلست على مقعد يواجهها . كنت أستطيع أن أميّز ملامحها من وراء الغطاء الخفيف الذي يحجب وجهها . ظلت الحافلة تمشي وتتوقّف عند كل محطة، ولا يتوقف بائع التذاكر عن قرع جرسه .

هبطنا في المحطة الأخيرة، وكنت قد هيأت نفسي لأكلمها . عقدت العزم على أن أبادر قبل أن تفلت الفرصة .

لكن الطريق كان يزدحم بالناس، وصار يتعين عليّ أن أسير وأن أترك بيني وبينها مسافة .

وفي الزقاق المؤدّي إلى المنزل كانت امرأة مسنّة من أهل الحي تمشي في منتصف المسافة التي تفصلني عنها .

وهكذا أفلتت الفرصة، لكنها عندما دخلت بيتها تركت الباب مفتوحاً نصف فتحة، وتعمّدت أن تكشف الغطاء عن وجهها، وأن ترمقني بنظرة وتبتسم، ثم تغلق الباب .

قال (أسد الشهباء) كلمته الأخيرة . . وصمت .

وخيّل إليّ إذ ذاك كأنّ وجهه يطفح بهالة من النور . أيّة مشاعر تكبر في أعماقه في هذه البراري الشاسعة؟!

صمت، وانتظرت منه أن يقول المزيد، غير أن الفتى صابر الذي يغنّي بصوت يشبه الفضّة الخالصة جاء يقطع علينا خلوتنا .

في ذلك المساء، على كل حال، صمت (أسد الشهباء) كما لم يصمت من

قبل، وحين ذهب إلى خيمته، وأويت إلى فراشي في الخيمة المجاورة، حاولت أن أخمّن ما جرى، وما سرّ تلك المرأة ذات الكفّ المخضّبة، وأيّة قوّة تلك التي جذبت ما بين قلبها الرقيق وقلبه الأكثر رقة.

حاولت أن أسرد على نفسي بقية القصة، أن أتخيّل ما حدث بعد أن أطلقت نحوه سهام عينيها وأغلقت الباب، حاولت عبثاً أن أجد بيت القصيد في تلك المطوّلة الشعرية التي أنشدها أمامي، حاولت ولكن بلا جدوى..

* * *

انهمكنا في الأيام التالية بمشاريع تدريب واستطلاع، ومناورة بالذخيرة الحيّة. بلغ الحماس أوجه. وأبلغنا القائد أن منطقة عملياتنا ستغطي المنطقة ما بين بيسان وجنين.

وعلمنا أن قوات إضافية سوف تنضمّ إلينا، وأن القاوقجي سينقل مقرّه من (قدسيا) إلى (طولكرم). ونشط قائد السرية (أحمد بيك) في الخروج لزيارة الأهالي في المناطق القريبة منا، وصرنا قاب قوسين أو أدنى من الشروع في العمل.

وعزّز هذا الاعتقاد وصول المفرزة الشركسيّة، وإن كان (أسد الشهباء) الذي يمتلك مهارة الحصول على الأخبار الخاصّة قد همس أن الهدف من مجيء المفرزة الشركسيّة هو تعزيز موقف (أحمد بيك) الذي اكتشف أن معظم الأهالي يقفون إلى جانب المفتي والقوات التي بدأ يشكّلها تحت اسم (الجهاد المقدس).

كنّا نتحرّق شوقاً للمشاركة في القتال، وجاءت الفرصة عندما كُلّفت مجموعتنا بحماية قوّة استطلاع مكلّفة بجمع المعلومات عن مستعمرة (طيرة تسفي) ويطلق عليها الأهالي هنا اسم (الزرّاعة). لكننا لم نشتبك مع العدوّ لأنه لم يفطن لوجود رجالنا الذين تنكّروا بملابس الفلاّحين.

وبعد هذه المهمّة الناجحة منحنا (أحمد بيك) إجازة لمدّة يوم واحد. . .
فبالله ماذا نفعل بيوم إجازة في هذه البراري الشاسعة؟ لم يكن مسموحاً لنا أن نتجوّل في القرى، فالإجازة هنا تعني أن تظل نائماً في خيمتك دون أن يوقظك أحد، أن تمارس الكسل كما تشاء، أو أن تغسل جواربك وملابسك الداخلية في الوقت الذي تشاء.

وهكذا، وبعد أن استيقظنا في ساعة متأخرة من الظهيرة، وتناولنا طعام الغداء. مشينا، وركضنا، والتقطنا بعض البقول البرية: الشومر، العكوب، المرّار، الكرسعنة. .
ثم جلسنا ندخّن السجائر، ونحكي عن الأيام القادمة.
خلطنا شعبان برمضان، فتحدّثنا عن خلافات المفتي مع القاوقجي، وتحدّثنا عن اجتماعات الجامعة العربية، وعرجنا على مغامراتنا النسائية الصغيرة، وحاولت أن أثير فيه شهية الحديث عن تلك المرأة المخضبّة الكفين، فقلت دون أن أشير إليها أو أن أسمّيها: وماذا حدث بعد ذلك؟ ابتسم، وبدا متردداً، فاستحلفته أن يقصّ عليّ بقية الحكاية، فصمت قليلاً كأنه يوقظ الأشياء من غفوتها، وبدأ يحكي:

مرت أيام ثلاثة لم يتسنّ لي فيها أن أراها. فالباب مغلق، والنافذة مغلقة، وإن كانت أوراق الياسمين المتدلّية من قضبان النافذة تبدو خضراء ويانعة. لكني استطعت أن أتحايل على امرأة خالي، وأعرف شيئاً عن أهل ذلك البيت، فالبيت هو بيت (حدّو)، وهو صاحب محل لبيع الجلود في (السويقة)، وأمها خيّاطة ماهرة تخيط الثياب للنساء، ومعظم زبوناتها من فلّاحات منطقة (الغوطة). والبنت اسمها (ملك) وهي كبرى الأبناء إذ إن الأسرة تتكوّن بالإضافة إلى ذلك من ولدين ذكريْن آخريْن، أحدهما متخلّف عقلياً.
البنت (ملك) تساعد أمّها في الخياطة، وهي التي تذهب إلى السوق لشراء

الخيوط والأزرار والكلفة، والبطانة، وسوى ذلك من مستلزمات الخياطة، ولذلك فإنّ خروجها إلى السوق أصبح من الأمور الطبيعية التي لا تلفت النظر، ولعلّ هذا ما أكسبها الجرأة والخيال الجامح.

مرّت أيام ثلاثة لم أرها.. هل لاحظت امرأة خالي ذلك؟ هل ربطت ما بين قلقي وأسئلتي التي لا تنقطع وبين أهل ذلك البيت؟

إنها ـ امرأة خالي ـ امرأة طيبة، تستطيع أن تخمّن، وأن تحدس بذكائها الفطريّ، ففي صباح رائق شربنا القهوة، وبعدها قالت لي: أقلب فنجانك كي أقرأ لك طالعك.

وبعد قليل حدّقت في الفنجان وقالت: كل الطرق في فنجانك مفتوحة، وهذا فأل حسن، كما أرى في فنجانك نافذة كبيرة.. إنها طاقة الفرج بعد الشدّة.

وصمتت قليلاً، وأدارت الفنجان دورتين، ثم أضافت:

ـ وهذا هو المفتاح.. انظر.

نظرت، فلم أفهم شيئاً، ولم أستطع أن أميّز خطوط القهوة على حواف الفنجان.

قالت وهي تغمز خالي بطرف عينها: ـ المفتاح من الفضة، والمفتاح بحاجة إلى باب، والباب يحتاج إلى حائط، والحائط إلى سقف، والسقف يعني الستر، والستر يعني بنت حلال، وبنت الحلال موجودة.. أضمر في قلبك تجدها.

فضحك خالي وضرب كفاً بكف وقال:

ـ يا امرأة! أنت في واد، والدنيا في واد آخر.. ابن أختي تطوّع للحرب فقولي له شيئاً عن الطريق التي سيسلكها. أدركت عندها أن امرأة خالي

حفظت السر ولم تفشه، والحقيقة أن كلماتها قد أفرحتني وزادت من خجلي.

عندما خرجت مع خالي كانت النافذة مغلقة..

ركبت مع خالي في عربة الحنطور التي تنتظره كل صباح عند رأس الشارع. وكنت أفكر في امرأة خالي التي اكتشفت سرّي دون أن أخبرها به.

عندما تحرّكت عربة الحنطور شاهدتها. كانت تلفّ نفسها بالملاءة وتحمل في يدها (ساكاً) خفيفاً، وكنت أستطيع أن أميّزها حتى لو وقفت بين ألف امرأة!!

ظلّ خالي يحدّثني دون أن أنتبه إلى حديثه.

عندما تجاوزتها العربة شعرت أن قلبي سيسقط من مكانه. هل شاهدتني؟

هل حانت منها التفاتة إلى هذه العربة التي تمضي بنا، ويجرّها حصان عجوز، ويجلس في مقدمتها حوذيّ أكثر شيخوخة؟ لم أستطع أن أفعل شيئاً. لم أقو على أن أقول لخالي إنني أرغب في النزول. كنت أشعر أن أيّ حركة مني ستفضحني.. وماذا سيقول خالي عن ابن أخته المجاهد الذي يتلّهى بمطاردة البنات؟

وأثناء الطريق أقنعت نفسي بأنه ليس من اللائق أن أفكّر بغير الجهاد، وأنّ ترك العنان لهذا القلب الأرعن سوف يحرفني عن الهدف الذي نذرت نفسي له، وقلت لنفسي إن الله يمتحن قوتي وإرادتي وصلابتي، وعليّ أن أتجلّد وأنسى هذا الأمر.

ووطّنت النفس على أن أذهب إلى (قدسيه) وأبقى هناك حتى يرسلوني إلى معسكر التدريب. وعند بوابة سوق الحميدية قلت لخالي إنني سأنزل هنا، وأذهب إلى قدسية.

فبارك خالي ذلك ودعا لي بالتوفيق.

مشيت إلى ساحة المرجة بـاحثاً عن وسيلة مواصـلات إلى قـدسيا. ووسط زحام المرجة شاهدتها.

التقينا فجأة.. وجهاً لوجه.. فيا للصدفة العجيبة!

انهارت كل الأفكار التي تراكمت في رأسي، والتي راودتني أثناء الـطريق، ووجدت نفسي أتّجه نحوها بلهفة.

توقّفت. لم تمرّ كما النسيم، بـل توقّفت مثيرة رائحة حديثة من العطر.

قلت: مرحباً.

ومن وراء غـطاء وجهها الأسـود الشفّاف، من نـوع قـماش (الجورجيت)، أجابت: أهلاً..

أيـة هـزّة أرضيّـة هـذه التي جعلتني أرتعش من قمـة الـرأس حتى رؤوس الأصابع.

مشت. مشيت إلى جانبها. كنّا نقترب من النافورة فيصيبنا بعض الرذاذ.

قالت، كأن بيننا معرفة قديمة:

- إذن تطوّعت للحرب في فلسطين.

هل كان ذلك يعجبها أم يثير استهجانها؟

أجبتها: اليهود يزحفون كالجراد، ويأكلون الأخضر واليابس.

هكذا كانت البداية. كان هذا هو مدخلنا للتعارف.

ولم تبد رأيها في مـوضوع تـطوّعي، وإن كانت قـد ذكرت أن حـديث أهل الحيّ عني قد أثار انتباهها.

- إلى أين؟

سألتها. لم تكن تعرف فقد طال صمتها. ثم قالت:

- إلى المهاجرين.

كان هناك تواطؤ صامت، فقلت:

ـ وأنا أيضاً ذاهب إلى المهاجرين.

ركبنا الترام. الترام البطيء الذي مشى محاذياً النهر، ثم انعطف نحو الصالحية، ومرّ من أمام البرلمان، فساحة عرنوس.. ثم الجسر الأبيض.. ووصلنا إلى المهاجرين.

عند المحطة الأخيرة. رفعت غطاء وجهها الشفّاف، وألقت على وجهي نظرة بعينين آسرتين، وسألتني:

ـ متى ستذهب إلى الجبهة؟

بدأ الركاب يهبطون من الحافلات بعد أن وصلنا إلى آخر الخط، كما بدأ ركاب آخرون يصعدون.

وأخذ الجابي يجمع ثمن التذاكر لخطّ الإياب

لم نفكر بالنزول، فالمهم أننا ركبنا جنباً إلى جنب.

كانت عيناها تقولان: أخاف عليك. أعادت غطاء وجهها، وأعادت السؤال:

ـ متى ستذهب إلى الجبهة؟

أجبتها: في وقت قريب إن شاء الله.

أبو عبدو البغل

ظلّت حافلة الترام تنحدر في طريق الإياب.

وعند موقف الصالحية طلبت مني أن أهبط، وأتركها تمضي لوحدها إلى محطة (المرجة).

قالت: يجب ألّا يرانا أحد..

وقبل أن أهبط، سألتها: متى أراك؟

قالت دون أن تلتفت: لندع الأمر للصدفة.

قال أسد الشهباء ذلك وصمت. .

خيّل إليّ أنه سيتوقّف عن الكلام مثلما فعل في المرة السابقة، لكنـه نظر إليّ وابتسم. وأضاف:

ـ أقول لك مـا حدث. . تـركتها تمضي إلى منزلها، وذهبتُ إلى قـدسيا. تخيّل المفاجأة. كانوا ينتظرونني، فخـلال ساعـة كنت أحمل كتـابي وأذهب إلى معسكر قطنا. لم يتسنّ لي حتى أن أبلغ خالي، فقـد أكدوا أنـه محظور عـليّ أن أبلغ أيّاً من أقاربي بمكان وجودي. وأمضيت ثلاثة أسابيع في التدريب المكثّف والصعب.

«لم يكن لديّ وقت للتذكّر، وخيّل إليّ أن لقائي بتلك الفتاة لم يكن سـوى نـزوة عابـرة. والحقّ أن التـدريب القـاسي كـان ينسيـك حتى الحليب الـذي رضعته من ثدي أمك.

وفي نهاية الأسابيع الثلاثة كنت قد فقدت الكثير من وزني.

في نهاية الأسابيع الثلاثة منحوني إجازة لمدة ثـلاثة أيـام، وصرفوا لي مبلغـاً لـلإقامـة والـطعـام. لم أرغب في الـذهـاب إلى حلب، فـماذا سيقـول الـذين يتصوّرون أنني أصبحت أجاهد فوق تراب فلسطين، لذلك حجزت مكاناً في الفنـدق، ثم اشتريت مـلابس، واغتسلت، وحلقت ذقني، وارتـديت ثيـابي الجديدة، وعلى جناح السرعة وصلت إلى بيت خالي.

فتحت امرأة خالي الباب، وفوجئت بدخولي. ولعل شكلي قـد تغيّر كثيـراً بعد هذه الدورة العسكرية، ولا سيّما بعد أن قصّوا شعري الطويل، فرفعت حاجبيها دهشة:

ـ ماذا حلّ بك يا بنيّ؟.

وفي صالون الجلوس أبدت قلقها من ضعفي وهزالي، وأحضرت لي كوبـاً من شراب المورد.

لم يكن خالي قد عاد بعد من سهرته. كنت متعباً، وفي الحقيقة كنت متلهفاً لسماع خبر ما.

قلت لامرأة خالي: أريد فنجان قهوة.

غابت في المطبخ، ثم عادت ـ كأنما فطنت للسبب الذي من أجله طلبت القهوة ـ وقالت وهي تداري ابتسامة:

ـ لكنني لن أقرأ لك فنجانك.

ضحكت فشجّعها ذلك على استدراجي:

ـ تريد أن تسمع أخبار جيراننا.. لقد سألوا عنك عدة مرات.. هل تحكي لي قصتك بلا لفّ ولا دوران.

كانت هذه السيّدة الطيّبة التي تقترب من الشيخوخة قد تعاطفت معي إلى أقصى حدود التعاطف، كان في أعماقها قدر كبير من الرحمة.

ـ إذا كنت ترغب بها يا بنيّ فتقدّم لخطبتها.. اشبكها بخاتم وبعد ذلك ربنا يسهّل.

وأضافت بتشدّد:

ـ في حارتنا تنتشر القصص والشائعات بسهولة، فحذارِ يا بنيّ.. إنها من عائلة محترمة، فإذا كنت غير جادّ فاتركها تمضي في سبيلها.

قالت ذلك ببعض الصرامة، لكنها على الرغم من هذا ظلت بين الحين والآخر تقصّ عليّ شيئاً من مزايا (ملك) ومن المهارات التي تتقنها.

ثم جاء خالي فصمتت، وعرفت من صمتها أن خالي ما يزال يجهل الأمر. وغضب خالي حين عرف أنني حجزت سريراً في الفندق، ولم يهدأ إلّا حين وعدته بالبقاء في المنزل.

وأحيينا تلك الليلة من جديد. حدّثته عن التدريب القاسي، ثم لعبت

معه طاولة الزهـر وتركتـه يغلبني، ثم تعشّينا، وبعـد العشاء أوى كـل منا إلى فراشه.

في الصباح التالي خرج خالي مبكراً وتركني نائماً.

ظللت نـائماً تحت تـأثير التعب والإرهـاق حتى الضحى. عندمـا صحوت واغتسلت وتنـاولت فطوري، قـالت زوجـة خـالي: لمـاذا لم تكلّم خالـك عن الموضوع.. ألا تأخذ الأمر على محمل الجد؟

في تلك اللحظة أحسست أن الأمر قد فقد سحـره وعذوبتـه. أحسست بأن السرّ يفقد الكثير من غموضه، وجاذبيته، وأن الأمور إذا سـارت على نحـو ما تريد امرأة خالي فإنني سأخسر لذّة القلق والترقب والانتظار والحيرة.

لذلك لم أجد ما أقوله لها سوى الصمت.

فودّعتها وخرجت، ولا أدري إن كانت في تلك اللحظة قد أحسّت بحيرتي وضيـاعي، ولا أدري إن كانت قـد استبدّت بهـا الوسـاوس والشكوك فـي صدق نيّـاتي، لكنها ظلت تشيّعني بنـظراتها وأنـا أعبر الحـوش نحو البّـوابة الخارجية، واستطعت أن ألتقط بضع كلمات تشبه الدعـوات الصالحـات التي كانت تدعوها لي أمي.

في الزقاق، لم يكن ثمة سوى الفراغ.

بابها مغلق، والنافذة مغلقة، وفي نهاية الزقاق غبت في الزحام.

عـدت إلى فندقي. التقيت هنـاك ببعض رفـاقي في الـدورة العسكـريـة، فمعظم جنود جيش الإنقاذ ينزلون فيه.

ذهبنـا إلى الربـوة، وعلى حـواف بردى أكلنـا اللحم المشـويّ والفـاكهـة، وخلال قرقرة النرجيلة تحدّثنا عن المعارك، والنياشين، والغبار، واللهب...

وعدنا إلى الفندق برؤوس أدارتها النشوة والأحلام.

عندما دخلت الفندق وجدت خالي ينتظرني. جلس على الكرسي ونزع طربوشه، وظلّ يحرك حبّات مسبحته.

عندما دخلت هبّ واقفاً. فلبس طربوشه، وتناول عصاه، وقال لي وكأن هناك أمراً جللاً:

- أين ستهرب مني هذا اليوم؟. هيا.

وفي الخارج كانت عربة (الحنطور) تنتظره.

دفعني إليها، وركب إلى جانبي، فمضت العربة ببطء، ثم ما لبث الحصان أن نشط، وصار يمشي خبباً.

قال خالي: سألت عنك في كل فنادق المرجة.

وأضاف: كنت أصلّي في الجامع الأموي، فدعوت الله أن ينصركم.

وصلنا إلى البيت، علق خالي طربوشه، وعباءته، وقمبازه، ولبس ثوباً فضفاضاً.

بعد قليل طُرق الباب، فقال على الفور:

- فاتني أن أقول لك إنني أنتظر ضيفاً.

وما لبث أن دخل رجل في خريف الشباب، نحيف البنية، حلو التقاطيع، في كامل أناقته وزينته، فقدّمه لي خالي على أنه الجار (أبو القاسم حدّو)، فأيقنت أنه غداء مهيّأ ومرتّب، وأن زوجة خالي بدأت تذهب بعيداً.

دخل الرجل مزهوّاً بأناقته، فخلع طربوشه، وتعمّد أن يزيح طرفاً من معطفه الأبيض كي تظهر ساعة ذهبيّة معلّقة في جيبه، وتتدلّى منها سلسلة. وفي الوقت نفسه كان خالي يقدمني إليه:

- هذا هو ابن أختي الذي حدّثتك عنه. أبوه صاحب أكبر مطعم كباب في حلب، وأمه بنت حسب ونسب. وهو سيذهب إلى فلسطين للجهاد، ولن يطول غيابه.

قال ذلك، وأردف بينما كان الرجل يتّخذ له مجلساً:

ـ هذه الحرب لن تطول، ولن تكون أكثر من نزهة لخلع اليهود المعتدين من جذورهم.

فجلس الرجل، واتكأ على المسند، بينما زوجة خالي في المطبخ تعدّ الطعام.

وأقحم نفسه على الفور في إعادة سرد الأخبار التي سمعها من إذاعة الشرق الأدنى، وأعاد أيضاً تصريحاً للرئيس شكري القوتلي، ولعدنان مردم و...

خرجت إلى المطبخ الذي تفوح منه رائحة الدسم. ويمتلىء بالبخار وصوت (البابور) الذي يعمل بأعلى طاقته.

وكان من المتعذر عليّ أن أُحدِّث زوجة خالي بصوت منخفض بسبب ضجيج (البابور). كنت سأسألها أولاً عن هذه الدعوة المفاجئة لوالد (ملك)، وكنت سأقول لها ثانياً إن لا تحسب حسابي لأنني تغدّيت مع رفاقي في الربوة.

أصبحت على يقين من أنها أبلغت خالي بالأمر، ووجدت نفسي في مأزق لم يسبق أن مررت به.

وحين وضعت المائدة الغنّية بالرز واللحم والمحشي وشيخ المحشي، وورق العنب، وفتة المقادم، لم أجرؤ على القول بأنني لست جائعاً.

أكلت بتردّد، بينما كان خالي وضيفنا يتحدّثان عن إبراهيم هنانو، وسلطان باشا، والشيخ محمد الأشمر، والمقاومة في (الغوطة)، وتحقيق الجلاء.

بعد الغداء قمت بدور المضيف خير قيام. صببت الماء على يدي الضيف، ثم قمت حسب توجيهات امرأة خالي من وراء الستارة بتقديم القهوة والفاكهة.

وبعد الغداء لعب خالي وضيفه لعبة طاولة الزهر، وكان يتعين عليّ أن أراقب بانتباه.

أحسست بأن تلك الأحاسيس الخاصة التي احتفظت بها طويلاً في قلبي تتبخرّ. لم أعد أرغب في شيء، ولم أعد أفكّر إلاّ في العودة إلى المعسكر.

وحين خرج الضيف كان خالي يعلن عن فرحه، وامرأة خالي بدت مزهوّة بترتيباتها، ثم أخذت تخاطبني بلطف، وتدفعني بالإيحاء لفتح الموضوع، ولكني تجاهلت، الأمر الذي دفع خالي إلى القول مازحاً:

- يا ابن أختي.. أنت ذاهب إلى الحرب، وسنظل ننتظر عودتك بقلق، وأرى أن نخطب لك بنت حلال لكي تتذكر أن ثمة من ينتظرك بفارغ الصبر.

وقالت زوجته أشياء أخرى، وتضاعف حرجي وقلقي وخجلي، وأتعسني في تلك اللحظة أن يكونا قد اكتشفا سرّي، فأعددت نفسي للانسحاب التدريجيّ، وقلت:

- إذا عدت سالماً في المستقبل، سأفكر في الأمر.

تركت الأمر معلّقاً على الرغم من إلحاح زوجة خالي، وخرجت في المساء إلى الفندق، ومن الفندق إلى معسكر قطنا.

وصمت (أسد الشهباء) مرة أخرى، توقّف عن القص، وأثار ذلك المزيد من حب الاستطلاع لديّ.

فسألته: وماذا بعد؟

كانت بقايا شمس تغرب من وراء غيوم خفيفة.

قال (أسد الشهباء): الوقت يدركنا.. على كل حال، سأقول لك باختصار ما تبقّى... مرّت فترة طويلة قبل أن آخذ إجازة. نزلت في

الفندق، وذهبت للسلام على خالي في دكـانه، ولكي أنجـو من زيارة البيت زعمت له أن إجازتي قصيرة لا تتعدّى الساعة، وأن علـيّ أن أعود سريعـاً إلى موقعي، وقضيت بقية النهار في مقهى البرازيل.

في الصباح التالي التقيت مع حضرتك في قاعة الإفطار. هل تتذكّر؟

لقـد جاءت (ملك) بنفسهـا تسأل عني. . كيف عـرفت عنواني؟. . . من قـال لها؟ من أرشـدها إلى ذلـك الفندق. . هـل هي ثـرثـرة زوجـة خـالي أم ترتيباتها ؟

فـوجئت بالـزيارة. وقفت وقـد هزّتني المفـاجأة. اختلطت الـدهشة بتلك المشاعر الأليفة التي عادت واستيقظت من سباتها.

كـانت تنتظرني عنـد الباب، تلقّفت كفّهـا، وأجلستها في ركن من أركـان الفندق.

قالت: ـ لماذا لم نعد نراك؟

قالت ذلك دون أن ترفع الغطاء عن وجهها، ووشى صوتها المرتجف بدمعة لم أستطع أن أشاهدها، لا لأن غطاء الوجه سميك، ولكن لأنني حـاذرت النظر إلى وجهها.

كانت تعلم أنني لا أستطيـع أن أجلس معها في بهـو الفندق طـويلاً، فمن غير المحبّذ أن تجلس امرأة مع رجل في هذه الفنادق المحافظة.

وبعد لحظات من الصمت أخرجت من صدرها حجاباً على شكـل مثلث ملفوف بقماش أخضر.

وقالت: هذا حجاب فيه كـلام الله، كتبه لي الشيـخ عزام المجـاور للشيخ محيي الدين بن العربي. . رجوته أن يكتب لك حرزاً يحيمك، ويعيدك سالماً.

ووشى صوتها مرة أخرى بالبكاء، فأحسست برغبـة عارمـة في تقبيل كفّهـا

المخضّبة بالحنّاء، ووجدت نفسي أحدّثها بصوت مرتجف، وأعاهدها. . . ورجوتها أن تعود.

مشت. ثم تلفتت. . ثم استأنفت المشي. وبعدها رحلت، رفرفت كل الطيور التي أختزنها في سويداء فؤادي.

قال أسد الشهباء ذلك، وأخرج من جيبه الحجاب الملفوف بالقماش الأخضر. . وبعد ذلك صمت.

لم أشأ أن أعكّر صمته. تركته يعبر عن مكنوناته بطريقته الخاصة، وعدنا نهبط المنحدر دون أن نتكلم حتى كلمة واحدة.

ومهما يكن من أمر فإنّ أسد الشهباء جاء في الصباح التالي وتصرّف كجندي، وانخرط في المهمّات اليومية التقليدية كتنظيف الأسلحة أو المساعدة في المطبخ، ولكنه ظل بين حين وآخر يتعمّد الجلوس وحيداً، وتذهب أفكاره بعيداً، ويصمت مثلما يصمت الحمام الزاجل.

* * *

لم يعد أحمد بيك يطيل المكوث في المعسكر، صار يتنقّل بين القرى للتعرّف على الناس، والبحث عن مواقع جديدة، وإقناع الشباب بالانضمام إلى جيش الإنقاذ. لم تكن مهمّته سهلة، فمعظم الأهالي يتعاطفون مع المفتي ومع قوّات الجهاد المقدّس التي شكّلها عبد القادر الحسيني.

وحرص أحمد بيك، بناء على نصيحة من قائد الفوج، على التنقّل بدون مرافقين أو سيارات أو غيرها من المظاهر التي قد تنفّر الناس، فكان يستعمل سيارات الأجرة، وينام في بيوت الوجهاء، وأحياناً يمشي مسافة طويلة على قدميه.

وقيل إنه كان يمتنع عن المشي ليلاً لأنه كان يخشى العتمة، يخاف من الظلام الحالك، ولم يكن أحد يصدّق هذه الشائعة، فمن غير المعقول أن

يكون أحمد بيك، بكل ما له من هيبة وسطوة، ضعيفاً تعوزه الجرأة.

اشتدّ البرد في منتصف شهر شباط، وهطل المطر بغزارة.. عاودتني الآلام المعدة التي أصابتني منذ سنوات، ونمت في الفراش.

عادني الممرض عدنان، وأعطاني بعض الأدوية المسكّنة، وقد سهر (أسد الشهباء) على خدمتي، فبدلاً من أن يرتاح بعد نوبة حراسته كان يأتي إلى خيمتي، ويبقى إلى جانبي حتى الصباح.

ويا لسوء حظّي، ففي هذه الظروف بالذات، جاء قائد الفوج، وأعلن الاستنفار.

كان ذلك امتحاناً لقوّة الحياة في روحي، فمن غير المعقول أن أنام بينما يذهب رفاقي إلى المعركة.

لم يسمح لي الملازم المسؤول بالخروج إلى مواقع التجمّع، وطلب مني أن أبقى مع المجموعة التي تحمي المعسكر إلى أن يعود (أحمد بيك) من جولته.

ولقد جاء (أحمد بيك) في الليلة نفسها.. هذا ما أخبرني به أسد الشهباء الذي ظلّ مع من ظلّوا يحرسون المعسكر.

في الصباح التالي شعرت بشيء من التحسّن. وقد جاء أسد الشهباء وأبلغني موافقة أحمد بيك على مشاركتي، وأعطاني مشطاً كاملاً من الرصاص كان قد حصل عليه بطريقة أو بأخرى، ووعد أن يدبّر لي قنبلة (ميلز) قبل أن نتحرك لتنفيذ المهمّة.

في الصباح جلست أمام الخيمة أكتب وصيتي، وعندها أقبل فجأة رجل غريب بملابس مدنية. شاب في الخامسة والعشرين أو أكثر قليلاً. توقف أمامي وطرح السلام.

في تلك اللحظة، لم أكن أرغب في أن يقطع عليّ أحد خلوتي، فماذا تنتظر

من رجل يكتب وصيته، ويوجّه كلمات عاطفيّة إلى أمّه؟!

لكن وجه الشاب كان يطفح بالحيرة، فقلت له على سبيل المجامله:
ـ تفضّل.

وسرعان ما قرفص أمامي. كانت ملامحه تطفح بالحيرة، وبالبراءة أيضاً.

ـ هل أنت جديد هنا؟
سألته، فأجاب: ـ لقد وصلت لتوّي..

وعرفت أنه متطوّع جديد من أبناء المنطقة لم يتلقّ التدريب بعد، وأنهم قد يرسلونه إلى قطنا في الوقت المناسب.

تذكّرت قلقي وتعبي، والصعوبات التي واجهتها كمتطوّع، فتعاطفت مع هذا الشابّ الغر الذي ليس له تجارب، وأشفقت عليه فطويت أوراقي.

أمطرت الدنيا فدخلنا الخيمة، وجاء أسد الشهباء بعد انتهاء نوبة حراسته (ويبدو أن أحمد بيك قد كلفه بالاعتناء به) وقضى معنا تلك الأمسية، ثم ذهب للنوم.

هل كنت أتوقع أن يصبح هذا الشاب صديقاً عزيزاً له مكانة تعادل مكانة أسد الشهباء لديّ؟

على كل حال، فقد كتبت وصيّتي، ولبست ملابس القتال، وأسرعت للالتحاق بمركز التجمّع، عند نقطة الازدلاف التي تفضي إلى ساحة المعركة.

***

بدأ الهجوم على مستعمرة (طيرة تسفي) في الثالثة صباحاً. كانت الأرض رخوة بسبب الأمطار، وعندما أحسّ المدافعون عن المستعمرة بقدومنا أطلقوا خراطيم المياه لتغرق الأراضي المحيطة بالمستعمرة وتحوّلها إلى مستنقعات.

في الثالثة صباحاً، بدأت المعركة. فتحنا النار من كل الأسلحة التي بحوزتنا. كنت ضمن مجموعة المشاة المكلّفة بالإسناد. وإذ هطل المطر بغزارة فإن القوة الرئيسة لم تتمكن من اقتحام المستعمرة، فقمنا بإطلاق نيران مدافعنا على أبراج المستعمرة فتهاوت، لكن قوة الاقتحام لم تتمكن من التقدّم.

عند الفجر أدركنا اليأس، ويبدو أن النجدة قد وصلت إلى (طيرة تسفي) من المستعمرات القريبة، وبدأ القصف والهجوم المعاكس، فتشتتت قواتنا، وغاصت في الطين، ووقعت بنا إصابات عديدة.

وبينما كنت أسعف بعض الجرحى هنا وهناك سقطت قذيفة قريبة تطايرت شظاياها وأصابتني. . ويبدو أنني غبت عن الوعي بسبب النزيف، ولم أصح إلا في المستشفى الميداني.

* * *

ما أطول تلك الليلة. لم أنم. .

كأنني كنت أتمدّد على الشوك.

لا . . ليست الجراح هي السبب، الجراح الطريّة الخضراء التي لم تندمل بعد. ليس مصدر الألم من هناك.

يا لتلك الليلة التي صمت فيها كل شيء حتى الرياح والضفادع والكلاب وبنات آوى وصراصير الحقول، ولم يصرخ فيها سوى الوجع الذي ينشب أظافره في باطن الروح.

لا . . ليست الجراح هي التي كانت تجعل حوافر الأرق تدوس أعماق اليقظة المعذّبة، وإنما ذلك المذاق المرّ للحظات المرة التي تتساقط برتابة وأسى.

كنت في تلك اللحظات أشعر بالإجهاد، بالإرهاق والخَوَر.

دوار في الرأس، والأرض تهتزّ، والجفن ثقيل بلا نعاس، فما أطول الرحلة. !

كـل شيء يبدو كـالحاً مغبـراً، واليأس يتسلّل من وراء كتـل الـظلام، من خلف الكذب والفوضى وسوء التقدير!

ما أمرّ طعم الهزيمة!

وجـع. قهر. حـزن. مشفى الميدان. طبيب. ممـرض. قـطن. شـاش. رائحـة محلول اليود. ميـزان الحرارة. حقنـة في الوريـد. حقنـة في العضـل. حبتان ثلاث مرات قبل الأكل أو بعد الضياع وانهيار الأشياء.

كيف حدث ذلك؟. لا أكاد أصدق.

تحطمت المعنويات، وجاءت الضربة غير المتوقّعة.

قنابل. كشّاف. مياه تتدفّق وتغرق السهل كله.

ظلت الأمـطار تصاحبنـا منذ أن تحـركنا من الضمـير إلى درعا قبـل شهر. ظلت تصـاحبنا ونحن نعـبر جسر (داميـة)، وظلت تسـوطنـا ونحن نخـوض معركة الزرّاعة..

مياه تتدفق وتغرق السهل كله. والسماء تمطر. مياه تنبع من الأرض، ومياه تسقط من السماء.. يا لهذا الجحيم!! وجع لا يطاق. الجرح مـا زال طريـاً، وأصعب منه طعم تلك الهزيمة!!

دخل (أسد الشهباء) وبصحبته الممرض.

ـ أهدأ يا عبد الرحمن... اهدأ.

صرخت به:

ـ أريد أن أرى المقدم محمد صفا.. أريد أن أراه في الحال.

وضع يده على جبيني، ربما ليتأكد من أن الحمّى تأكل دماغي.

قال (أسد الشهباء) وهو يغالب البكاء:

ـ اهدأ يا عبد الرحمن... اهدأ.

قال ذلك ثم خرج، ربما ليداري دموعه.

جلس الممرض على الكرسي، ربما كان يدرك ما الذي يجعل الجنون يشتعل في عروقي، لكنه ليس ذلك الرجل القادر على إحضار قائد فوج اليرموك الثاني بسراياه الثلاث.

كنت على ما يبدو في تلك اللحظات أدرك أن أحداً ما لن يجرؤ على إبلاغ المقدم صفا، ولكني كنت بحاجة إلى أن أصرخ، وأن أطرد هذا القهر من بدني.

وعندما اقترب الممرض يرجوني أن أمدّ ذراعي ليحقن وريدي بالدواء، لم أتردّد..

مددت ذراعي، وأغمضت جفني..

***

صحوت على هدوء.

توقّف المطر، وانتشر النقاء، وفاحت رائحة الأرض من وراء النافذة.

الآن. أرى السقف. سقف القصب. أرى الحائط. الحائط المطليّ بالشيد الأبيض. أرى وجه الممرّض عدنان، وجسد المريض في السرير المجاور.

ـ هل أنت بخير؟

كنت أشعر كأن غشاوة في العينين تجعل الرؤية غير واضحة، لعل آثار الدواء ما تزال تفعل فعلها.

تأوّه المريض الذي يرقد على السرير المجاور. تأوّه أو زفر زفرة كأنها خارجة من قلب بركان.

تأوّه أو تألّم بحرقة.. من أين أتى كل هذا الوجع؟!

جاء الممرض وأسند ظهري، ووضع خلفه وسادة، وصار بإمكاني رؤية ما يجري في تلك الغرفة الكبيرة.

انتقل الممرض إلى السرير المجاور، ووقف ينتظر. ماذا ينتظر؟
كأنه ينتظر أن ينتهي مفعول التخدير.
قال بعد صمت: ـ لقد تاه في البراري طوال الليل، فجمّده الصقيع.
تاه في البراري؟
أيكون واحداً من الذين هاموا على وجوههم بعد النهاية المفجعة للمعركة؟!

حدّقت بوجهه أستجلي ملامحه. يا للمفاجأة!! إنه ذلك المتطوّع الذي التحق بنا منذ أيام.. إنه الفتى نجيب. وجهه غير حليق، يغمض عينيه كأنه في غيبوبة، لكنه بين حين وآخر تنتابه صحوة، فيزفر تلك الزفرة الحرّى، بينما تتحرك تفاحة آدم في رقبته.

هل تهون على المرء مصيبته عندما يرى مصيبة غيره؟ تذكرت وجهه الأنيق، بشاربه الرفيع، عندما جاءني بعد نوبة الآلام التي كانت تمزّق معدتي.

عندما استيقظ وفتح عينيه، وأدرك أنه في المشفى، سأل على الفور:
ـ أين الدرع.. أين الدرع.. أين ذهبتم بها؟
كانوا قد جرّدوه من ملابسه الخارجية، ولفّوه بالأغطية.
ـ أين الدرع؟

لم يأبه لسؤاله أحد، وانصرف الممرض الذي يعوزه الحماس إلى قراءة صحيفة كانت ملقاة على الطاولة.

وعلى الرغم من الدوار والآلام الخفيّة تدخلت وكلّمته.

حينما سمع صوتي فتح عينيه، لعلّه الآخر لا يرى الأشياء بوضوح من خلال الغبش.

لقد تذكّرني. هتف بصوت مجروح:

ـ هل أنت عبد الرحمن العراقي؟

ومدّ يده كأنما يريد أن يتحسّس وجهي وجبيني.

كأنّ أباً ضريراً يشمّ رائحة ولده الغائب.

وكرّر القول: أأنت عبد الرحمن؟؟

هل تلك التي نزلت من عينيه دموعه الساخنة أم دموعي؟

بكى بصوت خافت. لماذا بكى؟ وما الذي جعله يتيه في البراري طوال الليل؟ ولماذا عبّرت ملامحه الحزينة عن آخر مدى يمكن أن تصل إليه الغربة والضياع؟

وذات لحظة، كادت عدوى البكاء بصوت عال تنتقل إليّ، فداريت ارتباكي، وتصنّعت اللامبالاة، وسألته:

ـ أيّ درع هذه التي كنت تسأل عنها؟

لم يجبني، ويبدو أنه نسي سؤالي أو حاول أن يتناسى موضوع الدرع.

لم يحدثني عن موضوع الدرع إلاّ بعد ذلك بشهر عندما ذهبت في إجازة إلى دمشق، وزرته في معسكر قطنا، فبعد أن تماثل للشفاء أرسله أحمد بيك إلى الدورة التدريبية. بعد الشفاء استدعي للمثول أمام أحمد بيك «قال لي إنه لم يرفع عينيه. إلى وجه أحمد بيك، ولكنه في الوقت نفسه لم يطلب الصفح».

إذن مرّت المسألة بسلام، غضّ كلّ منهما الطرف تجاه ما جرى، وهكذا وقّع له أحمد بيك كتاب التعيين، وأرسله إلى التدريب.

* * *

في المعسكر تغيّر كل شيء، وأصبح نجيب رجلاً آخر، إنه الأول في الدفعة، أذكى المتدربين وأمهر الرماة. صار شخصية شعبية محبوبة في قطنا المعسكر، وقطنا البلدة، بل وفي المعضمية وخان الشيخ وعرطوز.

توسّطت لدى آمر المعسكر فأعطاه إجازة قصيرة، وذهبنا معاً إلى دمشق . . إلى ذلك الفندق في ساحة المرجة.

لقد رحل الحزن عن محيّاه، ومثلي نسي أو تناسى ما حدث في (طيرة تسفي) أو الزرّاعة.

لم نعد إلى الحديث عن تلك الأيام، ولم يسألني إلا عن المواقع الجديدة التي انتقلنا إليها ما بين جنين وبيسان، ثم حدّثني عن تلك الدرع العظيمة التي باعها جندي انكليزي إلى رجل من أهالي سمخ، ثم اشتراها أحمد بيك، وزعم لمندوب المفتش العام أنها غنيمة من غنائم المعركة.

كان مندوب المفتش العام يعرف أن المعركة فاشلة، لكنه أراد تزوير النتيجة، فهي المعركة الأولى لجيش الإنقاذ، ولا بدّ من تحويل الفشل إلى نصر.

والتقط أحمد بيك الفكرة، وأعاد صياغتها سريعاً، وقال لمندوب المفتش العام إن قواتنا قد لقّنت اليهود ـ أولاد الميتة ـ درساً لا ينسى، وأن قواتنا قد غنمت منهم درعاً عظيمة من طراز بريستول.

عند ذلك أصابت نجيب الدهشة، فانعقد لسانه. وحينما صدر له الأمر بنقلِ الدرع إلى سيارة مندوب المفتش العام لم يفعل ذلك، وإنما حمل الدرع وخرج بها إلى البراري . . خارج المعسكر.

في الخارج واجهته الرياح التي تنشب أظافرها، فلبس الدرع فوق ثيابه، ومشى دون أن يعرف الاتجاه، لكنه بالحدس كان يعتقد أنه يتوجه صوب بحيرة طبرية . . صوب قريته سمخ.

مشى في أدغال ذلك الليل المظلم. تجمّد أنفه، وتيبّست رؤوس أصابعه، لكنه لم يتوقّف. ثقلت خطواته، وقع في الحفر، تعثّر بالصخور، وسمع في تضاعيف الليل العواء والصفير وولولة الرياح. أصابه الإعياء. قاوم. مشى.

مشي. لكن في تلك السهوب لم يكن يشاهد ضوءاً ما ولا رائحة إنسان. لم يعد بمقدوره أن يواصل. كل شيء تجمّـد أو تخدّر، ولم يبق سـوى قلبه ينبض تحت الدرع العظيمة.

وفجـأة سقط. سقط وغاب عن الـوعي، ولم يستيقظ إلا في المستشفى بعد أن وجده الرعاة في فجر اليوم التالي. عندما تماثل للشفاء سألهم عن الدرع، فقالوا له: موجودة في الأمانات.

وقبل أن يغادر إلى قطنا ذهب إلى الجنـدي المكلّف بالعهـدة والأمانـات، وسـأله عن الـدرع فالتفت الجنـدي هنا وهنـاك، وهمس له: إيـاك أن تعيد السؤال، وأشكر ربك أن أحمد بيك لم يحاسبك على فعلتك.

وهكذا مضت الدرع إلى حال سبيلها. غـابت. اختفت. وحاول نجيب أن يقتلعهـا من ذاكرتـه، لكنـه في آخـر الليـل، وعنـدمـا صمت كـل شيء، واستنفدنا كل الحكايات والقصص، وبدأت أتثاءب، وقف نجيب وأدام النظر من وراء الزجاج. ربما كان ينظر إلى الغيوم التي تتجمّع في السماء، أو ربما كان يستمع إلى خرير مياه بردى. أو لعله كان يصيخ السمع لنداء تلك الدرع العظيمة.

* * *

في الصباح التالي أفاق منتفخ العينين؛ شاحب الوجه. متعباً.

من الواضح أن الأرق ظلّ يعذبه طوال الليلة الماضية. هبطنا إلى المـطعم لتناول فطور الصباح. احتسينا الشاي الساخن، وقـد بذل نجيب كـلّ الجهد ليكون طبيعياً، ومرحاً.

حكيت له طرفة، وروى لي بالمقابل طـرفة أخـرى فيها من المـرارة أكثر ممـا فيها من السخرية.

وفجأة انشدّ بصري إلى مدخل الفندق.

كانت تقف بالباب امرأة تلفّ نفسها بملاءة سوداء. . وتغطّي وجهها بغطاء خفيف. كانت امرأة نحيلة، طويلة، وقد لاحظ نجيب استغراقي وذهولي. .

ـ هل تعرفها؟

تساءل، وكانت ما تزال تقف متردّدة.

هممت بالوقوف، فاستدارت ومضت في طريقها.

نهضت وأسرعت خلفها. . كانت تبتعد في الزحام، وقد دقّقت ودقّقت النظر، لكنني لم أستطيع أن أتأكد إن كانت كفّها مخضّبة بالحنّاء أم لا. . .

الفصل الرابع

توقّفت سيارة الـ (فورد) الصفراء بعد أن ظلّت تمشي بتقطّع مسافة تزيد عن ميل.

قرص الشمس غاب وراء التلال، والقمة بدأت تملأ الفضاء، ولم يعد في الأفق طيور، وليس ثمة سوى رائحة الحشائش، وأصوات العصافير التي تحطّ على الغصون الداخلية لشجرة خروب برّية كبيرة.

توقّفت السيارة، على الرغم من أن سائقها (حامد أبو حامد) قرأ آية الكرسي، وعلى الرغم من أن عبد الكريم الحمد ناشد كل الأولياء والصالحين لكي لا تتوقّف.

تقطّعت أنفاسها فجأة، فعبس حامد أبو حامد إذ أدرك أن المحرّك سيخذله وسط هذه القفار التي لا يمرّ بها أحد عندما يجنّ الليل، لذلك ظلّ يضغط على دوّاسة البنزين، وظلّت السيارة تتقدم خطوة ثم تتوقّف، تدبّ فيها الحياة ثم تختنق.

ويحدق عبد الكريم الحمد بوجه حامد أبو حامد فلا يجد سوى العبوس، وعند ذلك يسقط قلبه، ويتحسّس حزام النقود على وسطه، لكنه لا ييأس من إمكانية أن يقوم أبو حامد بالتصرف المناسب.

ظلّت السيارة تحاول أن تنهض، لكنها في النهاية توقّفت تماماً، ولم يعد بها نبضة حياة واحدة.

هبّت على وجه أبو حامد عاصفة من القهر والغضب، وأطلق زفـرة حارّة. وحين حاول عبد الكريم الحمد أن يكلمه ثار قائلاً بأعـلى صوتـه: صلِّ عـلى النبي يا رجل.

لم يكن أبـو حامـد من النوع الـذي يثـور لأتفـه الأسبـاب، لـذلـك أدرك عبـد الكريم الحمـد أن الموقف شـديد الصعـوبة، فصمت. فتـح أبو حـامد البـاب وهبط. راقبه عبـد الكريم من وراء الـزجاج. حـاول أن يفتح غـطاء السيـارة الأمـامي فلم يستـطع، وسحب يـده سريعـاً. لا بـد أن الغـطاء ساخن. ثم مدّ يده إلى جيبه وأخرج منديله، وعندما رفع الغطاء خـرج بخار محتقن لم يستطع تحمّله، فسعل سعالاً حاداً، وابتعد منتظراً أن يخفّ البخار. ثم اقترب من النافذة، وقال بلطف:

ـ لا تؤاخذني يا عبد الكريم.. أخرج واستنشق الهواء.

أدرك أن صاحبه قد استعاد السيطرة على مشاعره سريعاً، فأحسّ بتعاطف شديد مع هذا الرجل الطيّب، وقرّر أن يسامحه.

فتح الباب. وهبط.

رائحـة العشب. ورائحة الـبراري. وأصوات العصـافـير، والـوحشـة ثـم الوحشة ثم الوحشة.

قال أبو حامد: يتعينّ عليّ أن أنتظر حتى يبرد الحديد.

كـان في صوتـه بصيص ضئيل من الأمـل، كان يمنّي النفس بـالتغلّب على هذه الصعوبة المفاجئة.

كان عبد الكريم الحمد قد تجوّل لـمدة يومـين بين مضـارب عرب الصبيـح لاسترداد ديونـه، وقد تمكن بـالفعل من جمـع مائـة جنيه معـظمها من القـطع المعدنية، حشاها في جيوب حزام النقود الذي يلفّه حول خصره، وتحته كانت تنام (الشبرية) الثمينة المرصّعة بحجر كريم، وكان يستعملها للزينة لا للهجوم ولا للدفاع عن النفس.

كان قد جمع معظم ديونه، فأوصى مع خيّال كان ميمّماً شطر الناصرة أن يترك خبراً لصاحب سيارة فورد الصفراء كي يعرج في طريق عودته على بيت الشيخ عدنان ليأخذه معه إلى سمخ.

في ذلك النهار، ولحسن حظّه، كان حامد أبو حامد قد أوصل عروساً من أهالي سمخ لتتزوّج في الناصرة،وكان أهلها قد أخذوا السيارة (سكارسه)، ودفعوا له الأجرة ذهاباً وإياباً، ولذلك لم يضع الوقت في انتظار الركّاب، وحالما أخبره (الطارش) برسالة عبد الكريم الحمد هرع إلى السيارة، وأطلق لها العنان.

أيّ حظّ هذا الذي جعل السيارة تتعطّل بعد أن هبط الليل من الأعالي؟

رفع أبو حامد غطاء السيارة وأسنده بالرافعة، وانحنى على المحرّك يتفحّصه.

مسح عبد الكريم الحمد المنطقة التي يقف فوقها بنظراته.. أرض زراعية على اليسار، وعلى اليمين شجرة خروب كبيرة، ووراءها أرض ترتفع شيئاً فشيئاً، وتتناثر فيها نباتات شوكية، وتشكل في النهاية تلّة عالية.. وثمة راعٍ مع قطيع أغنام يتسلّق تلّة مقابلة بينما جرس الكبش الذي يتقدم القطيع يرنّ بشكل رتيب.

أما الطريق الترابية التي تمرّ منها السيّارات والدوابّ والسابلة فتبدو فارغة وصامتة.

ما أبْعَدَ سمخ في هذه اللحظات!

اقترب خطوتين من أبو حامد الذي ظلّ منحنياً على المحرّك. اقترب وظل ساكتاً. لم يجرؤ على طرح السؤال، وظل ينتظر إشارة أمل.. فمتى ينجاب هذا القلق، ومتى ترحل الوساوس؟

استمرّ أبو حامد في انحناءته. ما الذي جعله يستغرق كل هذا الاستغراق. متى يرفع رأسه، ويطلق ابتسامة صغيرة ويقول: كل شيء تمام.. متى يرفع رأسه.. متى؟

وقد رفع رأسه بالفعل بعد طول انتظار. رفع رأسه، وكانت ملامحه شديدة الجمود. كان محبطاً، فقال باقتضاب:

ـ لا فائدة.. سنقضي الليل بطوله هنا.

فأجابه أبو حامد على الفور: ولماذا تقلق يا عبد الكريم.. أنت رجل وحيد وليس وراءك زوجة ولا أولاد.

قال ذلك، ثم شعر بالندم.

عضّ شفته إذ أحسّ أنه تسرّع.. هل من الضروري تذكير عبد الكريم بوحدته وعزلته بعد أن رحلت زوجته منذ سنوات طويلة دون أن تنجب له طفلاً؟

غير أن عبد الكريم الذي يملك جلداً سميكاً لا تخترقه الكلمات الطائشة تجاهل قوله، وتكلّم دون انفعال:

ـ ألا يوجد حلّ آخر؟

أجاب أبو حامد: لا بأس، الليل ما زال في أوله.. تستطيع أن تكمل الطريق مشياً على الأقدام فتصل إلى سمخ مع صلاة الفجر.

صمت عبد الكريم ولم يجب.. تابع أبو حامد قائلاً:

ـ ويمكنك أن تبحث عن مكان تنام فيه عند الرعاة وراء تلك التلال.

وسأل عبد الكريم بشيء من اللين: ـ وأنت؟

ـ لا أستطيع أن أترك سيارتي.

تردّد عبد الكريم الحمد على الرغم من أنه أدار الأفكار برأسه.. هل

يذهب مشياً على الأقدام إلى سمخ؟ هل يبحث عن ملجأ وراء التلال؟ إن المسافات طويلة. وليس لديه خبرة بهذه الطرق. الجوّ محفوف بالمخاطر. الظروف قلقة، والبلاد في حالة حرب. وقد حاول أن يستوعب موضوع البقاء في هذه البقعة حتى الصباح.. حاول، ولكن...

اقترب منه أبو حامد، وقال بلطف: ـ أحسبها ليلة من ليالي الصيف التي كنت تنام فيها على البيادر.

قال أبو حامد ذلك، على الرغم من أن قلقاً ما كان يساوره.

هل تذهب وحيداً، أم تبقى مع أبو حامد؟

فكر عبد الكريم الحمد وفكر، ولم يشأ أن يسلّم بالأمر الواقع. فمشى يستطلع المكان. تأمّل شجرة الخروب الهرمة ذات الغصون المتشابكة، ثم خطا باتجاه المرتفع مدفوعاً بغريزة البحث عن فضاء.. صعد إلى التلة، وهناك رأى ما جعله ينادي بأعلى صوته.

خفّ أبو حامد إليه. كانت تلة صغيرة، ولذلك صعد بخطوات سريعة.

ـ انظر.

قال عبد الكريم، وأشار إلى أضواء على مرمى البصر. استدار أبو حامد وقد ازدادت همومه، وقال وهو يهبط:

ـ إنها مستعمرة يهودية.

كانت العتمة قد أصبحت حالكة فصمتت الطيور، والله وحده يعلم أية انفعالات هزّت بدن عبد الكريم الحمد، لكنه، وقد أدركه الإحباط، عاد يجرجر قدميه هابطاً التلة وراء أبو حامد.

ظلّلت العتمة كل شيء، وأصبحت الشجرة الباسقة تبدو شبحاً عملاقاً، والأشجار الشوكية صارت بقعاً سوداً، وعما قريب تزداد الحلكة فلا يستطيع المرء رؤية أصابع كفّه.

ـ هل تريد أن تذهب مشياً على الأقدام؟

كان أبو حامد يمزح، كان يريد أن يقول دعابة ليس غير.

عمد إلى صندوق السيارة الخلفي فأخرج منه قطعة حصير، وسجادة صلاة، وزمزمية ماء و(سفرطاساً). ورغيف خبز.

ـ تفضل يا عبد الكريم، طعام أم حامد الذي وضعته في السفرطاس ما زال كما هو، ونصيبك أن تأكل معي من زاد واحد.

لم يكن عبد الكريم يشعر بالجوع، فقد تغذّى في بيت شيخ عرب الصبيح وأكل حتى التخمة:

ـ لست جائعاً.

: ـ سأترك لك نصيبك. . الليل طويل وستجوع في وقت من الأوقات.

وفيما أنهمك أبو حامد بالأكل هبّت نسمة باردة فاقشعرّ بدن عبد الكريم.

ـ اشرب.

تناول الزمزمية وبلّ ريقه، لكنه شعر بغصّة. . أحسّ بأنه يضعف ويضعف.

كانت السيارة الصفراء واقفة على جانب الطريق قربهما، لقد أصبحت الآن سيارة سوداء.

وحاول أبو حامد أن يشدّ أزره وأزر نفسه، فهتف به:

ـ هيّا للصلاة. . تستطيع أن تتيمّم إذا انتقض وضوؤك.

وبعد الصلاة أحسّ عبد الكريم بشيء من الراحة والطمأنينة. وغاب أبو حامد قليلاً لقضاء حاجته، ثم عاد وهو يحمل كومة من الحطب الجاف والقشّ.

ـ هل تنوي إشعال هذا الحطب؟

ـ طبعاً فالنار تؤنس المرء في وحدته.

ـ ولكن أولئك اليهود.. ألا تعتقد أنهم سينتبهون إلى وجودنا إذا ما أشعلنا النار؟

صمت أبو حامد. فكّر قليلاً. تخيّل أن النار في هذا الليل الحالك ستضيء المكان، وقد يلفت ذلك نظر اليهود في المستعمرة القريبة.. قد يرسلون قوة استطلاع. قد يطلقون النار.. أليس ذلك بالضبط ما يقلقه، ويزيد من حيرته!!

ـ معك حق.. من الأفضل عدم إشعال النار.

وضع كومة الحطب على الأرض، ثم جلس على طرف الحصيرة.

قال عبد الكريم الحمد لنفسه: «أية مفاجأة كانت تخبىء لنا الظروف! أية ليلة هذه التي ما كانت على البال ولا على الخاطر!»

وقال أبو حامد لنفسه: «ليلة وتمضي، وغداً يطلع النهار، والنهار له عيون».

ـ جماعتنا الآن يسهرون في مضافة الحاج حسين.

قال أبو حامد ذلك جاذباً حبل الحديث، وبدا أن عبد الكريم بحاجة إلى أن يتكلم، أن يقطع هذا الصمت.

قلما سهر عبد الكريم الحمد في منزل صهره الحاج حسين، ولكنه يعرف من ابن أخته راضي كل ما يدور في السهرات. وعلى الرغم من أنه لا يحب السهر ويفضّل النوم المبكّر، فهو يصغي باهتمام عندما يحدّثه راضي عن أخبار الحرب التي يجري تداولها في المضافة. آه.. ما الذي جعل راضي يخطر بباله.. كم أحسَّ بالشوق لهذا الفتى!.

ـ جماعتنا الآن في اللجنة القومية يسهرون عند الحاج حسين، ويعلم الله كيف سيعالجون موضوع إخلاء معسكر قوة الحدود.

لم يدر عبد الكريم بم يجيب، فهو لا يعرف موضوع معسكر قوة الحدود، ولم يسبق له أن سمع شيئاً عن ذلك.

أبو حامد رجل يتابع ويهتمّ ويلاحق كل صغيرة وكبيرة، وهو لا يخفي مشاعره الطيّبة تجاه المفتي.

وأضاف أبو حامد: وعلى كل حال فإن الطاهر قد وعد بالمجيء. قال ذلك ليطمئن نفسه قبل أن يطمئن صاحبه.

الطاهر.. الطاهر.. لقد ترك البلد منذ سنة والتحق بالمفتي في القدس. غاب في دورة تدريبية في الخارج.

- إنه يعمل الآن تحت إمرة فوزي القطب في فرقة التدمير.
- إنه موجود في القدس ضمن ظروف العمل السرّيّ.
- وكيف عرفت أنه سيعود إلى سمخ؟

وحكى أبو حامد مطوّلاً عن الطاهر. سرد قصصاً لم يتحقّق عبد الكريم إن كانت حقيقية أم أنها من نسج الخيال.

كبر الطاهر في هذا الليل، وملأ الوادي والتلال.

ونسي عبد الكريم الحمد المأزق الذي وقع فيه، وشيئاً فشيئاً بدأ يغزوه النعاس.

وبدأ أبو حامد يتثاءب. وكانت قد مرّت عدة ساعات.

- أنا نعست يا عبد الكريم سأنام هنا، ولكنك تستطيع أن تنام داخل السيارة إذا ما برد الجو في آخر الليل.

وقال عبد الكريم: وأنا أدركني النعاس.

قال ذلك، وخلع حذاءه، فوضعه تحت رأسه، وتمدّد على قطعة الحصير، واضطجع أبو حامد غير بعيد فوق سجادة الصلاة، وأغمض عينيه، وما هي إلاّ لحظات حتى علا شخيره.

عـادت الهواجس إلى ذهن عبـد الكريم، طـار النعاس من عينيـه، وخطر بباله كل الاحتمالات السوداء. هبطت على مخيلته كـل التوقّعـات، وكبرت في سمعه حركة الأغصان، وحفيف الأوراق.

وهـدّه التعب في النهاية، فنام. وظلّ يتململ في نومه كأنه يضطجع على شوك.

***

فتح عبد الكريم الحمد عينيه فجأة.. هل كان يحلم؟

لقـد سمع حـركة مـا. سمع دبيـب خطوات خفيّـة. سمع أنفـاساً ليست أنفاس آدمي..

فتح عينيه، وانتابه ذعر هزّ بدنه، وجعل شعر رأسه يقف.

العتمة شديدة، وثمة لسعة برد تجعل القلب يرتجف. وقف.. من هناك؟

قال بصوت لا يشبه صوته، وفي الوقت ذاته قفز من أمامه حيوان كبير.

لم يره، وإنما أحسّ بحركته. شعر بالاتجاه الذي قفز نحوه.. بوقع أقـدامه فوق العشب.

ولعـل الحيوان بعـد ذلك تـوقّف. خيل إليـه أنه يـرى عينـين كـالخـرز في الظلام، ومعهما فحيح مخيف.

امتدّت يد عبـد الكريم إلى (الشـبرية) التي لم يستعملهـا في حياته، بشكل غريزي، ورافق الـرهبة تحفّـز للدفاع عن النفس. اختفى صـوته، أو هكـذا خيّل إليه. ارتبك، ومرّت لحظات قبل أن يفكر بإيقاظ أبو حامد.

هزّه بعنف، فاستيقظ أبو حامد مذعوراً:

ـ بسم الله.. ماذا هناك؟

ـ هناك حيوان مفترس بالقرب منا.

ونهض أبو حامد وأسرع إلى صندوق السيارة فأخرج منه (مانويل) الحديد الذي يستعمله كل صباح لإدارة مراوح السيارة. . وتحفّز.

- إنه ضبع . . ضبع كبيرة.

قال عبد الكريم الحمد.

- هل شاهدتها؟

- أستطيع أن أخمّن أنها ضبع، لقد شممت رائحتها الكريهة.

مشى أبو حامد بضع خطوات. . أين هي؟

- لعلها ابتعدت.

- إذا كانت ضبعاً فإنّها ستعود بالتأكيد.

كان الرجلان يقفان في العراء. أحدهما خائف، والآخر يتصنّع الجرأة. كاناعاجزين عن التصرّف. كان خوف شديد يجثم بكل وطأته على روحيهما.

تناول أبو حامد زمزمية الماء، وشرب قليلاً، ثم مسح وجهه، فيما ظلّ عبد الكريم الحمد يضع يده على الشبرية، تحت حزام النقود، ويفكر فيما يتعيّن عليه أن يفعل إذا لم يكن هناك مفرّ من المواجهة.

- اجلس يا عبد الكريم، لنفكّر في الأمر. . إذا كان الحيوان الذي شاهدته ضبعاً فإنه سيعود بالتأكيد، أما إذا كان خنزيراً برّياً فإنه سيهرب إلى منطقة أخرى.

- أراهن على كل ما أملك أنه ضبع له رائحة نتنة.

وبعد لحظات كان عبد الكريم الحمد يشعر بأسنانه تصطكّ. ولم يدر أبو حامد إن كانت أسنان صاحبه تصطكّ من البرد أم من الخوف.

فكّر في كومة الحطب التي أحضرها. . فكّر في أن يشعل النار، كي يسري الدفء من جهة، ولمنع الضبع من الاقتراب من جهة أخرى، فالضباع لا تقترب من النار. .

امتدّت يده إلى (القدّاحة)، تطاير الشرر، ولكن فتيلها لم يشتعل.

ـ ماذا تفعل؟

ـ من المفيد إشعال النار الآن.

كان أبو حامد قد قرّر المغامرة ليدخل الطمأنينة على قلب صاحبه. وبدا كأن عبد الكريم قد عاد وامتلك ما يقترب من رباطة الجأش فقال:

ـ أرجوك لا تشعل النار، إن المستعمرة اليهودية قريبة.. أليس كذلك؟

بلى إنها قريبة. إنه يعرف.. ويعرف أن الخطر من المستعمرة ما زال قائماً. الضبع من جهة، واليهود من جهة أخرى.. أيّ حصار هذا؟!

فتّش أبو حامد في صندوق السيارة مرة أخرى، وجد قطعة (شادر) يستعملها أحياناً ليضعها تحت ظهره في الأوقات التي يضطر فيها إلى الانبطاح تحت السيارة لإصلاح محركها.

وضع قطعة الشادر على كتفي عبد الكريم لعلّها تقيه شيئاً من البرد.

وفي الوقت نفسه سمع وقع أقدام على الأرض.

سرت رجفة في بدنه، وجاء صوت عبد الكريم:

ـ هل تسمع؟

حاول أبو حامد وهو يرفع قطعة الحديد بيده عالياً أن يحدّد المكان الذي يأتي منه الوحش، لكنه لم يستطع أن يحدّد بحدسه أين كمن الحيوان، ولماذا حبس أنفاسه؟

ظل أبو حامد يقف متربّصاً، وبدا كما لو أن هناك منازلة بينه وبين الحيوان الذي يستعمل مكره وذكاءه.

سقطت قطعة الشادر عن كتفي عبد الكريم فتحرّك الوحش خطوة، وعلى الفور رماه أبو حامد بقطعة الحديد، رماه بكل ما يملك من قوّة،

فأصابته، وصدرت عن الحيوان صرخة على هيئة عـواء أو نباح أو مـا لا يمكن وصفـه، ثم ابتعد، ونمّ عن ذلـك صوت أقـدامه فـوق الأرض وهو يـركض مبتعداً.

ـ ماذا حدث؟

تساءل عبد الكريم الذي لم يكن يتوقع أن يفعلها أبو حامد

ـ لقد ابتعد ولن يعود. . اطمئنّ.

وكيف يطمئنّ عبد الكريم الحمد؟ كـان الوقت يقـترب من الهزيـع الأخير من الليل، وما زال هناك متّسع من الوقت أمام الحيـوان قبل أن يـظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسـود، لكن ما فعله أبـو حامـد شحنه بـالقـوة، وأمـدّه بالثقة، فتناول الزمزمية بدوره وشرب منها، ثم مسح وجهه.

قال أبو حامد: ما دمت تصرّ على عـدم إشعال النـار فمن المستحسن أن ننام داخل السيارة.

قـال عبد الكـريم لنفسه: إنّ ذلـك يبعث على الـطمأنينـة، فلن يستطيـع الحيوان كسر زجاج النوافذ والدخول إلى المقاعد.

قال ذلك لنفسه، وهبّ واقفاً.

دخلا السيارة. رفعا زجاج النـوافذ. جلس أبـو حامـد وراء عجلة القيادة وكأنه يهم بالإقلاع، وجلس عبد الكريم في المقعد الخلفيّ وكأنه يتهيّأ للسفر.

لم يكلم أيّ منهما الآخر، كان كل منهما بمنفاه الخاص، كل يفكر بهواجسـه وظنونه.

كان عبد الكريم يفكر بالضبع، ويتذكر حديث الضباع في مضـافة الحـاج حسين، أيام زمـان، قبل الحـرب، عندمـا كان يتـردّد عليها. الضبـع تعرف فريستها من بـين أربعـين رجـلاً. الضبـع لا تضبـع إلاّ أصحـاب القلوب

الضعيفة. يقولون إن الضبع تقترب من فريستها فتبول على ذيلها، وترشق بالبول وجه الرجل الفريسة، فتضبعه.

يفقد الرجل المضبوع إرادته فيركض بلا إرادة وراء الضبع. تستدرجه الضبع إلى مغارتها، فإذا كان مدخل المغارة عالياً فإنه يدخل وعند ذلك تثب الضبع عليه فتفترسه، أما إذا كان مدخل المغارة منخفضاً فإن جبين الرجل يصطدم بالصخر فيشجّ رأسه، ويسيل دمه، وعند ذلك يصحو، ويعود إلى رشده، فيعود من حيث أتى، ولا تجرؤ الضبع على اللّحاق به. الضبع لا تفترس الناس إلاّ في مغارتها. . هكذا يقولون في قصص الضباع التي يسردونها كل ليلة بصيغة تختلف عن الصيغة التي كانوا قد سردوها في الليلة التي سبقتها.

أما أبو حامد، فلم يكن يفكّر بالضبع.

عمّا قريب ترحل العتمة، ويضيء الفجر، وتهرب الوحوش إلى أوكارها. عمّا قريب تخرج جرّارت المستعمرة لتحرث الأرض، فأيّ موقف سيواجهانه إذا ما كان في المستعمرة رجال (البلماح) الذين لا يتورّعون عن إطلاق النار على أيّ عابر سبيل.

غير أن عبد الكريم كان يفكّر بشكل مغاير.

كان يقول لنفسه: متى يأتي الفجر. وتعود الضبع إلى مخبئها؟

كان ينظر إلى العتمة من وراء الزجاج، ويخيّل إليه أن هناك كتلة قادمة شديدة السواد. . كتلة تتحرك ولها عينان مثل خرزتين. كان يخيّل إليه أن كتلاً أخرى شديدة السواد تأتي من الجانب الآخر. وكان يكاد يسمع صوت أقدام سريعة تركض فوق الأعشاب. وأحسّ أبو حامد بالتعب والنعاس فنام وراء عجلة القيادة. أسند رأسه إلى ظهر المقعد ونام على الرغم منه. نام وارتفع شخيره كالعادة.

أما عبد الكريم الذي ظل يفتح عينيه ويراقب كتل الظلام، ويتخيّل ما لا يمكن حصره من التخيّلات، فقد شعر فجأة بحاجة إلى التبوّل.

وأحسّ بضغط شديد على مثانته. هل يفتح الباب ويخرج؟

هل يذهب إلى حيث يقضي حاجته على الرغم من هذا التردد والفزع الخفيّ الذي يسكن قلبه؟

خطر بباله أن يوقظ أبو حامد، لكنه تردّد.. ثم تراجع..

هل يحتلّ الجبن حقاً قلبك الضعيف؟

فتح باب السيارة. مدّ رجله اليمنى وانتظر قليلاً:

أنصت جيداً، لا صوت إلاّ صوت الريح التي تهزّ جذوع شجرة الخروب.

هبط وهو يمسك مقبض الشبريّة. كان قد تحفّز واستنفرت كل عضلة في يديه وساقيه.

مشى خطوة أو خطوتين، وراء السيارة. استنشق الهواء. الهواء المنعش المشبع بالرذاذ أو بالندى.. فتح أزرار سرواله وبال. لم يعد هناك احتقان. أحسّ براحة كبيرة. أحس بحاجة إلى مزيد من الهواء والندى.

وفجأة سمع صوت الضبع.. وسمع ما يشبه قرقعة الطناجر، فأيقن أن ذلك الضبع يبحث عن بقايا الطعام في صحون (السفرطاس). لعلّ رائحة الطعام جذبته، وأيقظت عنده شهوة الدم.

ظل عبد الكريم الحمد واقفاً، ويده على الشبرية، كان قد تشبّع بالرعب، ولذلك لم يعد هناك متّسع للمزيد.

وجاء صوت آخر من اتجاه آخر، فتحركت قشعريرة على كل أجزاء بدنه، وأيقن أن هذه الحيوانات سوف تستميت من أجل الحصول على فريسة، ويبدو أن أبو حامد قد استيقظ على أصوات الضباع.

ـ أين أنت يا عبد الكريم؟

فتح الباب وهبط: ـ أين أنت؟

حكى عبد الكريم. لم يقل شيئاً بالتحديد، ولكنه تفوّه بما يشبه أنه موجود.

كان هناك مجموعة من الضباع تصدر أصواتاً مرعبة وجارحة، وتصرّ على الحصول على فريسة، ولم تكن السيارة بالمكان الآمن، فهذه الحيوانات الجائعة لن تتورّع عن كسر زجاج النوافذ إذا ما احتدم الصراع.

ـ ماذا نفعل؟

تساءل عبد الكريم بصوت ضعيف.

قال أبو حامد: لا مناص من إشعال النار.

قال عبد الكريم بالصوت الضعيف نفسه: ـ ولكن. .

قاطعه أبو حامد بصوت عال: هل تأكلنا الضباع بصمت في هذه العتمة؟ وأشعل على الفور القدّاحة ذات الفتيل، وانحنى على كومة الحطب.

تراجعت الحيوانات قليلاً حين فاجأها الشرر، وخلال لحظات اندلعت النار في الأوراق الجافة والعيدان الصغيرة، وتكاثف الدخان.

ابتعدت الحيوانات أكثر فأكثر.

صاح أبو حامد: لن تأكلنا الضباع دون أن نفعل شيئاً. ارتفعت ألسنة اللهب، وبدأت النيران تأكل كومة الحطب من جميع أطرافها.

ارتفعت ألسنة اللهب، وأضاءت المكان، وتمكّن عبد الكريم الحمد من رؤية أبو حامد، فأمدّه ذلك بالشجاعة من جديد.

انتشر الضوء. ظهرت شجرة الخروب، وامتدّ ظلّها بعيداً، وظهرت السيارة، وصحون السفرطاس الفارغة، وقطعة الحصير، والسجادة، ورأى كل منهما الآخر.

رحلت كتل الظلام، وابتعدت الوحوش، ولكن الخوف ظلّ يكبر.

- وماذا نفعل إذا تنبّه إلينا اليهود في المستعمرة؟

- ليحدث ما يحدث، لن نموت ميتة الجبناء.

ظلّت ألسنة اللهب ترتفع، وظل أبو حامد يلقمها بالمزيد من العيدان والأوراق، وما يقع تحت يديه من حطب وأشواك.

أضاءت النيران السهل والوادي والتلال. فركض عبد الكريم الحمد وراء ظله، وتسلّق حتى قمة التلّة، وأطل من هناك على المستعمرة. عاد سريعاً بقلب يخفق بعنف، وقد أوجس خيفة. وقال: أضواء المستعمرة أطفئت. لعلهم تنبّهوا لوجودنا. اتكأ أبو حامد على مقدّمة السيارة، وقال:

- سينتظرون حتى الفجر، وعند ذلك نستطيع أن نبتعد دون أن نخشى من الوحوش.

قال عبد الكريم لنفسه «ليس أقسى من وحوش الغاب إلاّ الوحوش البشرية».

ظلت النيران تضيء، وتشيع الدفء.

- لو كان معنا قطعة سلاح..

قال عبد الكريم الحمد ذلك وأضاف:

- لو كان معنا مرتينة ندافع بها عن أنفسنا.

تذكر أبو حامد (مانويل) الحديد، فمشى يبحث عنه وسط الهشير الكثيف.

أغمض عبد الكريم عينيه ونذر أن يشتري بندقيّة إذا مرّت هذه الليلة بسلام.

عاد أبو حامد يحمل قطعة الحديد التي كان قد ضرب بها الوحش، فسأله

عبد الكريم: كم تساوي البارودة الفرنسية (أم حبّة)؟

طرح سؤاله، وتحسّس حزام النقود الذي كاد ينساه، وفي الوقت نفسه أضاءت تلة ما هناك؛ غير بعيد، في الاتجاه المغاير. أضاءت التلة بشعلة من النار، بكتلة من اللهب.

ـ انظر!

نظر عبد الكريم وقد داخلته الحيرة والدهشة.

كان الفضاء هناك قد سطع، واختلط الضوء بالدخان.

ـ ما الذي يحدث؟

لم يقل أبو حامد شيئاً. ظل يراقب التلّة التي اندلعت من قمّتها النيران.

: ـ لعلّهم رعاة هاجمتهم الضباع أو حاصرتهم الذئاب.

لم يقل أبو حامد شيئاً.. وظل ينتظر.

واندلعت من تلة أخرى ألسنة النيران، فتجمّعت مشاعر شتّى على وجه أبو حامد، وانفجر الفرح، فصاح بأعلى صوته:

ـ الله أكبر!

اقترب عبد الكريم مأخوذاً، كأنه يرى معجزة.

ـ إنها إشارة لنا من الرعاة الفلّاحين في التلال المقابلة.

فرح عبد الكريم الحمد، ورأى في خياله البحيرة تتّسع وتتّسع، وترفرف فوقها الطيور البيضاء.

ظلّت يده تمسك بمقبض الشبرية، فهمس له أبو حامد:

ـ لم نعد وحيدين.. أليس كذلك؟

كان عبد الكريم قد استعاد الثقة. عاد إليه اليقين، وثبت قلبه في موضعه، ورحل الخوف والقلق، وأيقن أن الفجر قادم، وأن بعد العسر يسرا، فاشتاق إلى بيته وبستانه، واشتاق لرؤية فطيمة وقاسم النايف، وأحسّ بحنين إلى

غفـوه فوق سريـره النحاسي الكبـير. وحين مضى الـوقت، وهمدت النـيران، وتحـولت إلى جمـر يعلوه الـرمـاد الأبيض شقشقت الشمس، وزقـزقت العصافير، ووقف أبو حامد على الطريق ينتظر مـرور باص (الحـدثة) ليقـطره إلى (طبرية)، قال عبد الكريم الحمد بصوت مرتفع :

- لم تجبني على سؤالي . . كم تساوي البندية الفرنسية (أم حبّة).

. . هه . . كم تساوي؟!

* * *

أطل (الباص) أخيراً يقوده أبو سمرة.

ظهـر وجهه من وراءالـزجاج الأمـامي. وجهـه الأسمـر الـذي تعلو أنفـه نظارة، ويعلو جبينه شعر أبيض ينبىء عن سنّه المتقدمة.

توقّف بمحاذاتهـما، وسلم دون أن يهبط من وراء عجلة القيادة، بينـما أطلّ الفلّاحون من النوافذ.

- هل قضيتما الليل في هذه البقعة . . سامحكما الله!

قـال ذلك، وفتـح الباب، وقفـز، ودون أن ينتظر أيّ شرح من جـانبهما. عمد إلى إخراج الحبل من الصندوق الخلفي.

كانا متعبين . . كانا في حالة يرثى لها من التعب والإرهاق.

وبعد قليل كانا داخل السيارة التي يجرّها (الباص)، وظل الفلاحون الذين يجلسون في المقاعد الخلفية يلتفتون، وينظرون إليهما من وراء الزجاج.

كانت أطراف (الباص) مزيّنة برسوم ونمنمات تشبـه تلك التي تزدان بهـا بوابات البيوت، والتي يقصد منها اتقاء شر الحاسدين.

أما العبارات التي كتبت على الزجاج، فإنها تتوجّه بالشكـر للخالق الـذي يهب النعمة لمن يشاء.

مـرّ الوقت بـطيئاً . . لكن مشت الأمـور على أحسن حـال، وأخيراً بـدت مشارف طبريا من بعيد . .

ـ ها هي طبريا . .

قال أبو حامد. ونظر عبد الكريم بجفنين ثقيلين . . ما أقرب ما أصبحت سمخ . هبّ نسيم البحيرة.البحيرة التي تعطي الرزق وتهب الحياة للإنسان والطير وحشائش البحر.

الشوارع في طبريا مزدحمة . السيارات والباعة والدراجات وعربات الخيل . الأقمشـة . الأواني الفضية والنحـاسية ، الـزجاج والبـورسلان ، المجـوهـرات والأساور والخواتم ، سوق السمك والقوارب والقطط التي تبحث عن رزقها . سرب من الحمام الأبيض يطير عـلى هيئة قـوس بمحاذاة الشـاطىء . وجوه من كل لون ، أولاد عرب ويهود وعربات بوليس إنكليزية .

توقّف الباص عند كراج (معروف) . فكّ أبـو سمرة الحبـل ، وودّعهما ، ثم صعد إلى حافلته ، ومضى بقروييه إلى وسط المدينة .

الفصل الخامس

توقّفت السيارة أمام البستان. أمـام الدار الكبـيرة التي تتوسّط البستـان في المنطقة الزراعية.

قال له أبو حامد: الحمد لله على السلامة. . وإن شاء الله أراك غـداً وأنت في أحسن حال.

نزل عبد الكـريم، ومضى أبو حـامد بسيـارته، وأقبلت من بعيـد الخادمـة (فطيمة) تحمل بين يديها حزمة من بقلة (الفـرفحينا). . اقتلعتهـا من الأرض لتوّها فهي مرشوشة بالندى.

ـ أهلاً يا عمي. . الحمد لله على سلامتك.

فطيمة ترعرعت في هذا البيت الكبير الذي كانوا يدعـونه (دار الأمـان). . جاءت من قرية (المخيبة) طفلة، وكبرت في البيت الكبير. صـارت واحدة من أفراد الأسرة.

كانت (دار الأمان) آنذاك عامرة.

الوالد يفيض بالحيوية.

والوالدة تتمتع بكامل عافيتها. .

زوجته منيرة تضيء كالشمعة.

خديجة (أم راضي) تذهب إلى المدرسة الابتدائيـة والشريط الأحمر يـطل من جديلتها.

كان البيت الكبير يعجّ بأنفاس العائلة، والضيوف، والزائرين. ولم يكن قد تعرّض للفواجع بعد.

ترعرعت فطيمة في البيت الكبير، وظلت تنادي عبد الكريم بكلمة (عمي)..

والآن، رحل الجميع، وتزوجت خديجة، ولم يبق في (دار الأمان) سواه، وسوى المقاعد الوثيرة المصنوعة من الخشب المحفور، والقماش المخملي، السجاجيد العجمية، الستائر الدمشقية، والسرير النحاسي.

وضعت (فطيمة) حزمة (الفرفحينا) على الحصيرة تحت العريشة، وأخرجت مفتاح البيت الكبير من صدرها، وقالت:

- الدار نظيفة، هذا الصباح حدّثني قلبي أنك ستأتي، فذهبت وغسلت، ومسحت، فكل شيء نظيف كقلبك الأبيض يا عمي.

وجاء زوجها قاسم النايف يحمل الجاروف على كتفه، فقد كان يسوّي قناة لجرّ الماء إلى حوض الباذنجان الذي تناثر على عروقه الزهر البنفسجيّ.

جاء يقول بصوت عال: جاءنا الخير بقدومك يا عمّي.

أحسّ عبد الكريم عند ذلك بأنه وصل فعلاً، ففطيمة وقاسم النايف هما بقايا سكان دار الأمان.. يخدمان في البيت والبستان الذي يحيط به، وينامان في غرفة ملحقة بالحديقة.

تناول المفتاح، فقالت فطيمة:

- هل تأكل من طعامنا يا عمي؟

لم يكن جائعاً. كان النعاس يثقل جفنيه.

- أريد أن أنام.

أخذ المفتاح ومشى. فتح الباب ودخل.

خبّأ النقود في الخزانة، ثم نام نوماً عميقاً.

رأى أحلاماً موحشة ومتداخلة، وعندما أفاق لم يتذكر منها شيئاً.

عندما أفاق كانت الشمس على وشك الغروب، وتناهى إلى سمعه جلبة الابقار وخوارها فعرف أن (العجّال) قد عاد من المراعي.

شرب من إبريق الفخّار، ولبس ملابس المساء. (الدمّاية الروزا) و(العباءة الشامية)، ووضع الحزام على خصره، وكذلك (الشبرية) المرصّعة، ثم خرج إلى البستان.

كانت فطيمة تقود البقرة الحلوب التي عادت مع (العجّال).. البقرة المرقّطة بالأبيض والأسود وهي تمشي وقد انتفخ ضرعها المثقل بالحليب.

جلس عبد الكريم على الحصير تحت العريشة التي تتدلّى من أطرافها قلائد البامياء، والفلفل الأحمر المجفف.

وكان قاسم النايف يعالج (الموتور) الذي يسحب الماء من البحيرة، ففي وقت الغروب يكون السقي أكثر فائدة. وعندما علا صوت المحرّك، وبدأ الماء يتدفّق في الخزّان، طارت العصافير عن الأشجار والسور، وابتعدت الدجاجات والأرانب، وجاء على الرغم من ضجيج المحرك صوت (أبو عدنان الزبادنة) يرفع عالياً أذان المغرب..

«يا مرحباً بذكر الله» قال عبد الكريم لنفسه، ثم قام فتوضأ وصلى، وبعد الصلاة جاءت فطيمة تحمل بين يديها (طاسة) الحليب.

ـ ما شاء الله!. يخزي العين الحاسدة.. الزبدة أكثر من الحليب.

تناول الطاسة. وشرب حتى ارتوى ثم أعادها. وحين انصرفت فطيمة جاء قاسم النايف يحمل الفانوس.. علّقه بطرف العريشة، ثم قرفص.

انصبّت نظراته على (الشبريّة) المرصّعة التي لا يحملها العمّ عبد الكريم إلاّ في المناسبات.

وقد لاحظ عبد الكريم ذلك، فداعبه:
- هل تعجبك الشبريّة يا قاسم؟
- أي والله يا عمّي، وخاصة هذا الحجر الأخضر الكريم.
سحبها عبد الكريم من غمدها..

يا لهذا النصل الحاد المعقوف، وهذا المقبض الذي يملأ قبضة اليد!!

قال قاسم النايف: إنها شبرية بديعة الصنع، لا بد أنهم صنعوها لك خصيصاً يا عمي.

وجاء صوت فطيمة من بعيد وهي تدعو الدجاج للمبيت، وتحمل بيدها وعاء العلف ممتلئاً.

حدث عبد الكريم نفسه وهو يعيد الشبرية إلى غمدها: «ماذا لو عرف قاسم النايف أنني أنوي شراء بارودة؟» ثم قال بصوت مرتفع:
- إذا ذهبت إلى الشام فسأشتري لك مثلها.

وبعد أن أطعمت فطيمة الدجاجات، وأغلقت عليها باب القنّ، تحوّلت إلى فرن الطابون فملأته بالوقود من العيدان وقطع الخشب، وأقراص الجلّة، وأشعلت النار، وكشفت الغطاء عن الوعاء الذي اختمر فيه العجين، وفاحت رائحته الطيّبة.

قالت وهي تتربّع على الحصير مخاطبة زوجها:
- هل ذكرت للعمّ عبد الكريم أن «راضي» سأل عنه وهو نائم؟
ضرب قاسم النايف كفّاً بكفّ، وقال على الفور:

- الله يخزي الشيطان.. نسيت أن أقول لك يا عمي إن راضي وخالد الزهر جاءا يسألان عنك عندما كنت نائماً، والحاج حسين ينتظرك هذه الليلة في المضافة.

كانت النيران في فرن الطابون تتّقد وتتوهّج، وتنعكس على وجه فطيمة، فيبدو لخدّيها لون التفاح.

قال عبد الكريم: أسرج لي المهرة يا قاسم.

وقف قاسم النايف وقال قبل أن يذهب إلى الحظيرة في الطرف الآخر من البستان:

ـ أمس ذهب الرعاة إلى أرض الحاج حسين في (أم المصاري).. إنه موسم جمع الخيرات.

شرد ذهن عبد الكريم، لقد اقترب موعد الحصاد في البقاع المنخفضة في هذه الأغوار. امتلأت السنابل بالحبوب، وفي أم المصاري هجم الصيف فجأة، لكن ما زال الوقت مبكراً.. الحاج حسين نيّته طيّبة، ويعطيه الله حسب نيّته. أرضه الواسعة معطاء.. يأكل من خيرها الطير وعابر السبيل.

أيام الحصاد تأتيه (العونة) من كل الفلاّحين..

يأتي من يحصد، ومن يجمع الغمار، ومن يرجد إلى البيادر، ومن وراء الحصادين يلتقط الفقراء السنابل التي تسقط من الغمّارين أو تلك التي تنجو من منجل الحصاد. ومن وراء الحصادين والغمارين واللقاطين تأتي الدواب فتمتلىء الضروع حتى لتكاد تتشقّق..

كان عبد الكريم يفكر في أشياء أخرى غير ديونه التي بالغ في المطالبة بها، وألحّ في السعي لتحصيلها.

كان يرغب في أن يفتح ذراعيه، ويحتضن شيئاً ما في القرية. بعد تلك الليلة المرعبة التي عاشها بعيداً عن هذه الدار.

فاحت رائحة الخبز الذي ينضج في الطابون فاشتهت نفسه كسرة، ولعل فطيمة قرأت خواطره إذ رأته ينظر نحوها، فقامت وحملت له رغيفاً خرج للتوّ يتصاعد منه الدخان.

أكله بلذة، وكاد يطلب رغيفاً آخر. . إلاّ أن قاسم النايف عـاد يقود زمـام المهرة الشقراء التي يتباهى بها في الأعياد وأيام الجمعـة، وعندمـا يشدّ الخيّـالة الركاب إلى (الشفا). .

كانت المهرة قد ظلّت تأكـل طوال النهـار التبن والكرسنّـة. ولذلـك ظلت مشدودة القوائم، نافرة العنق، لها هيئة غزالة. وقف عبد الكريم. ربّت على جيدها، ثم قفز قفزة واحدة، فإذا به على ظهرها.

شدّ اللجام ثـم أرخى لها الحبل، وتركها تنقـل خطواتهـا مثلما تشاء كمهـرة أصيلة.

عـبر الطريق الـزراعية، ثم حـاذى سكة الحـديد، ومـرّ من أمام مـطحنـة تادرس، وبيت اللنش، ومرّ من أزقة خاوية. وصل إلى منزل الحاج حسين فانفتح باب (الخوخة)، وأطل من ورائه خالد الزهر الذي أسرع وأمسك لجام المهرة، وقال:

ـ ذهب الحاج حسين إلى اللجنة القومية ولن يتأخر.

كان عبد الكريم يعرف أنه جاء قبل موعد السهرة، لذلك ترك خالد الزهر يـرعى شؤون المهرة، ودخـل حوش الـدار حيث كـان الـذيب يبسط ذراعيـه ويغفو، وحالما أحسّ بخطواته وقف وانسحب من الطريق.

وأطلّ راضي من نافذة (العليّة)، وحالما رآه هتف:

ـ خالي عبد الكريم. . أهلاً.

قال ذلك ثم استدار هابطاً الدرجـات، وأسرع إليه معـانقاً. «هـذا الولـد قطعة من روحي» حدّث عبد الكريم نفسه. فتح راضي باب المضافة، أشعل ضوء الكهرباء وأدخل خاله.

كانت المضافة تعبق برائحـة البخور، ورائحـة البنّ والهال، وكـان الماء في (الخابية) ممزوجا بماء الزهر وأوراق الليمون.

كـل شيء مرتّب. المسـانـد والفـراش. وفي الـزاويـة الجـرن والمهبـاش و(المحمصة)، وأباريق النحاس العربية.

جلس عبد الكريم في المكان الذي يليق به. لقد مرّت فترة طـويلة دون أن يتردد ويحتسي القهوة المرّة الممزوجة بالهال أو بالزنجبيل.

جلس، بـل اتكأ. وجلس قبـالته راضي يتـأمّـل ثيـابـه التي قلما يلبسهـا، ويتأمل الشبريّة التي يضعها على جنبه. هبطت خديجة (أم راضي) من العليّة. أنبأ عن ذلك صوت قبقابها الخشبيّ على بلاط الدرجات.

وأطلت من البـاب بثوبهـا ذي الأكمام الـطويلة، وغـطاء رأسهـا الأبيض. وقفت في الباب ولم تدخل.

ـ الحمد لله على سلامتك يا أخي.

قام عبد الكـريم، وسلّم عليها. كـبرت خديجة الطفلة، وأصبحت أمّـاً، وكبر حنوّها أيضاً.

عـاد إلى مجلسه، وظلّت خـديجة بـالباب، لا تستـطيـع أن تـدخـل، فمن يدري.. قد يعود الرجال فجأة، وليس من اللائق أن تدخـل النساء مجـالس الرجال.

ـ صبّ القهوة لخالك يا ولد.

قـام راضي وصبّ القهـوة حسب الأصـول. صبّ شيئـاً من القهـوة في الفنجان فغسله وألقى ما به في الخارج، ثم صبّ فنجاناً آخـر ليتذوّق طعمـه وحرارته ويتأكد أن كل شيء على ما يرام، ثمّ صبّ الفنجان الثالث لخاله.

أخرجت خديجة من جيب ثوبها صرّة نقود:

ـ فتح راضي الدكان أمس واليوم وباع بيعاً خفيفاً.

أمسك عبد الكـريم بصرّة النقود وشكـرها. وفكّـر بالمبـالغ التي استطاع

تحصيلها وأحسّ بالطمأنينة، ففي هذه الأيام من المستحسن أن تكون مع المرء نقود باليد.. من يدري ماذا تخبىء الأيام؟

استأذنت خديجة إذ سمعت بكاء الصغير ماهر.

عادت إلى بيتها في الطابق الأول، وظل الولد والخال يتحدّثان. عبد الكريم يسأل، وراضي يجيب. راضي يتحدث كرجل يريد أن يكبر قبل الأوان.

أمس سهرنا حتى الفجر.. كنّا في وداع الحصّادين والرعاة، عمّتي حفيظة ذهبت إلى عزبة الدوير..

عبد الكريم يقلب الأمر، ويتخيّل أكياس القمح وجرار السمن، وأكوام الصوف.. ولكن هل سيجد الناس الهدوء وراحة البال حتى نهاية موسم الحصاد؟

ـ هذه (الشبريّة) لائقة عليك يا خالي.

إنها شبرية قديمة، ورثها عن رحمة الوالد. أهملها فترة طويلة في الخزانة فتغيّر لون الفضّة على مقبضها وغمدها، وعندما أخرجها من الخزانة وقرّر أن يحملها للزينة والمباهاة، أرسلها إلى دكان أسعد الخنجر الذي لمّعها، ومسح حجرها الأخضر الكريم، وجعله لامعاً كالنجمة في السماء.

وفكر عبد الكريم من جديد: «وماذا لو عرف ابن أختي أنني أنوي شراء بارودة؟».

في تلك اللحظة حدث هرج ومرج في الخارج. لقد عاد الحاج حسين ومعه ضيوفه. كانوا يتحدّثون بأصوات عالية. أقبل الحاج يسبقه عكازه، ووراءه كان الآخرون.. هبّ عبد الكريم واقفاً وسلّم على الحاج والشيخ مصطفى السنوسي والشركسي وأبو صوّا والترعاني وسليم العيد ومنصور بائع التذاكر

في المحطة، ورجل غريب بملابس عسكرية. كانت بارودة طويلة معلّقة على كتف الحاج حسين.

ـ هذا نسيبنا عبد الكريم.

قال الحاج ذلك وأتم كلامه مشيراً إلى الضابط:

ـ وهذا هو أحمد بيك الرئيس في جيش الإنقاذ.

كان يرتسم على الوجوه وجوم بعد اجتماع طويل في مبنى اللجنة القومية. ماذا وراء هذا الوجوم؟. اللهم استر.

جلسوا، وأقبل خالد الزهر فدار عليهم بفناجين القهوة، ولم يستطع عبد الكريم إبعاد نظراته عن هذه البارودة التي نقلها الحاج حسين من كتفه إلى حجره.

همس راضي لخاله، وأشار إلى أحمد بيك.

كان راضي يرغب في معرفة أخبار الدرع، السترة الواقية من الرصاص ذات اللون الكحلي، وأثار حب الاستطلاع مخيّلة عبد الكريم، غير أنه لم يجد الفرصة المناسبة.

كان الرجال قد تكلّموا طويلاً في اجتماعهم على هجوم يهوديّ متوقّع على القرية، وأعادوا الكرّة مرة أخرى في المضافة. لقد انفضّ الاجتماع بعد استنهاض همم المخاتير ووجوه البلد والشبّان الذين يمتلكون البنادق والمسدّسات.

وأما أحمد بيك الذي جاء هذه المرة بسيارته العسكرية، وبصحبة حارسين من عسكره بناء على طلب من اللجنة القومية للبلدة، فقد نصح الحاضرين بإرسال وفد منهم لمقابلة القائد (يقصد القاوقجي) في مقرّه بقرية جبع.

قال الحاج: ـ الوقت يدركنا يا أحمد بيك، ومن يدري ماذا يحدث بين عشيّة وضحاها؟

نظر أحمد بيك إلى ساعته، ثم وقف وشدّ قامته، وأعلن أنه مضطّر للعودة.

- لم نتلقّ منكم جواباً يا أحمد بيك.

شدّ قامته جيداً، وكرّر أنه يتعيّن عليه أن يعود إلى بيسان لأن الأوضاع خطيرة.. كان يضغط عليهم بطريقة أو بأخرى ليرسلوا وفداً لمقابلة القائد في جبع.

تسلّل الخوف إلى أعماق عبد الكريم، وتشبّثت نظرات الرجال الجالسين في المضافة بوجه أحمد بيك. تكلم سليم العيد. تكلم الشيخ مصطفى، تكلم منصور. قالوا كلاماً مشابهاً لما قاله الحاج حسين. وكان راضي يتململ. كان يودّ لو يؤذن له بالكلام ليسأل عن أمرين: الدرع، ونجيب الذي تطوّع في جيش الإنقاذ.

هزّ أحمد بيك رأسه:

- حسناً. حالما أصل إلى موقعي سأبعث بإشارة إلى القائد أعلمه فيها بحقيقة الأوضاع في سمخ.

- نريد سلاحاً يا أحمد بيك.

- سأبعث بالإشارة على كل حال.

كان هذا آخر ما لديه من كلمات، وبعدها مشى، وقام الحاج حسين يرافقه حتى الباب الخارجي ثم عاد وهو متجهّم الوجه.

همس راضي لخاله بضع كلمات عندما قدم خالد الزهر القهوة مرة أخرى، فأوجس قلبه خيفة.

بدأ الرجال ينصرفون، والحاج حسين يوصي باليقظة والانتباه، ولم يبق سوى الشركسي الذي يكون عادة آخر من يغادر. أدركه النعاس، فتمدّد على الفرشة وأغمض عينيه.

التفت الحاج حسين إلى صهره عبد الكريم، وقال بجدّيّة:

- اسمع يا عبد الكريم، عليك أن تنام عندنا هذه الليلة، فبيتك معزول في المنطقة الزراعية المحاذية لليهود.. هل تفهمني؟

غاص قلب عبد الكريم. هجم عليه الخوف من جديد. أطلّت في مخيلته مخالب الضباع وأحسّ بكتل الظلام تقترب. ثم كرّر الحاج كلامه:

- بيتك في الأطراف، وقد نبّهنا كل السكان الذين يعيشون في أماكن منعزلة بأخذ الحيطة والحذر أو الانتقال إلى بيوت ذويهم وأصدقائهم داخل البلدة.. إننا نتوقع هجوماً يهودياً.. هل تفهمني؟

قال الحاج حسين ذلك ثم علق البندقية بكتفه وخرج. نظر راضي إلى خاله وقد لاحظ الشحوب والتغير الذي طرأ على ملامحه، فداعبه قائلاً:

- إنها فرصة يا خالي كي تنام عندنا.. سأقرأ لك السيرة الهلالية.

نظر عبد الكريم إلى الفتى وابتسم على الرغم منه.

عندها وقف راضي وعمد إلى خزانة الحائط وأحضر قصة (عنترة العبسي).

- هل أقرأ لك سيرة عنترة؟

كان عبد الكريم شارد الذهن، فقال:

- لنؤجّل ذلك إلى وقت آخر.

تململ الشركسي ثم فتح عينيه، ورفع رأسه. وإذ لاحظ أن القوم قد غادروا فقد سوّى ثيابه وطلب فنجان قهوة.

قام راضي وصبّ له القهوة، وبعد أن أفرغ الفنجان في جوفه على دفعتين وجّه الحديث إلى عبد الكريم الحمد:

- هل حصّلت ديونك من عرب الصبيح؟

كـان عبد الكـريم زاهداً في الحـديث، كان يفكـر في المصائب التي تختفي وراء الأبواب المرصدة.

وفجأة جاء أزيز طائرة من تلك الطائرات البرمـائية التي تـأتي إلى معسكر قوّة الحدود.

جاء صوتها من بعيد، وظلّ يعلو وهي تقترب، حتى خيّـل إليه أنها ستحطّ بعد حين فوق المضافة تماماً. قال راضي:

ـ إنها المرة الأولى التي تأتي فيها الطائرة في مثل هذا الوقت المتأخر.

هزّ الشركسي رأسه وقال: خير إن شاء الله.. خير.

ومرة أخرى عاد الحاج حسين، عاد يسبقـه صوت عكـازه، فدخـل وهو يعلّق البارودة على كتفه.. لقد اشتراها قبل أسبوعـين من جبل العـرب، وها هو يبدو مزهوّاً بحملها. وحالما جلس بدأ يتكلم.

ـ الإنجليز بدأوا يرحلون.. هذه الليلة سيخلون مركز البوليس.

وانحنى فصبّ لنفسه فنجان قهوة، فتدخّل الشركسي في الكلام قائلاً:

: ـ وسيحاول اليهود الوصول إلى المركز قبلنا.

إذن فالتكهنات تستند إلى أساس.

وقف عبد الكريم فجأة وقال:

ـ سأعود إلى بيتي يا حاج..

تشبّث راضي بذراع خاله، كان عبد الكريم قد فكّر في البيت الكبير وفكر في فطيمة وقاسم النايف..

ـ بيتك قريب من (أوفكيم) يا خالي.. ومن يدري..

قاطعه الحاج: ـ اسمع يـا راضي.. خالـك يستطيـع أن يعرف مصلحتـه ويقرر، فلنترك له حرية التصرف.

خرج عبد الكريم. خرج مثقلاً بالهموم، كانت المهرة مربوطة بجانب الباب الكبير. اعتلى ظهرها وحثّها على العدو عبر الأزقة، وفي الخلاء صارت تسابق الريح.

هبت رائحة البحيرة. الرائحة هذه المرة مختلفة. رائحة حشائش ميتة. رائحة دخان. رائحة أرض يفور في أعماقها كبريت. . ظلت رائحة الليلة الماضية تزكم أنفه، وظلّت تهب على مخيّلته حركة الضباع، ودبيب الخطر، وهبوب الرياح المذعورة.

يحس عبد الكريم برجفة في هذا الصمت الذي يملأ شقوق العتمة إذ ليس ثمة سوى وقع الحوافر على التراب، وأنفاس المهرة المتلاحقة.

عندما وصل كان قاسم النايف ينتظر. يحمل الفانوس وينتظر. كان يجهل الأخبار، ولذلك فإنه يتدثر بالطمأنينة وينتظر.

هبط عبد الكريم فتناول رسن المهرة، ومشى إلى الحظيرة، ومشى معه الفانوس، وحشرة (القديحة) التي تتطاير حول الضوء.

وفي منتصف المسافة كانت فطيمة تقف حاملة فانوساً آخر.

ـ هل أطيّب لك العشاء يا عمي؟

قالت فطيمة بصوت غزاله لم يفزعها صيّاد.

ـ لا . . لست جائعاً.

واصل قاسم النايف طريقه نحو الحظيرة، وانعطف عبد الكريم إلى الدار. أضاءت فطيمة له الطريق بالفانوس الذي رفعته فوق رأسها. فتح الباب، ودخلت وراءه، فأضاءت القنديل الذي يشبه الشمعدان. وقالت قبل أن تنصرف:

ـ تصبح على خير يا عمي.

غمغم عبد الكريم بكلمات ما، وبعد أن خرجت أغلق الباب وخلع العباءة.

وقف في منتصف الصالة الكبيرة يفكّر. لم يكن قد حدّد ما يتعينّ عليه أن يفعل، لكنه تصرّف بالغريزة، فأسرع إلى الخزانة، وأخرج النقود المخبأة في (الجارور). لفّها بكيس من النايلون، وطواها بقطعة قماش، وخرج إلى البستان وبدأ يحفر بالرفش.

جاء قاسم النايف يحمل فانوسه:

ـ ماذا تفعل يا عمي.. هل أساعدك؟

ـ صه.. لا تقل شيئاً.. انتظر.

انتظر قاسم النايف، وشاهد العم عبد الكريم يحفر حفرة، ويضع الصرّة التي بين يديه بداخلها، ثم يسوّي التراب فوقها وبعد ذلك يتوقّف وهو يلهث:

ـ اسمع يا قاسم النايف إذا حصل لي مكروه فاعلم أنني خبّأت في هذا المكان كل ما أملك من نقود.

قال ذلك، واستدار عائداً إلى البيت.

ـ هل أنت بخير يا عمي؟

ـ بخير طبعاً.. بخير.

كانت فطيمة قد أوت إلى فراشها، وكان قاسم النايف يشعر بالنعاس، وبالرغبة في أن يندسّ إلى جانبها قبل أن يستغرقها النوم.

ـ هل تحتاج إلى شيء يا عمي؟

كان عبد الكريم الذي كبرت مخاوفه يعرف أن قاسم النايف يسأل سؤاله الأخير قبل أن يأوي إلى فراشه، فماذا يقول له؟ هل يصارحه بحقيقة الأمر، ويزرع الخوف في قلبه؟ ربما تمرّ الليلة على خير دون أن يحدث الهجوم.. فلماذا

يخيفه؟ ليس في الدار والبستان بارودة، وليس ثمة سوى عصا غليظة يحملها قاسم النايف ويتسلّح بها لمواجهة الثعالب واللصوص، لو كان في دار الأمان بارودة لدخلت رحابها الطمأنينة!!

ظل قاسم النايف واقفاً وإن كان حاضر الجسم غائب الذهن. ظل واقفاً، فقال له عبد الكريم بعد صمت قصير:

ـ عليك أن تظل يقظاً هذه الليلة، فمن الممكن أن يسطو علينا اللصوص، ولا تَنْسَ أن تحلّ الكلاب وتطلقها في البستان.

ضحك قاسم النايف، ولم يدخل قلبه الخوف. قاسم النايف عاش حياته مع العتمة والظلام والبراري وتحوّل قلبه الجريء إلى قطعة من الصخر.. فكيف يخاف من اللصوص؟!

ـ اطمئنّ يا عمّي.. تصبح على خير.

استدار، ومضى بفانوسه، ومضت معه حشرات (القديحة) التي تطير حول الضوء.

أغلق عبد الكريم الباب جيّداً، واستدار فشاهد نفسه على مرآة الخزانة المفتوحة. كان بعض التراب قد علق بثوبه، وكانت (الشبريّة) ما تزال معلّقة بحزامه، نفض الغبار عنه وقال: «آه لو كان هناك بارودة!!».

تمدّد على السرير النحاسيّ الواسع فهاجمته الوساوس، وساوس الليلة الماضية، ووساوس الشهور الأخيرة. لم يستطع النوم فكأنه يتمدّد على شوك.

حاصره القلق. اشتعل القلق في أطرافه كالحريق. كأن اللهب يندلع ولا من منقذ.

وفكر ذات لحظة بالرحيل، بالهروب إلى القرية مع قاسم النايف وفطيمة. لكنه لم يستسغ الفكرة في لحظة تالية. ظلّ يقلّب الأمور في رأسه، ويتصنّت

لكل نأمة في الخارج. لكل اهتزازة شجرة، وللنافذة التي يحرّكها الهواء، لنباح كلب يأتي من البعيد، لصوت بابور البحر من جهة طبريا. ظل يتنصّت ويتقلّب ذات اليمين وذات الشمال، وقد أعياه التفكير والتعب، فحاول عبثاً أن ينام.

وفجأة سُمع دويّ انفجار. قنبلة سقطت في مكان ما من القرية، وتبعها دويّ آخر اهتزّت له النوافذ. وأعقب ذلك إطلاق نار غزير. . .

إنه الاشتباك، وقد وقعت الواقعة.

حاول أن يخمّن بالحدس المكان الذي تدور فيه المعركة، وعلى حين غرّة طَرق الباب، فانقبض قلبه وقال بذعر:

ـ من هناك؟ قالت فطيمة من الخارج بصوت يشبه البكاء:

ـ أنا يا عمّي.

وقف. كان ما يزال بملابسه والشبرية على جنبه، وضوء المصباح يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن نفد الزيت.

فتح الباب، فدخلت فطيمة وهي ترتجف:

ـ هل سمعت صوت الطخّ يا عميّ؟

انتقل الخوف إليه بالعدوى، لكنه حاول أن يتماسك.

ـ الطخّ بعيد يا فطيمة، لا تخافي. .

كانت ترتجف، فسألها: وأين قاسم؟

ـ لا أدري. . حمل العصا وخرج. . ربما ذهب إلى الحظيرة أو إلى أطراف البستان.

ـ حسناً. . أجلسي يا فطيمة.

ظلت شعلة المصباح تتشبّث بالبقاء، وتطلق دخاناً أسود.

ـ أجلسي يا فطيمة. . ارتاحي.

ـ سأضع الزيت في المصباح.

قالت ذلك وحملت المصباح، وذهبت إلى المطبخ.

عمّ الغرفة ظلام موحش، ولم يعد يرى شيئاً فيما تواصل إطلاق الرصاص هناك.. بعيداً. وحاول مرة أخرى أن يحدّد بخياله المكان الذي يدور فيه الاشتباك، وقدّر في ضوء الكلام الذي قيل في المضافة أن اليهود يحاولون التقدّم لاحتلال مركز البوليس الذي أخلاه الإنكليز..

عادت بعد قليل تحمل المصباح بيد مرتعشة، فملأ الضوء الغرفة وملأها ما يشبه الطمأنينة أيضاً. وضعت المصباح في المكان المخصّص له، ثم تربّعت على البساط.

واستطاع الآن أن يرى شعرها الأشعث، وثوبها الأسود الذي لبسته بالمقلوب لشدّة الارتباك. جلس على الكرسي، ووجد يده ـ بحركة لا شعورية ـ تحطّ على مقبض الشبرية، فأمدّه ذلك بشيء من الثقة. وجاء من وراء النافذة صوت قاسم النايف:

ـ افتح يا عمي..

هبت فطيمة وفتحت الباب، ونظرت إلى زوجها بلهفة، وسألته بارتباك:

ـ ماذا شاهدت يا قاسم؟. هل هم بعيدون عنا.. قل.. لماذا لا تتكلم؟

دخل قاسم، ودخلت معه العصا الغليظة التي يحملها بيمينه والفانوس الذي يحمله بيساره..

ـ اسمعي يا امرأة.. الطخّ بعيد عنا.. واليهود يهجمون على البلدة.

لم يقل عبد الكريم شيئاً، وأعقب ذلك صمت.

طال الصمت، فقطعه قاسم النايف قائلاً:

ـ قومي يا فطيمة واعملي لنا برّاد شاي بعد إذن عمّنا.

قامت فطيمة حاملة الفانوس. ظلّت الكلاب تنبح في أطراف البستان.

كان نباحاً مختلفاً عن أيّ نباح سمعه من قبل، لذلك توتّرت أعصابه . . توتّرت للغاية!

ـ وماذا لو نجح اليهود في هجومهم يا عمّي . . ماذا سيفعلون بنا؟

أجابه بعصبيّة: ـ إسمع يا قاسم . . الله يهديك، ليس الوقت وقت كلام فارغ .

سكت قاسم النايف . خنق الأسئلة الكثيرة التي كان سيطرحها، وعندما عادت فطيمة سارع إلى صبّ الشاي في الكاسات .

شربوا الشاي بصمتٍ، وبعد ساعة، كاد إطلاق النار يتوقّف . ولم يعد يسمع سوى أصوات طلقات متفرقة .

وبدأت الكلاب تهدأ، وخفّ نباحها .

ولم يتمالك قاسم النايف نفسه فقال وهو يهمّ بالخروج :

ـ ألم أقل لكم . . لقد استطاع جماعتنا ردّهم .

ـ إلى أين يا قاسم؟

سألته فطيمة، فأجابها وهو يخرج على عجل :

ـ سأذهب إلى البساتين المجاورة . . ربما استطيع الحصول على بعض الأخبار .

وبعد ذهابه عمّ الصمت . .

أسند عبد الكريم ظهره إلى الكرسي وحدّق بالسقف .

فيما ظلت فطيمة تجلس على البساط وهي تضع يدها على خدّها وتستغرق في التفكير .

وفجأة بدأت تتناهى إلى أسماعها أصوات متفرقة . . حركة ما قادمة من بعيد . . من وراء الزرع والشوك والهشير، فتسلل الذعر، وأخذت الكلاب تنبح من جديد .

: ـ ما هذا . . هل تسمع يا عمي؟
قال بصوت لا يشبه صوته :
ـ أطمئني يا فطيمة . . أطمئني .
كان صوته مذعوراً، لذلك لم تطمئن فطيمة، بل وقفت وأسرعت إلى النافذة .

: ـ هل ترين شيئاً؟
استنجد بها، وظلّ يترقّب .

وراء النافذة كانت العتمة، ولا شيء غير العتمة . لذلك استدارت فطيمة قائلة :

ـ اختبىء يا عمي . . أنا خائفة على نفسي، وخائفة عليك، وخائفة على قاسم .

اقتربت الأصوات أكثر فأكثر حتى لكأنها وراء النافذة . وعند ذلك استطاع أن يميّز الأصوات والكلام . . إنهم أولاد عرب . . إنهم جماعتنا .

قالت فطيمة : ـ هل تسمع يا عمي . . إنهم أولاد بلدنا؟

وهذه المرة عبر الضوء من وراء النافذة . إنه فانوس قاسم النايف .

فتحت فطيمة الباب فدخل قاسم وفانوسه وهو يضحك .

ـ لقد خسر اليهود المعركة وجماعتنا يلاحقون فلولهم .

قال ذلك، بينما بدأت الحركة تبتعد .

ـ إنهم يفتّشون عن اليهود الذين انسحبوا عبر الطريق الزراعية إلى مستعمرة (الملاّحة) .

ثم عاد الهدوء، وعمّ الصمت من جديد، وتوقّف نباح الكلاب . تسلّلت الطمأنينة بحذر . قال قاسم :

ـ قال لي الرجال الذين مرّوا من هنا إنهم أوقعوا باليهود خسائر كبيرة، الأمر الذي اضطر اليهود إلى التقهقر، وراح كل واحد منهم يبحث عن طريق للنجاة.

قرأ عبد الكريم في سرّه سورة الفاتحة، ثم مسح وجهه بكفّيه. أخذت فطيمة تتثاءب، فقال لها قاسم:

ـ هيا نذهب للنوم. . وأنت يا عمي يبدو عليك التعب.

قامت فطيمة بتثاقل:

ـ تصبح على خير يا عمّي.

خرجت، فتبعها قاسم النايف يحمل الفانوس.

ظل عبد الكريم وحيداً، وظلّ يحدّق بالنافذة حتى الهزيع الأخير من الليل.

وعندما جاء صوت الشيخ (أبو حوّا) يرفع عالياً أذان الصبح بصوته الرخيم، غلبه النعاس، فقام ودخل غرفته، وتمدّد على السرير النحاسي الواسع.

فجأة سمع صوت طلقة نارية. طلقة واحدة. . تبعها صرخة جاءت من الخارج فشقّت قلبه نصفين. صرخة بشرية تستغيث، فأحسّ كأن الأرض قد مسّها زلزال.

كاد يفقد توازنه، لكنه تماسك.

كانت الصرخة معبّأة بأعلى درجات الرعب.

من أين أتته الجرأة؟

قفز فإذا به عند الباب، وبينما هو يركض باتجاه الصوت أدرك أنها صرخة فطيمة. أدرك أن الصوت صوتها، وأدرك أنّ عليه أن يقوم بعمل ما

لأنّ ثمة خطراً يتهدّد حياتها. وأدرك وهو يندفع أن (الشـبرية) مـا تزال معلّقة بـالحزام عنـد خصره، وفي هذا الفضـاء، قبـل شروق الشمس، شمّ رائحـة العشب والندى والرعب في آن واحد. وسمع نباح الكلاب المربوطة.

وبينما هو في منتصف المسافة انبجست صرخة أخرى، انبجست كأنها خارجة من أعماق الأرض، وارتفع نباح الكلاب التي تحاول عبثاً الإفلات من سلاسلها.

قفز قفزتينْ فإذا به وجهاً لوجه مع الحادث.

قـاسم النايف يتمـدّد على الأرض. وفـطيمة تلتصق بجـدار، وفي الجانب الآخر يهوديّ بالملابس العسكـرية يصـوّب سلاحـه. رائحة بـارود، وفطيمـة تلتصق بالجدار وتستغيث، والجندي اليهودي يصوّب سلاحه ولا يتحرك.

قاسم النايف بلا حراك، ملطّخ بالدم.
وجّه له الجندي سلاحه.
لم يخف عبد الكريم.

استيقظت في أعماقـه غريـزة الدفـاع.. وقعت يده عـلى مقبض الشبريّـة، فسحبها من غمدها، ورفع يده عالياً.

نـظر إليه اليهـودي بفزع وربمـا بغضب، وضغط على الـزنـاد.. لم تخـرج الطلقة.. لقد نفدت ذخيرته.

قفز عبد الكريم قفزة واحدة.. قفزة واسعة. وهوى نصل (الشبرية) الحادّ على صدر الجندي فسقطت منه البندقية.. سال الدم.. ترنـح.. ثم هوى على الأرض.

الفصل السادس

من أوراق عبد الرحمن العراقي

رحل الشتاء وأقبل الربيع . .

خفّت حدّة البرد، وبدأ الدفء يتسلل .

في الأسبوع الأخير من آذار جرت تنقلات في الأفواج . انتقل (أسد الشهباء) إلى مقر القيادة في (جبع)، وبقينا في معسكر لا يبعد كثيراً عن مدينة بيسان .

أخذ نجيب يتشوّق إلى قريته، ويمنّي النفس بزيارتها في أول إجازة يحصل عليها . .

«الحقيقة أن كثيراً من الأشياء العاديّة تصبح غير عادية كلما ابتعدت عنها . .» .

كان أحمد بيك قائد السرّية يغيب ويغيب ولا نكاد نراه إلّا عن طريق الصدفة .

وفي تلك الأيام كانت المعارك على أشدّها في يافا وحيفا ومنطقة القدس والجليل .

ظلّت الهمسات والشائعات تؤكّد أننا سنشارك في هجوم كبير يحسم معارك المنطقة الوسطى .

وفي أوقات الفراغ كنّا نتجول في السهل القريب، ونخالط الفلاحين

الذين يعملون في الأرض، نأكل معهم خبز الشعير، ونشرب اللبن، ونستمع إلى مشاكلهم وهمومهم، ونستمع إلى قلقهم، فبعد قرار التقسيم، وإعلان الإنكليز عن موعد رحيلهم كبرت المخاوف، ولم تفلح كل التصريحات في البلدان العربية في طمأنة الأهالي.

أمضيت الوقت في كتابة الرسائل الشخصية لوالدتي ولصديقي كاظم الذي يدرس في دار المعلمين العليا ببغداد، وكتبت بعض الخواطر والانطباعات، واحتفظت بها في حقيبتي.

وبين حين وآخر كان نجيب يأتي فيجدني أكتب.. يخطر بباله أنني أكتب رسالة إلى امرأة.. لا عجب، ففي هذه البراري، وفي هذه الظروف تزداد حاجة الجندي إلى العاطفة. يلحّ في أعماقه النداء إلى الجنس الآخر.

بعد أسد الشهباء، جاء دور نجيب الذي استيقظت في أعماقه حالة عاطفية، حالة حنين لمطلّقته بدريّة.

كان حبّه الجديد لها مزيجاً من الندم والحنين.

- ما دمت تحبّها كل هذا الحب.. فلماذا طلّقتها؟

سألته في لحظة تأجّج فيها شوقه، وفقد القدرة على النوم، ففكر ملياً وقال:

- لم يكن أيّ منا يكره الآخر، لكن الظروف كانت قاسية.

هكذا إذن يجد المرء تبريراً ما، ولا يمتلك الجرأة على لوم نفسه.

مهما يكن من أمر فقد رحل شتاء وأقبل ربيع. رحل شتاء قاس عانينا فيه من شدة البرد، وسوء التغذية، ونقص في الملابس الصوفية، وشحّ في الذخيرة والعتاد.

كان أحمد بيك يلقي باللوم على القيادة دمشق، فهي تعد ولا تفي. وشيئاً

فشيئاً تعوّدنا هذا النوع من التسويف، وتعايشنا مع المماطلة، ولم يعد أمامنا سوى الصبر والتحمّل.

عاد أحمد بيك إلى الموقع فجأة، وأعلن حالة الاستنفار.

لقد عاد من جبع بعد أن حضر اجتماعاً ترأسّه القائد.

دبّت في المعسكر حالة نشاط غير معهودة. تنظيف الأسلحة يومياً. تفقّد السيارات. فحص الزيت. فحص المحرك. التأكد من الفرامل. تفقد حقائب الإسعافات الأولية، ثمّ تخصيص يوم للرماية.

أطلق كل جندي ثلاث طلقات بالبارودة.

وأطلق طاقم الرماة قذيفة من مدفع عيار ٧٥ مم، وقذيفة أخرى من مدفع عيار ١٠٥ مم.

جاءت فجأة شاحنات زوّدت السريّة بمزيد من التموين، وصناديق معبّأة بالملابس والتجهيزات الأخرى..

ـ إنها المعركة الفاصلة.

قال نجيب عندما جاء ذات صباح، وأردف:

ـ تعبنا من الانتظار.

وبعد الإفطار غيّر مجرى الحديث. وبدأ يحكي عن أحلامه.

حكى عن المنام الذي رآه في أحلامه. ومن الطبيعي أن تكون بدرّية هي موضوع المنام، فقد سبق أن قصّ عليّ الحلم نفسه مرات كثيرة، ولكنه في كل مرّة يضيف شيئاً جديداً.

وهذه المرة أضاف إضافات وضعت الحلم في إطار التفاؤل الواسع، والبهجة المفرحة.

«رأى فيما يرى النائم أنه يركب مهرة تشبه البراق، فهي تطير في السماء

بأجنحة. قال لها: طيري يا مباركة إلى سمسخ، فطارت به المباركة وقطعت الجبال والوديان والسهول.

وعندما أطلّت البحيرة ضحك ورفرفت المهرة بجناحيها. وقال لها من جديد: انزليني يا مباركة أمام بيت بدريّة شريطة أن أراها ولا تراني..».

«هبطت بي من الفضاء وحطّت أمام بيت الحاجّة كلثوم (أم بدرية).. وكانت عمتي الحاجّة في تلك اللحظات تصلّي صلاة الفجر وقد تدلّت من رقبتها مسبحة يسر بها تسع وتسعون حبّة.

أما ابنتها بدريّة فقد كانت تسقي أصص الزهور وتملأ رئتيها بهواء الفجر الصادق.

«اقتربت منها، وهتفت بصوت عال: بدريّة.. بدريّة.. هل تسمعيني؟ التفتتْ إلى مصدر الصوت لكنها لم ترني لأنني كنت قد تمنيت على المهرة المباركة أن أرى بدرية ولا تراني.

«توقّفت بدريّة أمام شجرة صغيرة خضراء مزروعة أمام المنزل، فهتفت بها: ماذا تفعلين يا بدريّة؟

«أشارت إلى الشجرة الخضراء، وقالت: اسقي هذه الشجرة التي نسمّيها (مكنسة الجنّة).

وعند ذلك طلبت من المباركة أن تميط الحجاب عن ناظري بدريّة فأراها وتراني، ولكن المباركة قالت: لا يمكنك أن تتمنّى في المرة الواحدة إلاّ أمنية واحدة.

فهتفت عندها: يا بدريّة هل تعودين إلى عصمتي؟

غير أنّ بدريّة لم تجب، ولكنها مدّت يدها ولامست أوراق (مكنسة الجنة) فامتلأ الجو برائحة العطر والطيب..

ثم فتحت عيني، ويا ليتني ظللت في الحلم مدة أطول. .

قال نجيب ذلك، وهو يشيع داخل نفسه المسرّة، ويشيع حوله هالة من الفرح الطفولي.

وتجرأ من بعد وطلب مني أن أكتب لها رسالة باسمه، وتمنى عليّ أن تكون الرسالة بليغة مؤثّرة.

ـ وهل ستقبل أن تعود إلى عصمتك؟

ابتسم نجيب وقال: ألم أقل لك إنها لامست شجرة مكنسة الجنة؟ إن هذه علامة الرضا.

ـ ولكن ذلك كان في الحلم. .

ففكر قليلاً وأجاب: على كل حال، البركة في كلماتك.

كان يجب أن أفعل شيئاً لأدخل الفرح على قلب الرجل الذي شفّه الوجد، فأمسكت بالقلم وبدأت أكتب.

كتبت التحية والسلام وبعد.

وفجأة. جاء النفير. امتلأ الفضاء بصوت البوق الذي يدعونا للتجمّع.

تجمعت السريّة في الساحة التي تتوسّط المعسكر.

اصطففنا، وتلقينا الإيعاز بالاستعداد.

جاء أحمد بيك، وخطب فينا خطبة قصيرة، وأعلن في النهاية أن السريّة ستتحرّك هذه الليلة في الساعة (صفر) إلى المنطقة (أ).

انصرفنا للاستعداد، ولم يجرؤ نجيب على إعادة فتح موضوعه مرة أخرى، فقد كان هناك إحساس بأننا مقبلون على معركة.

* * *

الساعة صفر.

تحرّك الرتل. العربات الممتلئة بالجنود، والعربات التي تجرّ المدافع، والمصفّحة الوحيدة التي نمتلكها.

كنت أجلس بجانب السائق في العربة الأمامية، أما نجيب فقد كلّف بمصاحبة العربة التي تجرّ مدفعاً من عيار ٧٥ مم. تحركنا في منتصف الليل، وكان أحمد بيك في سيارة الجيب الصغيرة يتقدّم الرتل وبصحبته الدليل الذي يعرف الطريق.

كنتُ أحاول أن أخمّن وأعرف الجهة التي نتوجه إليها، لكنني لم أستطع أن أعرف الاتجاه بالضبط، وإن كانت رائحة البساتين توحي بأننا نصعد في مناطق زراعية.

لم نتوقّف للاستراحة كما جرت العادة في مرات سابقة، وقال لي السائق إننا نتّجه الآن نحو مرج ابن عامر.

تلقّينا الإيعاز بالتوقّف عندما طلع النهار، وأطلّت أشعّة الشمس من الجهة الشرقية.

توقّفنا عند سفح تلّة في حرش من الأشجار البرّية.
انتشرنا على مسافة عريضة وواسعة.

كانت التعليمات تنصّ على أن نظلّ في حالة تأهّب، لذلك نام معظم الجنود وهم في كامل ملابسهم العسكرية. ولشدّة التعب والنعاس أسندت ظهري إلى ساق شجرة بلوط، وأغمضت عيني.

* * *

عند الظهر تناولنا طعاماً خفيفاً. الخبز والبندورة، والفقوس.
أكلنا بشهيّة في ظلال الأشجار البرّية الوارفة.
أكلنا وتحدّثنا، وشربنا الماء من الزمزميّات.

وأغرى هذا الطقس الدافىء وهذه البراري الآمنة عدداً من الجنود فقاموا بتشكيل حلقة الدبكة.

وانطلق صوت الجنديّ (صابر) يغنّي من جديد للبلبل الذي حطّ على شجرة الرمان، ولجفرا التي تنشر شعرها في الريح وتتجول بين البساتين.

وكان نجيب على رأس حلقة الدبكة يهزّ خصره، ويدقّ الأرض بقدميه، ويقفز محرّكاً يده في الهواء كأنها طائر الكناري.

وحول الدبكة تحلّق عدد من الجنود يصفّقون مع الإيقاع.

وبعد أغاني العشق أخذ صابر يغنّي للنار التي تشتعل في رؤوس الجبال.

وجاء أحمد بيك فجأة، إذ تبيّن أنه كان غائباً أثناء الغداء، فوضع حداً لهذا المرح، ونشر التجهُّم والعبوس.

وعقد اجتماعاً فورياً لقادة الفصائل.

* * *

صدر قرار بتعييني نائباً لآمر الفصيل.. وشاركت في اجتماع تمّ فيه شرح خطّة مهاجمة مستعمرة (مشمارها أيمك)، تلك التي يسمّيها اليهود (حامية المرج).

العمليّة كبيرة، سيشارك فيها فوج اختيرت سراياه من مجموع الأفواج كلها.. وأما المهمّة التي أوكلت إلى فصيلنا فهي تخريب الطرق الفرعية المؤدّية إلى المستعمرة، والتصدي للنجدات.

في المساء تحرّك الرتل من جديد فوصلنا إلى قرية (زرعين) مع أذان العشاء. حللنا ضيوفاً على سريّة المقرّ العام للمقدّم محمد صفا، وهناك زُوّدنا بأسلحة ومعدّات جديدة.

ووجدنا استقبالاً حاراً من الأهالي، وفي الليلة نفسها تحرّكنا مشاة

بأسلحتنا وحقائبنا الخفيفة نحو الأهداف المخصّصة لنا.

مشينا ساعات وساعات حتى صرنا على مشارف منطقة العمليات، فتوزعت الفصائل على المحاور.

كُلّفت بقيادة المجموعة التي ستنسف جسراً يربط المستعمرة بمستعمرات المرج من الجهة الشمالية، وكُلّف نجيب بقيادة مجموعة الحماية التي ستحرسنا وتدافع عنّا إذا ما تعرّضنا لهجوم مباغت.

أعددنا كل شيء، وانتظرنا ساعة الصفر، وهي ساعة الهجوم العامّ على المستعمرة.

بدأت المعركة في الخامسة مساء. فتحت مدفعيتنا النار دفعة واحدة من كل المواقع. كان صدى أصوات القذائف يتردّد في الآفاق.

قامت سريّتنا بفصائلها ومجموعاتها بتنفيذ المهمّات الموكولة إليها. دمّرنا الجسر، واتّخذنا مواقعنا للتصدّي للنجدات التي قد تأتي.

ـ القائد فوزي القاوقجي يشرف على المعركة بنفسه.

قال أحمد بيك الذي ظلّ على اتصال بالقيادة عبر جهاز اللاسلكي المحمول، وكانت الأخبار تنقل إلينا بين حين وآخر.

بدأت المعركة.. تقدّمت سريّة هجوم تساندها المدفعيّة والمصفحات نحو أبراج المستعمرة.

وصل المشاة من سريّة الهجوم حتى الأسلاك الشائكة، وأخذوا يقطعونها.

المصفّحات تصلي الأبراج بنيرانها الكثيفة.

القلاع تفتح النيران على قواتنا..

المشاة يمطرون القلاع بالقنابل اليدوية.

المصفحات تقترب وتسكت الأبراج والقلاع.

تمرّ ساعتان والمعركة محتدمة.

عند حلول الظلام يسقط المطر.

القائد يوقف الهجوم، ويأمر القوات المهاجمة بالانسحاب إلى التلال المحيطة بالمستعمرة.

القائد يرسل إنذاراً إلى المستعمرة، ويطلب من عمدتها الاستسلام، وأن ترسل وفداً لمقابلته.

توقّف المطر بعد حين.
كان مطراً ربيعياً خفيفاً.

جاء نجيب الذي يلفّ رأسه بالكوفية والعقال، ويحمل في يده (ستن) سريع الطلقات.

كان يبدو فرحاً ومزهوّاً بهذا الرشاش الذي حصل عليه من مقرّ القيادة في زرعين.

ـ كنت أحلم بأن أكون ضمن مجموعة الاقتحام.

قال نجيب. قال كلماته بصدق، وكانت الأعشاب وأوراق الأشجار تفعم الأنف برائحة ربيعية بعد هذا النقاء الذي خلفه تساقط أمطار نيسان.

ـ المهمّ أننا أخذنا دورنا في المعركة.
مرّت فترة صمت تخلّلها خشخشة جهاز اللاسلكي المحمول الذي يعمل عليه جندي من إدارة السرية يلازم أحمد بيك الذي اتخذ موقعاً في المرتفع عند الصخور القريبة.

ـ لماذا أوقف القائد الهجوم؟
ـ إن ذلك محسوب في الخطة.

وفي تلك اللحظة. . ما الذي جعله يتذكّر صديقنا وثالثنا؟
ـ أين يكون الآن أسد الشهباء؟

حاولت أن أتخيّل. لقد اختاره المقدّم صفا ليكون ضمن القوّة المكلّفة بحماية القائد. أرسل في البداية إلى طوباس ثم إلى قباطية، فجبع . . . والآن لا بدّ أن يكون في (المنسي) حيث موقع العمليّات.

ـ إن شاء الله نراه بعد انتصارنا.

وبعد ذلك بوقت قصير أغلق عامل اللاسلكي جهازه فساد الصمت. . نام بعضنا، وتناوب على الحراسة بعضنا الآخر.

في الصباح جاءت الأخبار أن رسولاً من المستعمرة أبلغ القائد أن وفداً يمثل المستعمرة سيصل بعد الظهر للمفاوضة. ظلت تعليمات أحمد بيك إلينا: الانتباه والحذر.

اليوم التالي كان يوماً مشمساً. هرع إلينا سكان القرى المجاورة لشدّ أزرنا.

مرّ اليوم دون أن تُطلق في الجبهة طلقة واحدة.

كان الصمت يثير الأعصاب، فمن غير المعقول أن تظلّ جبهة واسعة تغطي مساحة أربعة كيلومترات مربّعة بدون أزيز الرصاص أو دويّ المدافع.

عند العصر زار أحمد بيك المواقع، بما في ذلك موقعنا. عرفنا منه أن وفد المفاوضة الذي يمثّل المستعمرة وصل إلى مقرّ المقدم مهدي صالح، ويتألّف من شخصيات بارزة في المستعمرة ومن رئيس بلديتها، وبرفقتهم كولونيل من الجيش البريطاني. طلب الوفد هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة لدفن الجثث ونقل الجرحى للمعالجة.

وفجأة أطرق أحمد بيك. وضع رأسه بين كفيه وغرق في الكآبة.

كان يجلس مثلنا على العشب الطريّ، ومثلنا كان ينتظر النتائج.

نظر إليه الجنود فتسلّل الاكتئاب إلى نفوسهم.

لماذا غرق أحمد بيك في بئر الصمت والهموم؟

نظر إليّ نجيب متسائلاً، أشرت إليه أن يصمت. ففي مثل هذه اللحظات علينا أن ننتظر.

طال إطراق أحمد بيك فصرفت الجنود الذين كانوا يتحلّقون حوله وينتظرون منه أن يتمّ كلامه أو أن يصدر لهم أمراً ما... ذهب كل إلى شأن من شؤونه.

انصرف نجيب أو تشاغل في أمر من الأمور..

عندما رفع أحمد بيك رأسه كان وجهه داكناً، وكانت عيناه حمراوين.

وقعت نظراته على وجهي فقال كأنما يحدّث نفسه:

ـ ما كان عليه أن يعطيهم هدنة طويلة.. ما كان عليه أن يفعل ذلك.

ثم وقف ومضى بخطوات سريعة كأنه يهرب من نفسه.

* * *

لكنه عاد بعد ساعة وبصحبته قائد فصيلنا.

عاد بوجه رائق، ومزاج هادىء، وأبلغنا بأن فصيلنا سيتحرك إلى قرية (المنسي) للالتحاق بمهمّة تكلّفنا بها القيادة.

ثم ودّعنا. صافحنا فرداً فرداً، وتمنّى لنا النجاح والتوفيق، وخاطبنا بكلمة (يا أبنائي). قالها بصوت مشروخ وحزين.

لم نفهم سبب عاطفته المفاجئة هذه، ولكننا حين مضينا تحرّكت مشاعرنا، وأحسسنا لأوّل مرة بشيء من التعاطف مع هذا الرجل الذي طالما سبّب لنا الحيرة.

وحين كانت الناقلة تمضي بنا في طريق ترابية قال نجيب:

ـ تذكّرت وجهه حين عاد من معركة (الزرّاعة). . لقد كانت له الملامح نفسها.

ثم أضاف:

ـ وعلى كل حال فإن الشاة المذبوحة تسخر من الشاة المسلوخة!!

وبعد حين نسينا أحمد بيك أو تناسيناه، وأخذنا نفكر في المهمّة القادمة.

وصلنا إلى (المنسي) مع حلول الظلام. وتوزّعنا على مهاجع في بيوت ملحقة بمقرّ القيادة.

كان الظلام شديد السواد، فلقد فرض على القرية التعتيم تحسُّباً.

وجدنا ضابطاً شاباً بانتظارنا، فأمر بتقديم الخدمات الضرورية لنا، وطلب منا أن نرتاح حتى الصباح، إذ سيستقبلنا القائد العامّ بنفسه

نام معظم الجنود باكراً، أما أنا ونجيب فقد خرجنا إلى الساحة الصغيرة لاستنشاق الهواء ورؤية الفضاء الأقل عتمة. وخرج نجيب لتدخين سيجارة.

كان الضابط الشابّ الذي استقبلنا يتمشّى وهو يشبك أصابعه خلف ظهره، لعله ضجر أيضاً من هذا الصمت وهذه العتمة.

حين صار بازائنا توقّف، وابتسم، وتبادلنا معه الحديث، حاولنا أن نعرف شيئاً عن الحالة في الخطوط الأمامية، لكنه لم يقل شيئاً، بل إن الحيرة التي اكتسى بها صوته أشعرتنا بصعوبة الوضع وتعقيداته، ثم إنه حاول أن يغير مجرى الحديث حين قال لنا ممازحاً: «إنكما محظوظان إذ تنامان في مهجع العقيد نور الدين».

عدنا إلى المهجع، تمدّدنا على الفراش الذي وضع لنا على عجل، وأغمضت عيني.

أفقنا في الصباح عندما تسلّل النور من النافـذة المفتوحـة وملأ الغـرفة . . كانت غرفة صغيرة، لكنها مرتّبة. في الركن طاولة سفريّة عليها أدوات حلاقة ومزهرية بدون زهور، ودفتر صغير، فوقه قلم حبر.

وفي الركن المقابل صندوق مغلق.

أما على الحائط فقد كان معلقاً بزّة عسكريـة على كتفيهـا النّجوم، وعـلى صـدرها وسـام عسكري. لا بـدّ أنها بزّة العقيـدة نور الـدين. . ذلك الـذي حدّثنا عنه الضابط الشاب.

ومقابل البزّة العسكرية على الحائط الآخر كانت معلّقة سـترة من الكاكي الأزرق. . بدون أكمام. . بصدر منتفخ. . بجيوب واسعة.

كان نجيب يحدّق بها، ويفرك عينيه.

إنها الدرع نفسها. السترة الزرقاء الداكنة. . . الواقية من الرصاص.

قال ذلك، وهبّ واقفاً. ثم تقدم خطوة:

ـ هل تتذكر الدرع التي حدثتك عنها. . أقسم بالله إنها الدرع ذاتها!.

تذكّرت بالطبع القصّة، ولكن لم تتملّكني الدهشة التي ارتسمت عـلى وجه نجيب.

ها هي الدرع التي انتقلت من ضابط إلى آخر تصـل أخيراً إلى العقيـد نور الدين صاحب هذه البزّة العسكرية المعلّقة.

أثار نجيب الأسئلة الصاخبة، أثارها كما يثير المشاغب عشّ الدبابير.

تركته وخرجت إلى الباحة حيث كان رفاقنا قـد استيقظوا وأخـذوا يغسلون وجوههم أو يحلقون ذقونهم.

جـاء الشاي السـاخن، والخبز، والجبنـة الصفراء، فـأكلنا مـا عدا نجيب الـذي أطال المكـوث في تلك الغرفـة حتى خيّل إليّ أنـه أنزل الـدرع من على الحائط ولبسها.

والحقيقة أن القائد العام لم يقابلنا في تلك الليلة، كما لم يقابلنا أيّ من نوّابه، ولم يقابلنا سوى ضابط صفّ جاء ومعه شاحنة كبيرة نقلتنا إلى معسكر تجمّع.

وعند باب المعسكر التقينا بالرئيس مأمون البيطار.
استقبلنا بابتسامة واثقة، وصافحنا واحداً واحداً.

كان ضابطاً ودوداً، لذلك دخل خيمتنا الكبيرة، وجلس معنا، وسألنا عن أحوالنا. وعند الظهيرة تناول معنا الطعام، ثم شرح لنا شيئاً من المهمّة التي سنتحرّك بعد قليل لتنفيذها، وتتعلّق بإسناد قوّات الجهاد المقدّس التي تقاتل على أبواب القدس بقيادة عبد القادر الحسيني.

كان قائداً واثقاً من نفسه، لذلك أحببناه منذ اللحظات الأولى، وشعرنا بالطمأنينة، بل وسرى الحماس في نفوسنا.. فمتى نتحرك إلى المدينة المقدّسة؟

* * *

الطريق إلى القدس طويل.. طويل ومتعرّج.

مررنا بسهول ووهاد. شققنا طريقنا وسط مسالك ترابية، وأراضٍ زراعية. عبرت سياراتنا من بين بيوت الفلاّحين، وشممنا رائحة الطوابين، ورائحة الخبز الذي ينضج على النار. كانت سياراتنا تتمهّل عندما يعبر الطريق قطيع أغنام أو قافلة جمال، وفي معظم الأحيان كنّا نمرّ من طرق يحيط بها من الجانبين أشجار البلّوط أو الصبّار.

وخلال ذلك كنت أديم التفكير في المعركة القادمة، وأتخيّل أفقاً يندلع فيه اللهب.

على مرمى حجر من القدس توقّف الرتل للاستراحة وتناول الطعام. جلسنا في حقل زيتون يحاذي الطريق.

جلس الرئيس مأمون بيننا. أكل مما نأكل، وتجاذب معنا أطراف الحديث، وفرش في حديثه بساط التفاؤل، وأمدّنا بالقوة والعزيمة، ومنحنا لـذّة إحساس المشارك بالدفاع عن بيت المقدس.

كان يتحدّث بلهجته الدمشقيّة الأنيقة، وهو يضع على عينيه نـظارة تزيـده وسامة، وتزيد بشرته الشاميّة بياضاً.

ـ لقد بدأت أقتنع بقائدنا الجديد.

قال ذلك نجيب عندما عدنا إلى الحافلات، واستأنف الرتل سيره. ثم شرب من زمزميّة الماء وقال وهو يمسح فمه بطرف كمّه: متى نصل إلى القدس؟

وقد وصلنا إلى القدس أخيراً، وعلى وجه الدقّة، وصلنا إلى مشارف القدس.

كان وفد من قوّات الجهاد المقدّس ينتظرنا عند سفح تلّة تشرف على المدينة المقدّسة.

هبطنا للاستراحـة، واجتمع الـوفد بـالرئيس مـأمون وضبّـاط الصف بينما ظللنا ننتظر.

لاحظت أن وجوماً يملأ هذا الفضاء، وأن الـوجوه المكفهـرّة التي استقبلتنا تنبىء بما يشبه الفجيعة.

طال الاجتماع، وجاءني نجيب يستفسر، فأحسست بانقباض، ولم أجد ما أقوله له.

عاد الرئيس مأمون محتقن الوجه، ولعـلّ الجنود لاحـظوا القسوة المـرتسمة على وجهه المربدّ، فتحلّقوا حوله.

حدث صمت ووجوم. قال الرئيس مأمون بصوت متهدّج:

ـ يا إخوتي.. جئنا لنجدة القسطل ويبدو أننا وصلنا متأخرين.

صـار للكلمات وقع السكـاكـين، وانتشر الـدوار. خلع الـرئيس مـأمـون

النظارة، وعند ذلك ظهرت الدموع التي انهمرت من عينيه العسلّيتين، وقال بصوت خافت:

ـ لقد فقدنا القسطل، وفقدنا المجاهد عبد القادر الحسيني.

سرت قشعريرة في الأجسام، وجع في القلوب، عذاب في الأرواح.

اقترب نجيب خطوة وقال مخاطباً الرئيس مأمون:

ـ سيدي.. يجب أن نفعل شيئاً.. يجب ألاّ نعود خائبين.

أعاد الرئيس مأمون النظارة إلى عينيه. لعله تذكر أنّه يتعيّن عليه أن يتماسك، وأن يظلّ قدوة..

قطعت كلمات نجيب هذا الصمت الذي كاد يفضي إلى الانهيار النفسي. ومن الخلف صاح أحدهم:

ـ الله أكبر..

وردّد الآخرون من ورائه: الله أكبر.

فاستدار الرئيس مأمون، وأصدر ضابط الصفّ أمراً بالانتشار داخل حقل الزيتون إلى حين صدور أوامر جديدة.

وقد صدرت الأوامر إلى فصيل المدفعية بالانتقال إلى مواقع متقدّمة ودكّ المواقع اليهودية في القسم الغربي من المدينة.

وفي الصباح جمعنا الرئيس مأمون وأبلغنا أننا سنعود بعد الظهر إلى مواقعنا للمشاركة في معركة (مشمارها أيمك) التي ما زالت محتدمة. والحقيقة أن الارتباك تسلّل إلى نفوسنا قبل أن يتسلّل إلى صفوفنا، فانقسم كل منّا إلى قسمين.

أما نجيب فقد كان مشتعلاً بالغضب.

مرّ من أمامي وقال دون أن يتوقف:

ـ لا تسألوا عني . . أنا ذاهب إلى هناك .

قال ذلك دون أن يحدّد ما المقصود بكلمة هناك ، لكن هناك في تلك اللحظة كانت تعني البقاء في القدس ، والبقاء مع المدافعين عنها .

لم أكن في وضع يسمح لي بأن أثنيه عن مقصده ، ولم يكن بدوره في وضع يسمح له بأن يطلب مباركتي لقراره .

هكذا إذن ، قال كلمته ومضى . .

ظللت أراقبه وهو يبتعد في حقل الزيتون حاملاً بارودته ، ثم وهو يقفز عن السور المنخفض ويختفي .

هل أحسست عندها بحزن خاصّ . . حزن لا يشبه إلاّ البكاء؟

* * *

عند العصر بدأنا رحلة العودة إلى مواقعنا للمشاركة في معركة (مشمارها أيمك) التي كانت ما تزال محتدمة .

عندما كنا في حالة استعداد وقف الرئيس مأمون أمامنا بنظارته السوداء . وقف عابساً وألقى كلمة طويلة . . حاول أن يرفع المعنويات . ألقى كلمة بليغة . كلمة مؤثرة . حتى إن عيوننا ترقرقت بالدمع . قال إن المعركة مستمرة هناك في (مشمارها أيمك) بين كرّ وفرّ ، وأن العدوّ اغتنم فرصة الهدنة واستقدم المزيد من قوات (الهاغانا) ، والوضع الحالي لقوّاتنا هناك في مرج ابن عامر حرج للغاية .

وشيئاً فشيئاً انتشر الحماس . تحركت المشاعر . هتف أحدهم : الله أكبر . ردد الآخرون : الله أكبر . . .

صعدنا إلى السيارات . ودارت المحركات . فمشت معنا الحقول . مشت معنا أشجار الزيتون والصبّار والزنزلخت .

انطلق صوت الفتى صابر من قلب الحافلة يغنّي أغنية للبرق الـذي لمع من وراء الجبال، والرعد الذي تدحرج من الأعالي.

وكأنما ريح مسّت الحجر فردّد الرجال وراءه بصوت واحد. كبر الحماس، وازدادت الحافلات سرعة، ولم نشعر بمرور الوقت، وحين وصلنا إلى مشارف المرج كانت تغمرنا رغبة في الاشتباك.

وصلنا إلى مقرّ القيادة الفرعي للاستراحة، وهناك تلقّى الرئيس مأمون برقية من القائد العام فجمعنا وقال بصوت عال:

- يا إخوتي المعركة في (مشمارها أيمك) تتسع.. والعـدوّ استقدم المـزيد من النجدات، وعلينا أن نشارك في صدّ هجوم يهوديّ على قوّاتنا.

وقد شاركنا بالفعل في عملية صدّ الهجوم المعاكس الواسع الذي قـامت به قوات (الهاغانا) اليهودية على كل القواطع التي كنا نشغلها.

وقد اضطرت معظم القوات إلى التراجع أمـام اندفـاعة القـوات اليهوديـة التي تتفوّق على قواتنا بعددها وتسليحها.

وشـاركنا في عمليـة فكّ الحصـار عن فصيل مـدفعية كـاد يسقط في أيدي الأعداء.

اندفعت قواتنا لنجدة الموقع، واستطعنا بعد معركة عنيفة تـأمين انسحـاب فصيل المدفعية.. لكن رصاصة أصابت الرئيس مأمون الذي كان في المقدمـة فسقط شهيداً.

توقّفت المعركة في وقت لاحق، وعادت قواتنا إلى مواقعها القـديمة، ولكن روح الشهيد الرئيس مأمون ظلّت ترفرف فوقنا كما الطيور الخضراء.

ظل حاضراً بيننا على الرغم من غيابه.

ظللنـا نحكي القصص عن شجـاعتــه، ونـروي الكثـير عن سجـايــاه وبساطته.

وقد كلّف القائد العام عـدداً من الجنود بمـرافقة جثـمانه إلى دمشق، وكـان أسد الشهباء أحد الذين وقع عليهم الاختيار لمرافقة الشهيد.

كانت معركة غريبة تلك التي خضناها في (مشمارها أيمك).. معركة كلهـا ثغرات، انتهت بانسحابنا دون تحقيق أيّ هدف.

وعلى الرغم من صدور ترقية ميدانية لي، أصبحت بموجبهـا قائـد فصيل، إلّا أن طعم المرارة لم يفارقني، بل وطعم القهر والمهانة..

عدنا إلى الموقع الذي وصلنا إليه على مشارف (المنسي).. وفي الغرفة عينها كانت بزّة العقيد نور الدين العسكرية ما تزال معلّقة على الحائط، أما السترة الواقية من الرصاص فقد اختفت من مكانها.

ولأمر ما تذكّرت نجيباً..

لقد ودّعني وذهب إلى هناك..

لترافقه بركة الله أينما كان، ذلك الرجل الشجاع..

لتتسلّل إلى أحلامه الغزلان والفراشات والزهور..

ولتنتشر في أحلامه روائح أشجار مكنسة الجنّة..

ورائحة محبوبته التي ملأت قلبه بعاطفة ليس لها مثيل.

الفصل السابع

مع أول صيحة ديك فتح راضي عينيه . .

الفراش دافيء، والكسل لذيذ، والنوم في المضافة متعة وراحة بين المساند، والتكايا، والمناقل، والأباريق النحاسية.

رفع الغطاء عن رأسه، ونظر إلى فراش خاله . . كان عبد الكريم الحمد يغطّ في النوم ويتنفّس بهدوء.

فتح راضي عينيه، لكنه ظل راقداً تحت اللحاف وهو يستمع إلى صياح الديوك . . كانت تلك الطيور ذات الأعراف والعيون الصلفة تتبارى في الصياح، وكان يستطيع أن يميّز صياح ديوكهم من أصوات ديوك خاله، تلك التي جلبت من دار الأمان بعد ذلك الحادث المشؤوم.

نظر نحو النافذة. ما زالت العتمة جاثمة، والفجر لم يطلّ بعد، ومع ذلك بدأت رائحة الوقود في الأفران تنتشر.

ظل راقداً، متدثّراً بالدفء والكسل، فلقد نام متأخّراً بعد سهرة طويلة قلب الرجال فيها الأمور من جميع وجوهها.

لقد تغيّرت أشياء كثيرة في هذا البيت منذ تلك الليلة المشؤومة.

وظلت آثار الأحداث محفورة على وجه الخال الذي أخذ يفكر بطريقة مختلفة.

سمع صرير الباب الخارجي، وصوت والده وهو يخاطب خالق الخلق، وباسط الرزق.. إنها عادة يومية من عاداته.. مثلها مثل فنجان القهوة الصباحي. يفيق من النوم قبل أيّ إنسان في البيت، يفتح الباب تفاؤلاً بالنهار القادم، ويحتفي بقدوم الفجر على طريقته.. يتوضأ ويصلّي، ويشرب الشاي والقهوة، ثم يركب فرسه ويخرج لتفقّد حقوله وأملاكه.

ثم أيقظ من النوم خالد الزهر الذي ينام في غرفة صغيرة ملاصقة للبايكة ويستيقظ عادة عندما يسمع صرير (الخويخة) في الباب الكبير، فيهرع وهو بين النوم واليقظة، يعدّ للحاجّ إبريق الماء للوضوء، ويضع العلف للخيول. فلقد صار مطالباً بإطعام حصان العربة، وفرس الحاج حسين، وفرس عبد الكريم الحمد الأصيلة التي ليس لها شبيه في سمخ.

ومن بعد، جاء صوت أحمد الملا الذي يطرق الباب ولا ينتظر أن يؤذن له. جاء يحمل الماء النقيّ الذي أحضره من أقصى نقطة يستطيع أن يصل إليها من شاطىء البحيرة.. دلق سطل الماء في زير الفخّار فتساقط رذاذ الماء على الكلب (الذيب) الذي ينام غير بعيد فاستيقظ، استيقظ وبدأ يدور هنا وهناك، فقد أطلّ من باب المضافة دون أن يجرؤ على الدخول. بدأت الحياة تنهض، وانتشر الضياء.. وانتشر صوت الزبادنه من على المئذنة مالئاً هذا الفجر النديّ.

فتح راضي عينيه من جديد، وفي الوقت نفسه سمع خطوات فطيمة على بلاط الدرج وهي تهبط من (العليّة).. إنها تنام هناك في غرفة منذ أحداث تلك الليلة المشؤومة التي قتل فيها زوجها قاسم النايف.

تهبط في هذا الوقت من الصباح وهي تتّشح بالسواد. تقدّم العلف للدجاج، وتحلب البقرة المرقّطة قبل أن تسرح مع (العجّال) في البراري.

وتبع ذلك خطوات أمّه تهبط إلى الحوش، فتوقد الفرن وتتركه يسخن

على مهل، وخلال ذلك ترشّ الماء على أصص نبات العطرة فتنتشر رائحة مثل ماء الزهر.

تململ خاله في فراشه، فقد أدركه الصحو. أيقن راضي إذ ذاك أن لا مفر من النهوض فنحّى اللحاف جانباً. دخل الوالد وقد شمّر عن ذراعيه وهيّأ نفسه للصلاة بعد الوضوء، وطرح تحية الصباح.

نهض الخال عبد الكريم، وذهب إلى البايكة ليقضي حاجته ويغسل وجهه.

نهض راضي، وخرج إلى الحوش..

كانت النيران في الفرن تتّقد، وكان (لجن) العجين الذي اختمر ينتظر. وبدأ الدجاج يخرج من البايكة بعد أن امتلأت حويصلاته بالطعام، في حين خرجت فطيمة تحمل بين يديها وعاء الحليب وقد امتلأ.

كانت الوالدة تحنو على فطيمة، وبعد الحادث المشؤوم صارت تبالغ في الحنوّ عليها ورعايتها.

وعلى الرغم من مرور أسبوعين على تلك الليلة الفظيعة فإن الدموع في عيني فطيمة لم تجفّ. وقلّما كانت تحدّث أحداً إلاّ إذا بادرها بالحديث، ووالدته لا تتركها تخلو مع نفسها إلاّ في أوقات النوم.

في بعض الأحيان تلتقي فطيمة عبد الكريم الحمد في حوش الدار فيسألها: كيف حالك يا فطيمة؟

تسيل دموعها على خدّيها، وتجيب من خلال البكاء: بخير يا عمي.. الحمد لله يا عمي.

الحزن يسكنها. يسكن أهدابها، ويسكن ثوبها الأسود، ويسكن صمتها الطويل.. لكنها عندما ترفع رأسها، وتتأمّل الأفق من وراء النافذة، يظهر

وجهها الوسيم وقد علته مسحة من الحزن الجليل، ويبدو لعينيها سحر خاص، وتبدو جميلة على الرغم من كل هذا الوجع.

ظلّت على كل حال تحرص على العمل في البيت الجديد الذي انتقلت إليه، وظلت تطعم الدجاج، وتعتني بالبقرة المرقّطة الحلوب، تطعمها وتسقيها وتنظفها، وتمسح جبينها بألفة وحنان.

ها هي تحمل وعاء الحليب وتضعه فوق الموقد.

وها هي تباشر بتقطيع العجين وتحويله إلى أرغفة.

خرج عبد الكريم الحمد بثوبه الأبيض الذي ينام به.

طرح تحية الصباح على جميع من في الحوش، ودخل المضافة..

كان الحاجّ على وشك الانتهاء من الصلاة..

عمد الخال إلى استبدال منامته بثياب الخروج.

لبس (قمبازه) الجديد. أخرجه من حقيبة ملابسه التي وضعت في الركن بجانب الفراش، وأخرج الحطّة البيضاء من قماش (الفوال) ووضع فوقها - على رأسه - العقال المرعز، ثم أحاط خصره بالزنّار الذي تتوسطه الشبريّة ذات المقبض الفضي.

كانت تلك إشارة من إشارات السفر.

- خير.. إلى أين يا عبد الكريم؟

سأله الحاج بعد أن أنهى صلاته. سأله بلهفة، فبعد الحادث الفظيع، وما حلّ بدار الأمان أصبح الوالد يتعامل مع الخال بشكل مختلف.

لم يقل الخال شيئاً، لا بد أنّه قرّر السفر لا غير.

لعله ضاق ذرعاً بالأسئلة، والكلام الذي يجرّ الكلام، والحديث الذي يكرّر نفسه.

لقد روى أمام الناس في المضافة حديث الليلة الفظيعة التي طعن فيها

صدر الجندي بنصل الشبريّة . . ليلة مقتل قاسم النايف برصاص الجندي . . والناس لا تكفّ عن الأسئلة .

ـ إلى أين يا عبد الكريم؟

ـ أريد أن أذهب للوفاء بنذر .

قال عبد الكريم . . إلى أين؟ لم يقل ، وظل يكتنف حركته المفاجئة بعض الغموض .

لم يفصح ليلة أمس عن نيّته في السفر ، وليلة أمس كانت المضافة تغصّ بالزائرين الذين تثيرهم غريزة حبّ الاستطلاع ، وظل عبد الكريم يجيب على استفساراتهم . منحه الله سعة الصدر فظل يروي الحكاية ، وروى كيف استولى على سلاح الجنديّ بعد قتله ، ورفض أن يقول شيئاً عن أوصاف السلاح أو نوعه ، لأن قطعة السلاح والقنابل والجعبة أصبحت ملك اللجنة القومية ، لكنه قال إنها بارودة سريعة الطلقات .

حكى إذن كيف أمدّه الله بالقوة ، وزرع في قلبه الجرأة ، فأيّ جسارة هذه التي جعلت عبد الكريم الحمد يطعن الجندي ، وهو الذي لم يذبح دجاجة في حياته؟ !

ـ يا عبد الكريم كن حذراً . . الدنيا حرب ، والبلاد مخبوطة . . والسفر غير مأمون .

وأطلّت فجأة فطيمة ، وقفت بالباب ، بثوبها الأسود ، ووجهها الأبيض الذي تسلّل إليه الشحوب ، وكان شعرها يغيب تحته غطاء أسود أيضاً .

وقفت ، ولم تقل شيئاً . لعل أذنها التقطت بعض الكلمات ، ثم أطلت من ورائها (أم راضي) . . وعند ذلك قال عبد الكريم :

ـ لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ .

انهمرت دمعة أو دمعتان، وقالت فطيمة:
ـ أين ستذهب يا عمي؟. اللي فينا يكفينا.

بدا كما لو أن عبد الكريم أخذ يضعف، وبدا كما لو أنه سيتراجع، ويخلع ملابس السفر، ويقعد. غير أنه تماسك وقال محاولاً التأثير على الجوّ:

ـ وحّدوا الله.. أين الفطور.. هه.. يا فطيمة أين الفطور؟

كانت هذه هي المرّة الأولى منذ تلك الليلة الليلاء يخاطبها فيها بهذه الطريقة الحميمة، وقد أوحت طريقته في الحديث بأن الأمور ستسير إلى منحى طبيعي.

مرّ طيف ابتسامة على شفتي فطيمة، طيف لا يكاد يلحظ بسبب الدمعة التي انهمرت وتدحرجت فوق الخدّ النافر، وتلاشت عند الذقن.

وعند ذلك أشرق وجه أم راضي، ومسحت فطيمة خدّها، وتنفّس الحاج حسين وعاودته الطمأنينة.

قعد عبد الكريم على طرف الفراش دون أن يظهر إن كان قد تراجع أو ما زال عاقداً العزم على السفر.

وبعد وقت قصير كانت المائدة قد أصبحت جاهزة، وحلف الوالد على المرأتين أن تشاركا في الأكل ـ ربما كان هذا يحدث للمرة الأولى في مضافة الحاج حسين ـ فأكل الرجال والنساء معاً من صحون واحدة..

حدّق راضي بوجه فطيمة الذي استعاد شيئاً من عافيته، وظهر أن إحساساً إنسانياً قد غمرها، وسرقها من حلكة أحزانها.

وعلى المائدة تحدّث والده الحاج حسين بلا تحفّظ، وأبدى من الكياسة واللطافة ما جعل الجوّ يزداد صفاء.

ولأول مرة منذ تلك الليلة الفظيعة عرفت ابتسامة أو أكثر طريقها إلى الشفاه.

كان عبد الكريم يبدو أنيقاً بملابس السفر هذه، وبدت الشبرية التي يضعها على جنبه محطّ اهتمام العيون..

وفجأة.. جاء بوق السيارة الصفراء..

لا بدّ أن عبد الكريم قد ضرب موعداً مع حامد أبو حامد.

حدثت مفاجأة. حدث شيء من الوجوم، وكاد ينقلب هذا الصفاء إلى كدر وغمّ، غير أن عبد الكريم الذي فرح للتغيّر الطفيف الذي حدث، وقف على عجل، ولبس (مشايه) خفيفة، وخرج.. لكن غيابه لم يطل، فقد عاد، وقال على الفور:

ـ اطمئنوا.. لقد ألغيت السفر.

انفرجت الأسارير من جديد، وعند ذلك تجرّأت (أم راضي) وقالت:

ـ ليتك يا حاجّ تأخذنا معك هذا اليوم إلى عزبة الدوير.

لو كان الجوّ غير هذا لما تجرأت المرأة على مخاطبة زوجها هكذا أمام الآخرين. وقد فكر الحاج حسين قليلاً.. ثم أجاب:

ـ حسناً.. جهّزوا أنفسكم.. بعد ساعة نذهب.

نظرت (أم راضي) إلى فطيمة، لكن فطيمة غضّت طرفها، وتجمّعت على ملامحها غيمة..

همست (أم راضي):

ـ نذهب لزيارة حفيظة، ونعود في المساء.

وهنا قال عبد الكريم:

ـ سأذهب معكم يا حاج.. أشعر بثقل في صدري، وأريد أن استنشق الهواء النقي.

وقف راضي دون أن ينتظر نتيجة الحوار والمحاولات الجارية لإقناع

فطيمة بالخروج. خفّ سريعاً فنقل الخبر إلى خالد الزهر الذي أعلن عن ابتهاجه، وأسرع يعد العدّة، ويسرج الخيل. .

أما الذيب الذي تعوّد أن يدرك بالحدس ما يدور حوله فقد أخذ يثب على قدمي راضي، ويقوم بحركات طفولية.

* * *

تحرّكت العربة مع إشراقة شعاع الصباح الباكر. . كان راضي وخالد الزهر يركبان في المقدمة، أما أم راضي وفطيمة فقد جلستا وسط العربة فوق فراش وضع خصيصاً لهما، ومعهما كان الصغير ماهر.

خلف العربة ربطت البقرة المرّقطة الحلوب بعد أن أصرّت فطيمة على اصطحابها، وأما الذيب فبقي يحرس البيت. .

أغلقوا الباب دونه على الرغم من نباحه ومحاولاته اليائسة للذهاب معهم.

تحرّكت العربة على مهلها وأما الرجلان: الحاج حسين، وعبد الكريم الحمد فقد ركب كل منهما فرسه وانطلقا يسبقان الركب، وأطلقا العنان لفرسيهما، فتارة يتسابقان، وتارة أخرى يتمهلان ويمشيان جنباً إلى جنب وهما يتحدّثان.

مرّت العربة بمحاذاة البحيرة، وكانت الطريق إلى الدوير تكشف البحيرة من كل الاتجاهات، فأينما نظرت فهناك وجه البحيرة. وكان لون المياه شديد الزرقة، وكانت طيور بيضاء مهاجرة تقوم بطيران فوقها. . هناك في العمق.

وفي العمق أيضاً كان قارب يوغل في الإبحار.

وعند الشاطىء كان صيّاد يركب (الكيك)، ويبحث عن رزقه في هذا الوقت المبكر. أما على رصيف (البنط) فقد كان يقف أحمد الملا، ويتأمل في لحظة استراحة وقد وضع أدوات العمل جانباً.

* * *

قالت أم راضي: «هذه البحيرة مثل الشمس، هي أم الحياة.»

نشرت فطيمة نظراتها فوق المياه الزرقاء الهادئة، ولكن لم ينشرح صدرها، فقد كان في أعماقها ركود.

حاولت أم راضي عبثاً إخراج فطيمة من بئر حزنها.

أما البقرة المرقّطة ذات الضرع الممتلىء فقد كانت تتبع العربة، وتطلق بين الحين والآخر خواراً متقطعاً.

* * *

أطلّت تلّة الدوير، وأطلّ الزرع الذي تنتصب سنابله أمام عين الشمس.

الفلاّحون ينتشرون، وبيوت الشعر قائمة على سفح التلّة. قطعان الأبقار تملأ المرج. وقد مرّت العربة بـ (شلايا) الغنم الأبيض والأسمر، والرعاة يتفيّأون ظلال الأشجار، وأصحاب الأرض يمتطون جيادهم ويتفقدون كل شيء، وحفيظة ـ أخت الرجال ـ تقف أمام بيت الشعر الأسود تنتظر.

كان الرجلان قد وصلا وأسلما فرسيهما للرعاة واتكأ كل منهما على فراش ومسند في (الرفراف) المخصّص للرجال من بيت الشعر، وقدّم لهما زوج العمة القهوة السادة، فهذا هو العمل الوحيد الذي يتقنه في هذه البراري.

وصلت العربة، واستقبلت حفيظة القادمين. قبّلت راضي، وقبّلت أمّه، وعانقت فطيمة، وبكت كل منهما على كتف الأخرى، لكن حفيظة سرعان ما مسحت دموعها وشدّت قامتها..

كانت تلبس ثوباً فلاحياً أسود، وتشدّ خصرها بزنّار من القماش، وتلبس كالعادة حذاء يشبه أحذية الجنود. شدّت قامتها وتناولت الصغير ماهر من بين يدي أمّه.. داعبته وقبّلته، ثم أشارت إلى المرأتين بالدخول إلى (الرفراف) المخصّص للنساء.

وحدث بعد ذلك هرج ومرج حول بيت الشعر، وظل راضي يتأمّل متنقلاً هنا وهناك . .

ذبح الرعاة، بأمر من العمّة حفيظة، خروفاً سميناً، وقطعوا لحمه وبدأوا يطبخون.

وخلال ذلك حاولت العمّة أن تفعل شيئاً لتخرج فطيمة من شرودها.

انضمّ إلى الجلسة عدد من النساء اللواتي يعملن في حلب البقر والغنم واستخراج الزبدة.

وفيما ظلّ الرجال يلعبون لعبة السيجة والمنقلة اصطحبت حفيظة النساء ليشاهدن عملية جزّ الصوف عن الغنم، ثم أخذتهن إلى حظيرة الأبقار (الشوالي) المخصّصة للحلب، فإلى حظيرة الأبقار التي وضعت حديثاً حيث تتنافس العجول الصغيرة والرعاة على الظفر بحليب الأم، وهنا يحلب الرعاة حلمتين فقط ويتركون الحلمتين الأخريين ليرضع منهما العجل الصغير.

* * *

بحثت فطيمة بعينيها في أطراف المرج عن بقرتها المرقّطة فلم تعثر لها على أثر. وقد داخلها الضيق والكدر بسبب ذلك، وكادت تفصح عن انزعاجها لولا أن العمّة حفيظة شدّتها من يدها إلى (الرفراف) مرة ثانية لتناول طعام الغداء.

هبّ نسيم ربيعي منعش، وبعد الغداء تمدّد الحاج حسين واضعاً رأسه على المسند، وحاول أن يأخذ غفوة. أما عبد الكريم فقد رغب في المشي، ومشى إلى جانبه راضي يحاول أن يحاكي الرجال، فيشدّ قامته عالياً ويصغي بشغف إلى حديث خاله.

عند العصر كان النساء قد غسلن الأواني، واستنفدن كلّ ما لديهن من حكايات وأخبار، واستغبن كلّ من يخطر لهن على بال. وأما فطيمة فقد ظلّت

تتفقّد بقرتها المرقّطة. ولعلّها لم تطق صبراً فبحثت عن خالد الزهر وطلبت منه أن يبحث عنها في هذا المرج الواسع.

***

في تلك اللحظات مرّ خيّال يركب فرساً بلا سرج ويحمل بيده بندقية صيد. توقّف قليلاً مع الرعاة وتبادل معهم بعض الكلمات، ثم همز فرسه إذ كان في عجلة من أمره، وانطلق يعدو..

كان ذلك الخيّال قادماً من تلّة القصر، وكان يطارد كلباً مسعوراً شديد الخطورة، إذ إنه ينقل داء الكلب لكل من يعضه من إنسان أو حيوان.. وقد عمل فتكاً بالأغنام في تلّة القصر، ولدى مطاردة هذا الكلب شوهد وهو يتوجّه نحو تلّة الدوير هذه، وقد حذّر الخيّال الرعاة، وطلب منهم أخذ الحيطة، وأكّد لهم أنّه عازم على مطاردته واصطياده.

انتشر الخبر سريعاً في كل مكان.

اضطرب الناس، وتبدّل الجو، وأحاط الرعاة بقطعان الأبقار و(شلايا) الغنم..

وحتى العمّة حفيظة ـ أخت الرجال ـ وهي المسؤولة عن كل شيء اضطربت واعتذرت للنساء، وبدأت تصدر الأوامر لمن حولها، ولم يسلم من ذلك زوجها الذي ليس له عمل محدّد..

استيقظ الحاج حسين على جوّ الذعر، وللوهلة الأولى خيّل إليه أن هناك هجوماً يهودياً، وحين عرف قصة الكلب المسعور داهمه قلق وانشغل باله.

نصح عبد الكريم من حوله بعدم إثارة كل هذا الذعر، وقال إنه من الأفضل المشاركة في المطاردة واصطياد الكلب الخطر بدلاً من الانتظار..

وأثناء ذلك راقب راضي كبشين يتناطحان.. يشهر كل منهما قرنيه ويهجم على الآخر..

أقبلت فطيمة وقد ازداد خوفها، وقالت بنفس مقطوع :

ـ البقرة ضاعت يا عمي . . البقرة ضاعت.

قرأ عبد الكريم الحمد في وجهها نذير كارثة فقال لنفسه : «لا حول ولا قوة إلّا بالله» .

جاء من أقصى المرج خالد الزهر يعدو. يضع ثوبه بين أسنانه ويعدو على ساقيه.

جاء كالزوبعة ، فأحسّ عبد الكريم إذ ذاك بأنه قد وقع القدر، لذلك لم يفاجأ حين قال خالد الزهر وهو يلهث :

: ـ الكلب المسعور عضّ البقرة المرقطة . . إنها هناك تحتضر عند حافة النهر.

لطمت فطيمة خدّيها وصرخت بصوت عال.

في تلك اللحظة توقّف الكبشان عن العراك ، ولم يدر راضي ماذا يفعل . .

قفز عبد الكريم على صهوة فرسه فانطلقت تعدو صوب النهر. ثم لحقه الحاج حسين . .

قطعا المرج من أقصاه إلى أقصاه، ثم انحدرا صوب النهر. هناك بين أشجار الدفلى كانت البقرة المرقّطة تبرك. كان الدم ينزف من أنحاء شتى في جسمها، وكان الزبد يتجمّع حول أسنانها وأنفها، وكانت ترتجف ولا تقوى على النهوض . . لقد تعرّضت للنهش من أنياب ذلك الكلب المسعور بلا رحمة ، ويبدو أنها كانت تعاني منذ فترة طويلة.

اقترب الرجلان منها . . كانت ترتعش ارتعاشة الرمق الأخير، فقد جحظت عيناها فجأة وتوقّفت عن الحراك. غامت عينا عبد الركيم ، وأشاح بوجهه ليداري رغبة جارفة بالبكاء.

اقترب الحاج حسين، وربّت على كتفه، وقال له:

ـ هيّا.

عادا يسيران بلا حماس. كان عبد الكريم منكّس الرأس.. لقد أحسّ بأن ثمة علامات كثيرة على سوء الطالع، وسوء ما تخفيه الأيام.

وكان الحاج حسين يحسّ بالانقباض. ويرى الدنيا سوداء، ويفكر هو الآخر بالآتي.. بالأيام القادمة.. بصخرة المجهول التي تسقط من عل.

* * *

عندما عادت العربة بركابها في المساء كانت ريح باردة تهبّ تاركة القشعريرة على الأبدان. كان خالد الزهر يوجّه العربة، وراضي يجلس صامتاً، وأم راضي تلقم ثديها للصغير ماهر، وأما فطيمة فقد هجمت على وجهها التجاعيد.. كانت تبدو هرمة.. هرمة للغاية.

وأما الرجلان فقد كانا يمتطيان فرسيهما ويسيران وراء العربة. كانا يسيران بلا حماس، وكان يبدو كما لو أن الريح تشدّهما إلى الخلف.

الفصل الثامن

وقعت إشارة أخرى من إشارات سوء الطالع. فبينما كان عبد الكريم الحمد يسابق الريح على صهوة فرسه الشقراء ذات الجيد النبيل المغطّى بشعر له لون الذهب، وبينما كانت الفرس المشنشلة، والمبرشمة، تكاد تطير على طول الطريق ما بين الحمّة وسمخ تعثّرت فجأة وسقطت.

طار عبد الكريم في الفضاء، ثم سقط على الأرض اليابسة. وتدحرجت الفرس فوق الأرض المليئة بالأحجار والحفر.

تحامل عبد الكريم على نفسه واقفاً، ووقفت الفرس الكريمة للحظة واحدة، ثم ارتمت على الأرض، وأطلقت عيناها أقسى تعابير الألم.

لقد انكسرت قائمة من قوائمها، فلم تعد تقوى على المشي ولا على الوقوف.

اقترب منها متحاملاً على نفسه. مسح جبينها، ومرّر يده على ناصيتها، وعلى شعر جيدها، وطبطب على كفلها، لكن الفرس لم تنهض، بل انبطحت على جنبها وهي تحمحم. انكسرت قائمتها الأمامية اليمنى، ما بين الركبة والحافر. انكسر معها قلب عبد الكريم. ازدادت الأوجاع وتراكمت الأحزان. فأية مفاجأة هذه التي لم تكن في الحسبان؟!

كـان يقف في الخلاء وحـده. الخلاء الـواسـع المـوحش. نـظر إلى فـرسـه الكريمة. المكسورة|وهو يكاد لا يصدق كيف حدث ذلك؟

هل يطارده الإحسـاس بالنحس، هـل وصل سـوء طالعـه إلى الحافـة؟ يا لنوائب الزمن هذه التي لا تسقط إلّا على أمّ رأسه!

عاد فمرّر يده على جبين الفرس الصبور التي لا بدّ أنها كانت تتحمّل في تلك اللحظات آلاماً لا تطاق. مرّر يده على جبينها وشعرها الأصفر الطويل، وإذ ذاك اعتدلت، وحاولت أن تنهض. حـاولت وحاولت، غـير أنها فشلت، فاستسلمت للأرض المليئة بالحصى والشوك.

اقترب عبد الكريم وبدأ يحـلّ رباط السرج الثقيـل المزخـرف، ورفعه عن ظهرها.

حين رفع السرج أحسّ كأن سكيناً ينغرز في صدره. . ما بين أضلعـه. إذ ذاك أدرك أنـه أصيب لدى ارتـطامه بـالأرض، وأدرك أن الإصابـة مـا زالت ساخنة، وعمّا قريب تبرد فيشتدّ الوجع.

نحّى عنها الخرج ذا الشراشيب الملونة، ثم الركاب النحاسي. .

وبعد ذلك حلّ اللجام، وفـك (الرشمـة) المصنوعـة من الصوف. وتـرك الفرس طليقة.

عنـدها استطـاع أن يرى التماعة الدمع في عينيهـا. لم تكن دابّة في تلك اللحظة. . كان لها عينا إنسان. كان لها نظرة طفـل يتوجـع. نظر حـواليه. . صمت وسكون وليس ثمة سوى خط سكة الحديد المهجور.

ماذا يفعل؟ ما زال أمامه بضعة أميال قبل أن يصـل إلى سمخ أو لكي يبلغ الطريق التي يمرّ منها الناس.

فكّر في أن يتركها ويمضي ليستعين بأصحاب الرأي والمشورة، ويعرف كيف

يتصرّف، لكنه كان يعلم تماماً ماذا يفعلون بالفرس الأصيلة حين تنكسر قائمة من قوائمها. طلقة واحدة من بندقية صيد وينتهي كل شيء..

أحسّ بالفجيعة. كانت لها عينا البقرة المرقطة قبل أن تسلم الروح عند حافة النهر.

عشت يا عبد الكريم حتى سئمت العيش.. وماذا بعد؟

انحنى والتقط (الرشمة) التي كانت تتدلى من رأسها.. الرشمة المجدولة من الصوف الملوّن وتتدلى منها الشراشيب. أمسك بها ومشى. مشى بضع خطوات ثم التفت. كان يستطيع أن يسمع الهدير في أعماقها.. اللهاث والحمحمة.. هل يتركها ويمضي؟

ربما تجوع أو تعطش.. لا، فمنذ ساعة أكلت من المراعي حتى أصابتها التخمة، وما زالت بقايا الحشائش الخضراء على سنابكها، وبين أسنانها القواطع.

إنه يستطيع أن يمشي قبل حلول المساء..

تركها ومضى. وترك معها السرج والركاب واللجام.. زفر بحسرة.. ومشى.

***

مشى مسافة طويلة، ثم صادف راعياً يركب بغلة، ويقطع الطريق ما بين (أمّ المصاري) وسمخ.. توقّف الراعي وأردفه وراءه، وأنزله عند (الكرنتينا). وعندما هبط بدأت الآلام تمزق صدره.

أحسّ إذ ذاك بوجع في الأضلاع اليمنى. الآن برد الوجع، وتبينّ أنه مصاب بكسور أو رضوض.

ذهب الراعي إلى حال سبيله.. كان في عجلة من أمره، كان يريد أن يصل إلى مقصده قبل أن يجنّ الليل.

تحامل عبد الكريم على نفسه، وظلت قبضته تمسك بقوّة (الرشمة) المشرشبة التي كانت تغطي رأس الفرس.

مشى بصعوبة، ففي كل خطوة يخطوها كان يتفجّر وجع ينبجس من باطن القلب. الوقت لحظة الغروب، والطريق ما بين الكرْنتينا وسمخ مقفرة. ليس ثمة سوى أعمدة الهاتف، ونباح الكلاب من الأطراف البعيدة.

مشى على الرغم من كل شيء، وأحسّ في لحظة من اللحظات أن قبضته ترتخي، وأحسّ بأن (الرشمة) قد تسقط، فتحامل على نفسه وبذل جهداً لكي يظلّ ممسكاً بها.

صار الوجع يطبق على القفص الصدري بلا رحمة.

غالب عبد الكريم الرغبة في الصراخ، وعندما لم يعد يقوى على السير جلس على الأرض. جلس وتكوّر على نفسه. وشدّ بأقصى قوة على (الرشمة) في يده كأنه يريد أن يضع حداً لما لا يطاق.

ظلّ يتكوّر على نفسه، لكن الوجع لم يفارقه.

كانت العتمة قد نشرت رداءها الأسود.

وطّن النفس على التحمل، فمشى. .ومشى، . ومشى. . وظل يمشي، ثم اندفع بخطوات سريعة، وهبّت نسمة على الطريق فتذكّر، على الرغم من الوجع، الفرس الشقراء الوحيدة المهملة على قارعة الطريق الترابي.

ها هو المجهول يطارده. تطارده اللعنات. تطارده الضباع، واليهود، والكلاب المسعورة، وحفر الطريق. . فماذا بعد ذلك كله؟

بعد قليل كان قد تعايش تماماً مع الألم الشديد. كان يستطيع أن يدرك أن مخرز الألم يثقب السطح الراكد من طاقة احتماله، وكان يدرك أن موجة عاتية من الصفير والعويل والولولة تضغط وتكاد تفجّر رأسه.

كيف ظل يمشي على الجمر؟

سقط عند مدخل البلدة. التقطه المارّة.. حملوه وقد غاب عن الوعي..

* * *

عندما فتح عينيه وجد نفسه في السرير محاطاً بعدد من الرجال. لم يستطع في البداية أن يعرف هؤلاء الذين يتحادثون حوله، والذين صمتوا عندما بدت منه حركة ما، وامتدّت يده إلى جبينه.

جاء صوت: إنه بخير..

صوت آخر: إنه يفتح عينيه.

صوت ثالث: اسألوه إن كان يقوى على الكلام.

كان يرغب في أن يثني رقبته على المخدّة ويغرق من جديد في النوم، لكن الألم عاد، وإن كان ألماً يشبه الخَدَر.

فركوا له جبينه، فركوا ما بين عينيه.

تحرك وحاول أن يعتدل، غير أن مخرز الوجع ثقب صدره. حاولوا مساعدته فصرخ لأنّ ثور الألم الهائج غرز قرنيه بلا رحمة.

ابتعد الرجال، واقترب وجه الحاج حسين.

أدرك أنه أمام صهره الذي أمسك بيده، وشدّ عليها مشجعاً:

ـ هل تستطيع أن تتكلم يا عبد الكريم؟

هزّ رأسه، وإن ظل يحاول عبثاً أن يفتح فمه.

اقترب وجه راضي، وعند ذلك امتلأت عينا عبد الكريم بالدموع.. وحاول أن يتكلم مرة أخرى. قال كلاماً متقطعاً.. لم يدر ماذا قال، لكنه تكلم.

وبعد أن تكلم حدث بعض الصخب. حدث جدل وكلام. وذهب أناس وجاء آخرون.

ثم وجد عبد الكريم نفسه بين أيدي ثلة من الرجال. خلعوا عنه ملابسه، وبدأ أحدهم يضغط بكفيه على قفصه الصدري. ومن جديد عاد ثور الألم ينطح بقرنيه، يرفعه عالياً عالياً ويحطّ به على الأرض.

صاح. استنجد، ثم كفّ عن الصراخ.

***

عندما فتح عينيه بعد ساعات كانت على صدره جبيرة، وكان (المجبّر) الذي يداوي بالطريقة التقليدية يقف منتظراً..

ـ والآن.. كيف تشعر يا عبد الكريم؟

الآن.. يستطيع أن يسمع جيداً. الآن يستطيع أن يتكلم أيضاً. الآن يستطيع أن يدرك أنه ينام على السرير في بيت صديقه الحاج حسين. الآن يستطيع أن يرى ويسمع ويشمّ.

ـ الحمد لله.. بخير.

عند ذلك عمد (المجبّر) إلى الباب ففتحه. دخلت أم راضي وفطيمة. وجهان ذابلان، وعيون محمرّة من كثرة البكاء.

هل مت وبعثت من جديد حتى تبكوا عليّ كل هذا البكاء؟

أشار لهما (المجبّر) أن تصمتا.

جلست أم راضي على حافة السرير، فيما ظلت فطيمة واقفة. التقت النظرات. حاول أن يبتسم.

كأنه غاب طويلاً وعاد بعد سنوات.

ـ الحمد لله على سلامتك يا عبد الكريم.

قالت أم راضي، وشدّت على يده.

كان يستطيع أن يقول شيئاً، وكانت لديه الرغبة في أن يتحدث، ولا سيّما

أبو عبدو البغل

بعد أن أدرك أنهم عالجوه على الطريقة العربية، وأن هذا المجبّر قد صحّح من وضع أضلاعه المكسورة.

- أين راضي؟

قالت: ذهب معهم.

وأدرك على الفور معنى كلمة ذهبوا. . . كان يستطيع أن يخمّن بسهولـة إلى أين ذهبوا. وسقطت عيناه على الرشمة الملقاة في طرف الغرفة، ولم يعد يرغب في الحديث.

تقدّم وجه فطيمة الآن. اقترب الحزن الذي يمشي على قدمين.

- سلامتك يا عمي.

هاله رؤية وجهها المليء بالتجاعيد فحاول أن يخفّف عنها.

- أنا بخير يا فطيمة.

وأغمض عينيه. هجمت عليه رغبة ملحّة بالنوم.

قامت أم راضي عن طرف السرير، وأشارت إلى فطيمة بالخروج.

* * *

عاد الرجال بعد منتصف الليل. .

عادوا جائعين، متعبين.

هبـطوا عن خيولهم، ودخلوا البـوابـة الكبـيرة التي ظلت مشرعـة من أول الليل.

اختلط الحابل بالنابل. عمّت الضوضاء. أشعل خـالد الـزهر القنـاديل. أفاق أهل البيت من نومهم. أوقدوا الفـرن من جديـد. انتشر الدخـان. بدأ الطبخ. خرجت الأرغفة الساخنة من الطابون، انتقـل الطعـام من الطنجـرة إلى الحنجرة. أكل الرجال على الرغم من غصّة في حلوقهم.

أكلوا وأحيوا الليل من جديد.

كان الحاج حسين بحاجة إلى السهر هـذه الليلة لكي يتغلب على وحـدته، فنفس الرجال، يحيى الرجال، والمرء كثير بإخوانه.

تسلّل راضي إلى العليّة، والصق أذنه بالباب.

لعله يسمع نأمة أو حركة.. ليتأكد إن كان خاله نائماً أو لا.. خـطر له أن يطرق الباب، لكنه لم يفعل. أدرك أن خاله كـابد هـذه الليلة من الآلام ما لا تتحمّله الجبال.

أدرك أن خـاله يغط في نـوم ثقيل فـلا يصحـو عـلى الـرغم من كـلّ هـذا الضجيج.

* * *

كان راضي معهم عندما انطلقوا إلى طريق الحمّة، هناك في مـوقع لا يبعـد كثيراً عن مستعمرة (شعـارها غـولان)، حيث كانت الفـرس المكسورة تـبرك وتكابد الآلام بصمت.

لقـد انتشروا في السهـول في هـذه الليلة المقمـرة بحثاً عنهـا، ولم يـطل بحثهم، فقد وجدوها، ووجدوا إلى جانبها السرج والركاب واللجـام والخرج و...

هبط (محمـد الجفل) عن حصـانه، وأقبـل على الفـرس يتفحّصها. محمـد الجفـل خبـير في معـالجـة الخيـول. إنـه حجّـام ومـطهـر أولاد ومجـبّر ومـداوٍ بالأعشاب.

انحنى عليهـا يتفحّصها، وسـاعده الـرجال عـلى رفعها. قـاومت الفـرس مقاومة ضعيفة، غير أن الرجال الذين أحاطوا بها تمكنّوا من رفعها.

فحص محمد الجفل ساقها، ثم رفع رأسه قائلاً:

ـ لا فائدة.

هكذا إذن انتهت الأمور.

ركب الـرجال جيـادهـم، وعادوا من حيث أتـوا، تـاركـين وراءهـم محمـد الجفل ليطلق على الفرس المكسورة رصاصة الرحمة.

لم يشأ أيّ منهم أن يرى المشهد.

امتـطوا ظهور جيـادهم وكأنهم يهـربون من أنفسهم. تـركوا محمـد الجفل ليطلق من بندقية الصيد طلقة بين عينيها.

* * *

هبط راضي الدرجات وعاد إلى المضافة.

جلس بين الرجال صامتاً.

وعنـدما خـرج الـرجـال وأصبحت المضـافـة فـارغـة، عنـدمـا تـوقفت الضوضاء وعم الهدوء الشطر الأخير من الليل، قال الحاج الحسـين لولـده: لماذا لا تنام يا ولدي؟

وكان راضي يعلم أنّ والده يعاني من الأرق مثلما يعاني هو، لذلك أجـاب باقتصاب:

ـ لا أشعر برغبة في النوم.

ولعـلّ الحاج حسـين أدرك أن ولده قـد بـدأ يـدرك ويفهم ويعـاني، فلم يزجره، وإنما قال بحنوّ:

ـ إذن تجلس معي إلى موعد أذان الفجـر، فنذهب للصـلاة، ونعود للنـوم حتى الضحى..

راقت له الفكرة، فابتسم، وهزّ رأسه موافقاً.

كان الصمت والظلام يخيّمان، وهدّ التعب خالد الزهر فنام.

ـ هل تفقّدت خالك؟

ـ إنه ينام.. يغرق في النوم فلم يستيقظ منذ أن غادر المجبّر البيت.

وبعد ذلك صمتا . . امتدّ حبل الصمت طويلاً . .

كان الوالد يكاد يرى ما يدور في أفكار ولده .

وكان الولد يدرك ما يدور في ذهن والده، كان يصيخ السمع ، ويشعر كأن ضجيج (بابور البحر) يهدر في أعماق هذا الشيخ الصبور.

الفصل التاسع

عمّ سوء الطالع البلدة بأسرها، فعند الفجر اندلع القتال في طبريّة، رهزّت الانفجارات المدينة ، وتردّد صداها في سمخ.

خرج الناس إلى سطوح البيوت، وإلى (عراق) الشاطىء، وصعد منصور إلى سطح المحطة ليراقب بالمنظار ما يدور في المدينة القريبة.

وسأله حامد أبو حامد من أسفل عمّا يشاهده فقال: النيران تشتعل في كلّ مكان.

لم تكن إجابة شافية، لذلك صعد حامد أبو حامد إلى سيّارته واندفع بقوة إلى الطريق المؤدي إلى جسر (باب التم)، حيث يخرج نهر الأردن من البحيرة بعد أن يكون قد اخترقها من شمالها إلى جنوبها دون أن يختلط ماؤه بمائها.

وقف عند أكواخ الصيّادين الذين لم يخرجوا هذا اليوم إلى الصيد، وكان شيخهم أبو عبد الله يجلس بالقرب من زورقه خلف لوخ التنك، يحيط به عدد من رجاله يشربون الشاي وينتظرون..

ماذا كانوا ينتظرون؟ لا شيء، وربما كانوا ينتظرون المجهول..
وينتظرون المزيد من سوء الحظّ ومن الكوارث.

وفي الوقت ذاته كانت مياه البحيرة شديدة الزرقة. كانت صفحة الماء رقيقة ناعمة مثل بطن غزالة.

شـدّت نظراتـه الطيـور البيضاء التي هجـرت شاطىء طـبرية بعـد أن أثار ذعرها دويُّ القنابل.

كانت تطير على علوّ منخفض وتبحث عن رزقها.

قال الشيخ أبو عبد الله: الوضع عصيب هناك، اليهود أكثر من العرب.

وأضاف أبو حامد: وهناك أيضاً قوات (الهاغانا) المدرّبة..

وفجأة ظهرت في الفضاء الطائرة المائية. حمل الهواء هدير محركاتها، ثم ظهرت فجأة.

كانت الطائرة نفسها ذات جناح من طبقتين.

دارت دورة واسعـة، وصنع دخـانها قوسـاً في الفضـاء، ثم بـدأت تهبط، وحطّت بزلاجتيها على الماء، شاقّة طريقها وسط الأمواج، تاركة حـولها مـزيجاً من الـزبد والـرذاذ، ثم توقفت عـلى المـدرج المخصّص لهـا بـين الـبراميـل الطافية.

لم تـأت الطائـرة إلى هذا المكـان منذ فـترة طويلة، منـذ أن أخلى الإنجليـز معسكر قوّة الحدود، فلماذا تحطّ الآن؟

قال أبو عبد الله: لأمرٍ ما جاءت هذه الطائرة.

ازداد شعور أبو حامد بالمرارة، كأنه يفقد الأمل في كل شيء. عاد ينظر إلى البحيرة. إلى تلك البقعة التي حرثتها زلّاجتا الطائرة. وفي تلك اللحظة ظهـر زورق سريع قادماً من الشمال. كان يشقّ العباب بسرعة الطائرة.

* * *

طال تحديق منصـور في (الدربيـل) الذي يقـرّب المسافـات البعيدة. ظـل يصـوّب العدسـات نحو طبـريّة، نحـو البنـايـات التي تقـترب من الشـاطىء والبنايات التي تبتعـد عنه. نحـو مستشفى (طورنس)، والمـدرسة الثـانويـة، وملهى الليدو. وكان الدخان يتصاعد من مكان ما في البلدة القـديمة. هنـاك وراء السور القديم الذي تنبت على حجارته الطحالب الخضراء.

طال تحديق منصور في (الدربيل) من فوق سطح القرميد الأحمر لمبنى المحطة التي هجرها القطار، وهجرها الباعة، ومخلصو البضائع والحمّالون، ولم يكن يستطيع أن يفهم شيئاً. كل الذي استطاع أن يلمّ به هو أن طبريّة مثل علبة الكبريت التي اشتعلت كلّ عيدان الثقاب بداخلها.

وعندما قرّر النزول ترك (الدربيل) المربوط بحزام جلديّ رفيع يتدلّى على صدره.

جاء أزيز الطائرة. الطائرة المائية الإنجليزية التي كانت تقوم بأعمال الدوريّة أو تنقل الضبّاط أيام معسكر قوّة الحدود.

سمع أزيزها فرفع رأسه إلى السماء المشمسة، وواجه بصره الشمس فعشيت عيناه، وغابت الرؤية للحظات، ثم لاحظها عندما دارت على هيئة قوس، وعندما بدأت تهبط رويداً رويداً حتى حطّت على الماء مثلما يفعل الأوز البرّي. صوب عدسة (الدربيل) نحو المدرج المائيّ حيث البراميل الطافية.

أخذت الطائرة تتهايل، ثم التصقت برصيف الإسمنت. رأى من خلال العدسة وجه قائدها، ثم شاهد الزورق السريع الذي يشقّ العباب مقبلاً نحوها، وقد خفّف السرعة عندما أصبح قريباً، ثم توقف بإزائها.

ويبدو أن حديثاً دار بين سائق الزورق وبين ربّان الطائرة، ثم دار الزورق دورة واسعة، وعاد فتوقّف عند رصيف الإسمنت وأطفأ محركاته.

مطّ منصور شفتيه، ولم يستطع أن يجد تفسيراً لما يجري. وفي هذا الوقت كان الأولاد الذين لا يحلو لهم اللعب إلاّ في الساحة المواجهة للمحطّة قد تجمّعوا. جذب انتباههم صوت الطائرة فأقبلوا، وبدأوا يتشاورون للذهاب صوبها.

في الماضي كانوا يندفعون زرافات ووحداناً إلى الشاطىء للفوز بواحدة من

الهدايا التي يقدّمها قائد الطائرة لهم. يخلعون جلابيبهم ويرمون بأنفسهم في البحيرة. يسبحون نحو الطائرة ليفوزوا بعلبة بسكويت أو لوح شوكولاته. وفي معظم الأحيان كان قائد الطائرة يلقي لهم بقطع النقود ليغوصوا إلى الأعماق ويلتقطوها . لكنهم في هذه المرة يتردّدون. ينتظر كل منهم الآخر. يتجمّعون ليشدّ كلّ منهم أزر الآخر، وكان مما يزيد خوفهم أصوات القذائف البعيدة.

كانوا أولاداً ذوي خبرة، يعرفون متى يكون الخطر محدقاً، لذلك ظلّوا يتشاورون، منهم من يشدّ ومنهم من يتراخى. منهم من يطلق العنان للمغامرة، ومنهم من يرشّ الماء البارد على جذوة الحماس، وهكذا بين التردّد والإقدام ظل الأولاد يقفون على حافة الشاطىء.

* * *

وجد الكلب (الذيب) البوابة الكبيرة مفتوحة فخرج. . كان قد بحث عن شيء يأكله في البايكة، فوجد عظمة في صحن العشاء الذي تناوله خالد الزهر في آخر الليل. كانت عظمة كبيرة. فحاول أن يعالجها من كل الأطراف لكنه لم يستطع، فخرج يبحث عن رزقه.

خرج من البوابة الكبيرة. مشى في الأزقّة الضيّقة. مرّ من بين أولاد يلعبون بالكرة. أبطأ السير وهو يراقب الكرة التي تطير في الفضاء وتحطّ على الأرض، ثم تطير في الفضاء.

ومشى من جديد. فتحت امرأة الباب في نهاية الزقاق، وكان صدرها عارياً. . كانت تحمل بين يديها سطلاً به ماء الغسيل. كانت مرتبكة وخائفة من أن يرى الرجال شعرها أو صدرها الأبيض. لذلك ألقت بالماء الذي لا حاجة لها به على قارعة الطريق.

في تلك اللحظة كان الذيب قد أصبح وجهاً لوجه أمام رشق الماء، فابتلّ

من أرنبـه أنفه إلى آخـر شعرة في ذيله. فـوجىء فنبح. أغلقت المـرأة الباب، وظل الماء ينقط من أذنيه ومن فروة ظهره.

نفض عن نفسه الماء، وأسرع مبتعداً، يبحث بالغريزة عن حزمة شمس.

وصل إلى الساحة التي تعجّ في العادة بالناس، وبالحوانيت التجارية، ولكنها في هذا اليوم ظلّت فارغة.

توقّف أمام ملحمـة (أبو عصـهان الشوا) المغلقة. مغلقة تماماً، فـلا اللحم يتدلى من الكلاليب ولا الشواء ينضج فوق الفحم.

أقعى عـلى ذيله أمام دكـان عبد الكـريم الحمد المغلقـة، وظلّ يحـدق هنا وهناك دون أن يذعره صوت القذائف الذي يصل من بعيد.

أثـار انتباهـه أصوات الأولاد يلعبـون. انتصبت أذنـاه، وأدرك أن اللعب يجري هناك وراء المحطة.

كان قد بدأ يجفّ فانـطلق يعدو، واستـدار فإذا بـه أمام تجمّـع للأولاد الذين يشبكون أذرعهم، ويشكلون سلسلة على هيئة قطار.

وكـان منصور الـذي هبط عن السطح وتـرك المنظار يتـدلّى عـلى صـدره يجلس على الكرسي (الهزّاز) الذي أخرجه من غرفة المدير، ولـيراقب الأولاد. وبين الفينة والأخرى كان يأخذ نفساً من السيجارة التي لا تفارق إصبعيه.

أقعى الذيب أمامهم. كانوا يعرفونه، لذلك لم يخافوا منه، ولم يخف منهم، واقترب أحدهم ومرّر يده على فروة ظهره.

بعد قليل تجرّأ الذيب وبدأ يقفز بينهم، ثم صار يتقدّمهم أو ينتظر قطارهم إلى أن يمرّ فيلحق به.

وعنـدما ابتعـد قطارهم عن المكـان، وتوجّـه نحو عـراق الشاطىء، بـدأ الذيب يقفز في الهواء ويقوم بحركات بهلوانية وهو يركض أمامهم..

عندما وصل الأولاد إلى الشاطىء توقفوا وانفرط عقدهم.

تحدثوا بأصوات مرتفعة وهم يشيرون بأيديهم نحو الطائرة. علا ضجيجهم، إلاّ أن أيّاً منهم لم يخلع ثوبه وينزل إلى الماء.

طال مكوثهم دون أن يفعلوا شيئاً فانسلّ الذيب من بينهم وعاد أدراجه.

عاد من أمام المحطة. كان منصور قد هبط عن الكرسيّ الهزّاز وجلس على الأرض. أخرج من (زوّادته) الطعام وأخذ يأكل.

توقف الذيب بإزائه. توقّف وهو يلهث وقد تدلّى لسانه.

نظر إليه منصور مبتسماً، ثم ألقى إليه بقطعة خبز مغمسة بالمرق، فأسرع والتقطها، وأكلها بشهية. ابتلعها دفعة واحدة، ووقف ينتظر.

ألقى له بلقمة ثانية، وهكذا..

بعد أن شبع بسط الذيب ذراعيه، ومدّ رأسه على بلاط المحطّة، وأغمض عينيه.

كان صوت القذائف قد توقّف.

عاد منصور إلى الكرسي (الهزّاز)، وأخذ ينظر بحنوّ إلى هذا الكلب الأبيض الجميل. يتذكّره وهو جرو صغير عندما أحضره خالد الزهر من بيت مدير (الكرنتينا). كانت أمّه من نوع (كانيش)، وكان أبوه واحداً من الكلاب البلدية. وقد أحضره خالد الزهر وتعهّده بالرعاية، وظل يكبر يوماً بعد يوم حتى أصبح يشبه جحشاً صغيراً.

ها هو (الذيب) كبيراً.. يتمدّد بجانب الكرسي، يسترخي بعد الأكل، ويخلد للراحة.

* * *

حطّ سرب من الطيور البيضاء على القرميد الأحمر فوق سطح المحطة.

جاء من الغرب ورفرف فوق البساتين، ثم حطّ على السطح القرميدي الأحمر.

ما الذي جذب انتباهه وجعله يحطّ في هذا المكان؟ إنها من الطيور المهاجرة التي تأتي في مثل هذا الموسم من كل عام بحثاً عن الدفء، وهرباً من الصقيع.

راقبها منصور وهو يجلس على الكرسيّ (الهزّاز)، والتقطت أذنا الذيب حفيف أجنحتها ففتح عينيه، وهبّ واقفاً.

كان النهار ما يزال في أوله، وكانت تلك الطيور البيضاء ذات المناقير الطويلة تنعم بهذا النهار الدافىء، وتزهو بريشها الأبيض الناصع.

لم يشأ أن يثير ذعرها. تركها تمكث بهدوء في المكان الذي اختارته. وأشار إلى الذيب بأن يعود إلى هدوئه، فبسط ذراعيه من جديد، وأخلد إلى السكينة.

في تلك اللحظة أقبلت السيارة الصفراء من بعيد. أقبلت يسبقها صوت محرّكها وبوقها الناعم.

أقبلت مثيرة بعض الغبار الخفيف، وحتى هذا الضجيج لم يثر ذعر الطيور التي ظلت ساكنة.

هبط أبو حامد، وطرح السلام.

ـ هل رأيت الطائرة هناك؟

أومأ بالإيجاب، فأضاف أبو حامد:

ـ إنها تحمل أسلحة لليهود في طبريّة.. هل شاهدت الزوارق؟

ـ شاهدت زورقاً واحداً.

ـ لقد أصبحت ثلاثة.. إن الصناديق تُنقل من الطائرة إلى الزوارق..

لقد رأى شيخ الصيادين ذلك بأمّ عينه.

توقّف الكرسيّ عن الاهتزاز. واعتدل منصور في جلسته.

ـ لكنني لم أعد أسمع أصوات الانفجارات والرصاص، ولا بدّ أنّ وراء الأكمة ما وراءها.

أخرج منصور علبة السجائر من نوع (برنجي)، وأشعل سيجارة. سحب منها نفساً، ونفث الدخان من فمه ومن فتحتي أنفه.

ـ الوضع صار يبعث على الخوف. . ماذا سيفعل جيش الإنقاذ. . ماذا ستفعل الدول العربية؟

ثم أضاف:

ـ وأين المفتي يا أبو حامد؟

ـ الله يساعد المفتي ويكون في عونه. . إنه الآن في الشام يحاول الحصول على السلاح. .

أظهر منصور نوعاً من اللامبالاة، وأحسّ أبو حامد أن منصور لم يقتنع بحديثه، وعند ذلك تذكّر الطاهر، رآه بعين خياله، يلفّ رأسه بكوفيّة بيضاء، ويتمنطق بالسلحلك، وتتدلّى من حزامه القنابل اليدوية، وهو يقف وراء (استحكام) فوق سور من أسوار القدس.

ورفرف طائر من تلك الطيور البيضاء وطار فتبعته بقية السرب، فأيقظ حفيف الأجنحة الذيب من جديد، فاشرأبّ برأسه ينظر إلى الفضاء، وتابع السرب الذي انتقل نحو البساتين.

قال أبو حامد: سأذهب لزيارة عبد الكريم الحمد. . هل تذهب معي؟
كان منصور قد بدأ يسأم، وبدأ يشعر بأن النهار أطول مما ينبغي، فأجاب على الفور:

ـ انتظرني. . لحظة واحدة.

وأسرع يُعيد الكرسي (الهزّاز) إلى غرفة المدير، ولبس جاكتته الرسمية

ذات الأزرار الصفراء، وحثّ الكلب على الانصراف، وأسرع إلى السيارة الصفراء. وركب بجانب أبو حامد فانطلقت الفورد مثيرة عاصفة صغيرة من الغبار.

* * *

وقف الذيب على المصطبة يراقب هذا الفراغ، يراقب قضبان سكّة الحديد التي تمتدّ إلى آخر نقطة يدركها البصر.

ظلّ يقف حائراً، ثم دار حول المحطة وهو يشمّ الأرض فتفعم أنفه رائحة الأعشاب المنتشرة حول المبنى.

وجاء ضجيج الأولاد فجأة.. لقد عادوا من جديد.. عادوا يبسطون أذرعتهم ويدورون حول أنفسهم ويصدرون أصواتاً تشبه أزيز الطائرات.

هبّ الذيب على رجليه، شبّ في الهواء كأنه يعبّر عن أقصى حالات المرح.

كان الأولاد يقلّدون الطائرات، ولكنهم في تلك اللحظات كانوا يشبهون الفراشات الصغيرة الملوّنة. نطّ الذيب هنا وهناك بينهم. اندمج بهم فتركوه يشاركهم اللعب.

ويا لروعة الصدفة! فقد عاد سرب الطيور البيضاء يحلّق فوق المحطة، فكأنّ هناك تناغماً ما بين حركة الأذرع ورفيف الأجنحة.

دار السرب دورة واسعة، ثم مضى إلى عمق البحيرة كأنه حيّا الأطفال لدى مروره في فضائهم، وواصل طريقه.

هلّل الأولاد، وقفزوا في الهواء كأنما يريدون أن يقبضوا على الفرح بأصابعهم الطريّة.

وأظهر الذيب أعلى أشكال السرور فطارد الكرة الصغيرة الخفيفة قافزاً

من فوق حاجز خشبي مبدياً مهارته، ثم وقف يبصبص بذيله يحركه يميناً وشمالاً وينتظر فرصة مواتية للدخول من جديد في اللعب.

ولعل الأولاد قد بدأوا يجوعون، ولا بد أن الجوع قد عضّهم، فانسحبوا من الساحة الواحد تلو الآخر.

ووجد الذيب نفسه وحيداً، وقد يكون تذكّر البيت في تلك اللحظة فانسحب هو الآخر من الساحة وعاد يهرول أمام الدكاكين المغلقة، ثم دخل في الأزقة عائداً إلى البيت.

ثمة في الزقاق أطفال يلعبون، ومجموعة من الصيصان ذات الريش الأصفر تسير وراء أمها الدجاجة.. والدجاجة السمينة تمشي بحذر. تمشي وتراقب القطة التي تدور في خيالها فكرة الانقضاض.

ويبدو أن المرأة التي كانت في الصباح تعرّي صدرها وذراعيها وتفوح منها رائحة الماء الساخن والصابون، والتي دلقت دلو الماء المتخلّف من غسيل الملابس، يبدو أنها قد أنهت عملها، واستحمّت، ولبست ثيابها النظيفة، وغطّت شعر رأسها بشال من القطن، وخرجت لتؤدي زيارة.

ولعلها تذكرت فعلتها عندما رأت الذيب يحيد عن طريقها فظهر على شفتيها ما يشبه الابتسامة. رمقته بطرف عينيها وواصلت المشي.

شمّ الذيب الرائحة النفاذة المنبعثة من ثيابها وشعرها فالتفت وراقبها وهي تمشي بصندلها ذي الكعب العالي، إلى أن اختفت.

أكمل الذيب سيره وقد أدركته الوحشة.

كان باب (الخويخة) مفتوحاً، وقد عادت العربة، وكان الحصان يشرب الماء من الحوض الذي وقف على حافته عصفور يشرب أو يبلّل ريشه.

خرج خالد الزهر من داخل البايكة، وحينما وقع بصره على الذيب صاح به موبخاً.

لقد غاب طويلاً عن البيت هذا اليوم. وأدرك الذيب أنه مذنب فانزوى في أطراف الحوش بصمت.

اكتفى خالد الزهر الطيّب القلب بهذا القدر من التوبيخ، ثم مضى إلى شأنه.

وعبّر عن غضبه من الذيب بأن ابتعد عنه، ولم يمرّر يده على فروة رأسه كالعادة.

* * *

في المضافة كان الرجال يجلسون ويتناقشون، وحامد أبو حامد يسرد لهم المرّة تلو المرة رواية الصيّاد الذي تأكّد بنفسه من صناديق الأسلحة التي أفرغتها الطائرة في الزوارق، وحلف أغلظ الأيمان أنه شاهد صندوقاً وقع عن طريق الخطأ يستقرّ في قاع البحيرة.

وكان عبد الكريم الحمد يخفي الجبيرة العريضة فوق صدره بعباءته السوداء ويسند ظهره إلى مسند من الصوف لا من القشّ مراعاة لوضعه الصحي.

وأمام الحضور كان يتمدّد رشّاش من نوع (تومي جن) أحضره الأستاذ أمين المعلم في المدرسة الابتدائية كعهدة من اللجنة القوميّة.

كانت اللجنة القومية قد أعلنت حالة الاستنفار، وخرج المنادي إلى أطراف القرية يعلن لكل من يملك سلاحاً أن يحضر الاجتماع الذي تعقده اللجنة القومية في المساء.

كان الحاج محمود شتيوي قائد المجاهدين أيام ثورة ٣٦ يشرف بنفسه على حفر الخنادق وبناء الاستحكامات بموازاة خط سكة الحديد.

لم يكن هناك نظام عسكري في البلدة، فقال الحاج حسين: يجب أن نبني في المستقبل قوة عسكرية مدرّبة.

قال حامد أبو حامد: سيأتي الطاهر ذات يوم وينظّم كل شيء.
قال الأستاذ أمين: لو انضممتم إلى (النجادة) لحللنا المشاكل.
فتنفّس منصور وقال: سيعود القطار ذات يوم.. سيعود.

عند ذلك هدرت محرّكات الطائرة. حملت الرياح أزيزها فأسرع راضي إلى السطح، ورأى الطائرة وهي تندفع فوق الماء بزلّاجتيها، وقد اختفت الزوارق ولم يعد يبدو لها أثر.

ارتفعت الطائرة ودارت دورة واسعة مبتعدة شمالاً. جفل الحصان وتوقّف عن الشرب. طار العصفور. دخل الذيب البايكة واقترب من الحائط.. مال بجسده ورفع رجله إلى أعلى وبال على مهل.

الفصل العاشر

من أوراق عبد الرحمن العراقي

عاد أسد الشهباء.

عاد بعد أن غاب أسبوعاً كاملاً.

عاد من وراء أفق الياسمين، والحبق، والورد الجوريّ. وكان حاملاً معه علبة من الفواكه الجافة، وعلبة أخرى فيها حلوى البرازق بالسمسم.

عاد عليل المزاج، قلقاً، وظل زاهداً في الكلام.

ما وراءك يا أسد الشهباء؟

وبعد تردّد تحدّث عن جنازة الرئيس مأمون. وصف الموسيقى النحاسيّة. أكاليل الورد. عربة الجثمان. فرق الكشافة. مندوب وزارة الدفاع. ممثل قائد الجيش العام. أقارب الشهيد. النساء اللواتي يلبسن ثياب الحداد.

ومضت السهرة في وصف الجنازة، مراسم الدفن، استقبال المعزّين الذين جاءوا من أبو رمانة، القصاع، البزورية، باب توما، البريدي، العمارة، باب شرقي، باب المصلى، الشيخ محيي الدين، الحريقة، ومن قرى الغوطة، نواحي دمر والهامة، سهل الزبداني، ومن درعا والشيخ مسكين، ومن حمص وحماة وحلب ودير الزور وجسر الشغور.

ظل أسد الشهباء يصف ويعدّد الأماكن وأسماء العائلات، والشخصيّات، وشيوخ العشائر الذين شاركوا في الجنازة أو جاؤوا للتعزية.

وظـلّ يتكلّم ويصف حتى دمعت عيناه، ودمعت أعيننـا، وطوينـا الجفون على حزن تجدّد لرحيـل بطل عـرفنا وعـرفناه، وكـان من الجرأة بحيث أشهـر بندقيته واقتحم الأفق الذي يندلع فيه اللهب.

* * *

في اليوم التالي لـوصولـه أخرج الهـدايا من حقيبتـه. فتح علبـة الفواكـه المجفّفة ووزّع علينا تلك الفواكه اللذيذة التي لا تشبه إلاّ مـذاق (القيمر) في فطور صباحيّ بغدادي. ثم وزّع علينا بعض الملابس الداخلية المصنوعـة من القطن.

وفيما كنت ألوك الحلوى في فمي تساءل أسد الشهباء:

- هل عرفتم أخبار نجيب؟

صمتنا. كان يجلس في الخيمة خمسة رجـال سوانـا، وكانـوا جميعهم يحبون نجيباً، ويسألون عن أخباره في قلق.

قال أحدهم: نجيب هناك.. يدافع عن المدينة القديمة.

قال الثاني: إنه يقاتل وراء الأسوار..

قال ثالث: سيعود ذات يوم.. لا بدّ أن يعود.

والحق أنّ أحـداً لم يره، وأن أحـداً لا يعـرف عنـه شيئـاً.. أمـا زال عـلى الأرض أم أن روحه صعدت إلى السماء؟. لا أحد يدري!.

وحـين التقت نظراتنـا كان كـل منّا يـدعو في أعـماقـه: ليكن الله معـه، وليمتلىء قلبه بالقوّة، ولتسكن الراحة نفسه أينما كان، ذلك الرجل الشجاع.

أمضينـا السهرة في تلك الليلة نتـذكّر المعـارك التي شاركنـا بها، والمـواقف الحرجة التي واجهناها، والأسلحة التي تنقصنا، والاضطراب الذي بدأ يلحق بـالأفـواج والسرايـا، وقلة الإمكـانيـات التي تحـول دون تجنيـد المـزيـد من المتطوعين.

* * *

في الليلة الثالثة أخرج أسد الشهباء من جيبه الحجاب المطويّ على شكل مثّلث، والمغلّف بقماش أخضر. . إنه الحجاب الذي أهدته إليه (ملك)، والذي كتبه الشيخ عزّام المجاور لمقام الشيخ محيي الدين بن العربي، ليكون حرزاً يقيه الشر.

أخرج الحجاب من جيبه، وكان ذلك يعني استعادة ذكر (ملُك).

ما الذي جعلها تخطر على باله في الليلة الثالثة؟

كان ـ كما يبدو ـ يريد أن يقصّ عليّ شيئاً من حكايته المتجدّدة معها، لكنه لم يفعل ذلك. لقد كان يرغب في أن يحتفظ بأشيائه الخاصة ولا يبوح بها.

أعاد الحجاب إلى جيب قميصه، هناك على الجانب الأيسر من صدره. . تماماً عند القلب.

* * *

في الليلة ذاتها، بعد أن انتصف الليل صدر لنا أمر بالعودة على عجل إلى ضواحي القدس.

كانت أخبار المعارك تَرِدُ إلينا من خلال البيانات التي تصدرها القيادة، ويعيد بثّها راديو الجيش. معارك في جبهة طولكرم، ومنطقة العفولة، واستعدادات في زرعين.

الخطر يحدق بيافا وحيفا وبيسان وطبرية وصفد.

تحرّك الرتل في وقت مبكر من الفجر، لقد تعوّدنا الرحيل والتوقّف والانتقال وقلة النوم، وقلة الإمكانيات، وضعف التسلّح، وندرة الذخيرة.

رافقتنا مفرزة من متطوّعين جاؤوا من اليمن، وتونس، وليبيا، والجزائر، والمغرب الأقصى، مفرزة تم تدريبها على عجل، وقيل لنا إنها ستلتحق بمقرّ القيادة إلى أن تكتسب المزيد من الخبرة.

كنّا نجلس في مقعدين متقابلين لناقلة جنود تجرّ وراءها مدفع ميدان. لم

يكن في صنـدوق العربـة أحد سـوانا، ومـع رائحة الصبـاح النقيّ المضمّخ بعـطر الحقول والـطيب المنبعث من الزهـور البرّيّـة والنـدى المقـطّر فـوق الأعشاب، أخذ أسد الشهباء يتكلّم، وكنت أستمع إليه بشغف.

لقد ذكّره مدفع الميدان المربوط بهذه الناقلة بذلك المدفع المقطور بالعربـة التي سُجّي فوقها جثمان الرئيس مأمون.

عـاد يسرد وصفاً للجنـازة. وذكراً للوفـود التي جاءت للتعـزية. أكّـد أنـه اصطحب خاله والعم حدّو إلى بيت التعزية الذي كان يزدحم بالناس.

عندما علم خالي بمرافقتي جثمان الرئيس مـأمون، خفّ مـع من خفّ من ناس لاستقبالنا عند منطقة الكسوة. كان جمهور كبير بانتظارنا. خيّالة، راكبو دراجات.
سيارات أجرة. مجـاهدون قـدماء من الغـوطة، ومن جمـاعة الشيـخ محمد الأشمر، ومن جماعة الشيخ سلطان باشا الأطرش.

أطلق المجاهدون (زخّات) من الرصاص تحيّة للشهيد، وتحوّل الموكب إلى تظاهرة كبـيرة. ووسط هذا الـزحام وجـدت يداً تحطّ عـلى كتفي. كانت يـد خالي. كانت يد خالي الذي عانقني والدموع تنهمر من عينيه.

في تلك الليلة عدنا متأخرين إلى بيت خالي في المدينـة القديمـة. نمت نومـاً عميقاً، وكان يتعين عليّ أن أفيق مبكـراً لكي استحمّ، فوجـدت زوجة خـالي قد غسلت ملابسي وأعدّت لنا طعام الإفطار.

أكلت لأول مرة منذ شهور طويلة المكدوس بـالزيت، واللبن المصفّى، ومعقود السفرجل.

لم يذهب خالي في اليوم التالي إلى العمـل، ويبدو أنـه اتفق مع العم حـدّو على أن يذهبـا للمشاركـة في الجنازة، فبعـد الإفطار جـاء العمّ حدّو. احتسى القهوة معنا، ثم توكلنا على الله وخرجنا للمشاركة في التشييع.

لم أسمح لنفسي بأن أفكر كثيراً بملك أو أسأل عن أخبارها. كنت مستغرقاً في جوّ الشهادة. ولذلك لم يكن هناك من حديث سوى وصف الطريقة التي استشهد بها البطل، وحتى امرأة خالي التي كانت تحرص على لفت نظري احترمت حالة الحزن الجليل التي أعيشها. ولم تُشر إلى ملك، لا بالتصريح ولا بالتلميح.

تمّت مراسم الدفن على كل حال في مقبرة الشهداء، ولشدة الازدحام أضعت خالي وأضاعني.

ركبت العربة العسكريّة التي عادت بجوقة الموسيقى، وأنزلتني عند باب المصلّى حيث أكملت السير على قدمي إلى بيت خالي.

ويبدو أنني قد وصلت قبلهما. أعدّت لي زوجة خالي كأساً من الليمون، وعادت سريعاً إلى المطبخ لتضع اللمسات الأخيرة على طبيخها الذي كان ينضج على مهل.

وعلى مائدة الغداء اجتمعنا من جديد، أنا وخالي والعم حدّو. أكلنا بلا شهية، وكان كل واحد منّا غائب الذهن، شارداً، ذاهباً إلى حيث تنفيه أفكاره.

بعد الغداء حاول خالي أن يجمعنا من جديد، أن يربط الحديث ويعيد الألفة، فأخذ يسألني عن الحرب في فلسطين، وعن المعارك التي شاركت بها، وعمّا سيحدث في المستقبل عندما تدخل الجيوش العربية بعد أن يرحل الإنكليز.

ولا أدري كيف فتح الله عليّ بالحديث. تكلّمت عن الحرب وأسلوبها، السلاح وأنواعه، الخطط العسكرية وتطبيقها. وصفت السهول والجبال، الزهور والبقول، القرى والمستعمرات، لحظات القلق ولحظات الخوف، حالات الجرأة واقتحام النار، أيام الاشتباك والخروج من الحصار. حكيت

عن الطائرات التي تبصق النار، والمدافع التي تقذف الحمم، والألغام التي تهدّ الجبال.

شدّ حديثي انتباه الرجلين فواصلت الكلام، وأكملت السرد، وأطنبت في الوصف.. وفي نهاية الجلسة كان خالي ينظر إليّ بفخر، ثم ينظر إلى ضيفه كأنما يقول له: أرأيت؟!

* * *

عدت إلى منزل خالي في اليوم الثالث من وصولي ففوجئت بمجيء والديّ من حلب. وصلا لتوهما بعد سفر طويل. يا لهذه المفاجأة ويا لهذه العاصفة من العواصف التي تجتاحك في مثل تلك اللحظات. بين الفرح والبكاء أمضينا سهرة طويلة، وانضمّ إلينا في وقت من الأوقات العم حدّو وزوجته. وبعد حين جاءت ملك. جاءت وهي تعقد حول شعرها منديلاً أحمر أضاء صفحة وجهها الأبيض، وتلفّ جسدها الرشيق وقامتها الفارعة بثوب دمشقي مقصّب.

وكأنما حضورها كان بتواطؤ ما بين أمّها وزوجة خالي، فقد لَفَتَ دخولها الأنظار. كأن ملاكاً هبط من السماء، فسبحان الخالق الذي أبدع هذا الجمال!

وقد انفصل الرجال عن النساء بعد دخولها بقليل، إذ انتقلنا إلى الغرفة الأخرى لسماع الأخبار من المذياع الكبير الموجود في (العلّيّة)، فلم يتسنّ لي رؤية عينيها لأقرأ فيهما العَتب والبوح أو العهد أو اللامبالاة.

فتح خالي المذياع الكبير الذي يزيّنه غطاء أبيض مصنوع بالصنارة، ويتدلّى من طرفه قطعة شبّه تشبه البلّور، وكذلك خرزة زرقاء، وأخذ يحرك الإبرة هنا وهناك إلى أن ظفر بمحطة الشرق الأدنى التي تبثّ الأخبار في مثل ذلك الوقت.

قرأ المذيع الأخبار دون أنْ أتابعه أو أن أفقه ما يقول.. كنت أغيب هناك،

وأفكر بعذر أو حجّة لكي يتسنّى لي أن أهبط الدرجات إلى أسفل، وأجد طريقة ما أستطيع من خلالها أن أهمس كلمة في أذن ملك.

وبعد النشرة تحدّث الرجال في قضايا السياسة، وبدا لي أن والدي أخذ يهتمّ بما يجري في هذا العالم على غير عادة منه، وسرّني أن تكون الأحداث التي تجري حولنا قد شدّت انتباهه.

وجاء الفرج حين نادتني زوجة خالي لأخذ صينية القهوة، فهبطت مسرعاً لأجد ملك بانتظاري وقد أعدّت صينية القهوة وحملتها بين يديها.

كان بعض الضوء ينـدلق من المطبخ إلى الباحة، وكانت تقف قريباً من النافورة. كانت تنظر إليّ بجرأة، وكنت أقابلها وجهاً لوجه بدون خمار (الجورجيت) الأسود الشفّاف الذي طالما غطّى وجهها.

- طالت الغيبة.

قالت معاتبة بأشد لهجة عتب يمكن أن تصدر عنها.

أدركت كم أخطأت حين تناسيتها، ولا أقول نسيتها.

لم أجب، لكني حاولت أن أحفظ ملامحها.. أن أستوعب سواد عينيها، ورقّة شفتيها، ودقّة حاجبيها، واحمرار خدّيها.

لم يكن هناك وقت، فهذه الصدفة المتعمّدة يجب اغتنامها. ووجدتني أهمس في عجل: أنتظرك غداً في المرجة قبل الظهر. وأخذت منها صينية القهوة فلامست أصابعي أطراف أصابعها، أحسست بأنّ كل شيء فيّ يرتجف، حتى إنني حين حملت الصينية واستدرت بها ظلّت يدي ترتعش، واندلق بعض القهوة من الفناجين إلى الصحون ذات الحواف المذهّبة.

* * *

عند ذلك بدأت الشاحنات التي تنقلنا تمرّ في أرض ترابية وعرة فقطع ذلك حبل الحديث، وكان علينا أن نتمسّك بالمقاعد ونثبّت أقدامنا جيداً

لكيلا نقع. كانت الشاحنة تميل شمالاً ويميناً وهي تجتاز طريقاً ترابيـة وعرة لا يمر منها إلاّ العربات العسكرية.

وصلنا إلى مقر القيادة في زرعين، أنزلنا المتطوّعين الجدد، وانضمّت إلينا سريّة أخرى بقيادة العقيد نور الدين الذي كان يلبس بزّة عسكريّة مكويّة تزدان بالنجوم والنياشين.

وبانتظار التحميل وتعبئة الشاحنات بالوقود. تناولنا طعاماً خفيفاً.

وقد رحلت عن وجه أسد الشهباء تلك الإضاءة التي توهجت بهـا ملامحه وهو يتحدّث عما هو شخصيّ، واكتسى وجهه بمسحة الجدّ.

مرّ من أمامنا العقيد نور الدين يختال بوجهه القمحيّ المشرب بحمرة، مثل ديك حبشي، فتذكرت السترة الـواقية من الـرصاص.. السـترة الكحليّة التي حـدّثني عنها نجيب، والتي ظلّت تنتقـل من شخص إلى آخر حتى وصلت في نهاية الأمر إلى يد العقيد نور الدين.

وحدّثت أسد الشهبـاء عن موضـوع السترة أو الـدرع فضحك، وتـذكّر أصل القصّة حين ادعّى أحمد بيك أنها غنيمة من غنائم معركة الزرّاعة..

وعنـدما استـأنفت الشاحنـات السير في رتـل طويـل كانت شـاحنتنا قـد امتلأت بالجنود وصناديق الذخيرة.

* * *

كانت منطقة القدس هي وجهتنا، وكانت هجمات اليهود لـلاستيلاء عـلى المـدينة والـطرق المؤدية إليهـا لا تتوقّف. كـان علينا أن نشـارك في المعـارك ونصدّ الهجمات إلى أن تدخل الجيوش العربية النظامية.

وقـد وصلنا أخيـراً إلى الموقـع المحدد لنـا. كان الـوقت مسـاء، والشمس توشك على الغروب.

وجاء من يستقبل مقدمة الرتل، فتوقفنا.

كان بحوزتنا بعض المصفحات ومدافع الهاون من عيار (سبعة ونصف). وقد استقبلنا الأهالي بالهتاف والأهازيج والفاكهة والحلوى والشراب.

وصلنا إلى الموقع المحدّد لنا في الخان الأحمر، وقال لنا العقيد نور الدين إن قوتنا هي الاحتياطي الجاهز للتحرّك إلى أيّ موقع يحتاج إلى نجدة، وإننا تحت إمرة القائد العام نفسه.

كانت القدس تختفي وراء التلة، فقد أقمنا معسكرنا في السفح بمحاذاة الطريق التي تربط أريحا بالقدس. كنا نبعد مسافة كافية عن مرمى القذائف. وظللنا على أهبة الاستعداد. الأصبع على الزناد، ما عدا في ساعات النوم.

كانت منطقة بدو هذه التي أقمنا فيها، فشربنا الحليب الطازج وتعلّمنا ركوب الإبل..

وذات مساء، بعد أن أنهينا الحراسة، أخذنا نذرع ساحة المعسكر جيئة وذهابا.. أنا أتكلم وأسد الشهباء يستمع. هو يتكلم وأنا في أغلب الوقت استمع..

وعاد أسد الشهباء فجأة للحديث الذي انقطع.. وقال فيما قال: -... انتظرتها في ساحة المرجة، لكنها لم تأت. انتظرت طويلاً، وظللت أذرع الرصيف المحاذي لنهر بردى، وأدور حول النافورة التي تتوسّط الساحة، لكن دون جدوى... لم تأت.. لماذا؟

طال انتظاري، وعدت في آخر النهار أجرجر قدميّ.

أين أنتِ؟

مررت من أمام نافذتها المغلقة.. ليس لها أثر..

طرقت باب خالي ففتحت لي الباب ملك بنفسها.

كانت تعقد الخمار حول شعرها، ونظرت إليّ نظرة ماكرة. كأنها تعرف ماذا حلّ بي بعد هذا الانتظار.

دخلت، وكان المجلس مجلس نساء.

أمي وزوجة خالي وملك وأمها وشقيقها الأصغر. جلست بينهن أختلس النظرات إلى ملك وأحاول أن أقول لها بلغة العيون: أهكذا فعلت بي؟!

وكانت حين تقع عيناي على عينيها تبتسم تلك الابتسامة الماكرة لإغاظتي.

وفهمت من حديث النساء أنهن قررن قراءة المولد النبوي بمناسبة عودتي سالماً.

عندما تمكنت من الظفر بفرصة عابرة، إذ وقفت لحظة مع ملك عند النافورة التي تتوسط الباحة بحجة ملء طاسة النحاس بالماء المعطّر بورق الليمون، سألتها على عجل:

ـ لماذا لم تأتي؟

ضحكت بكثير من الدلال والعفوية وقالت: ألا يكفي أننا نلتقي هنا؟

* * *

في المساء بدأت النساء بلفّ الحلوى والسكاكر بالورق الأبيض على شكل صرر صغيرة مربوطة بالخيوط الملونة.

وبعد صلاة العشاء بدأت قراءة المولد.

غادرت وأبي وخالي المنزل إلى بيت جارنا العم حدّو، فليس من المستحب أن نظل في بيت ترفع النساء فيه أصواتهن.

جلسنا في غرفة الاستقبال الواسعة على كراسي دمشقية فاخرة مرصّعة بالصدف ومزدانة بنمنمة ورسومات على هيئة أقمار ونجوم.

في تلك الليلة رأيت شقيقها الكبير المتخلف عقلياً (زياد).. الذي يبلغ

من العمر ثلاثة عشر عاماً، والذي يجلس في غرفة جانبية غارقاً في الصمت، وبين فترة وأخرى ينادي بصوت أبكم أمه أو أخته أو شقيقه الأصغر، ثم يعود إلى صمته.

ويبدو أنه افتقدهم في تلك الليلة فأحدث كثيراً من الضجيج، الأمر الذي دفع بالعم حدّو إلى إغلاق الباب عليه.

وقد تدخّل والدي وخالي وناشداه أن يفتح الباب على الولد، بل إن خالي قام بنفسه، ولم يكتف بفتح الباب، بل غسل له وجهه، وأحضره إلى مجلسنا.

قال العم حدّو: هذا الولد جرح لا يشفى في منزلنا.

قال خالي: وحّد الله يا رجل.. إن هذا الولد سيشفع لك يوم القيامة.

وجلس (زياد) ينظر إلينا ويبتسم ابتسامة بلهاء، وبعد قليل أصبح وجوده طبيعياً. واستغرقنا الحديث، فقد حكى خالي عن تجارته، ووالدي عن مطعمه، والعم حدّو عن دباغة الجلود، وأثناء ذلك بدأت في بيت خالي قراءة المولد النبوي، وجاءت أصوات النساء وهنّ يرددن المدائح النبوية بصوت جماعي.

ثم عاد زياد وأحدث المزيد من الضجيج، ونادى بصوته الأبكم شقيقه الأصغر غير الموجود بيننا لأنه ذهب مع أمه وأخته للاستماع إلى المولد وأكل الحلوى..

شعر العمّ حدّو بالضيق، وخشي أن تفسد السهرة فأمسك ولده من يده وشدّه إلى غرفته وأغلق عليه الباب.

قال والدي: لماذا لا ترسله إلى المستشفى حيث يرتاح ويجد نوعاً من الرعاية التي لا يجدها في البيت؟

وتحمّس خالي للفكرة. وأضاف شيئاً على ما قاله والدي. غير أن العم حدّو صمت، وطفرت من عينيه دمعة.

وأصبح الولد (زياد) بعد ذلك محور الحديث في السهرة، إذ أخذ العم حدّو يحكي عن متاعب الأسرة، وما يسبّبه وجوده على هذه الحال من آلام يومية.. تحدّث باستفاضة عن المحاولات التي بذلت لشفائه، عدّد الأدوية التي أحضرها له، وعدّد الأضرحة التي زارها، وعدّد.. وعدّد.

أمْسَت السهرة شاحبة، وامتلأ العم حدّو بالكآبة، وقد حاولت أن أبذل جهداً كي أعيد الضوء إلى السهرة فلم أفلح.

* * *

عندما أويت إلى فراشي. ظلّت صورة الولد المسكين ماثلة في ذهني. ظلت صورة الباب المغلق في وجهه تسدّ كل مسلك للهدوء في نفسي.

لقد تراجعت كل الوجوه ما عدا وجهه، بشعره الأشقر وبشرته البيضاء وملامحه الوسيمة.

ولم أدْر أن الظروف ستجعل من هذا الفتى المسكين شاغل الناس، وما حسبت أن الأقدار والصدف ستضعه في واجهة ما تبقّى من أيام لإجازتي القصيرة!!

* * *

خرج زياد من البيت. غافل أهله وخرج. كانت أمّه تغسل الملابس، وكانت غرفة الغسيل تعبق بالبخار ورائحة الصابون، وكان صوت (البابور) يطغى على كل صوت.

أما ملك. فقد كانت ترتق جوارب الأسرة في غرفتها، وهذا العمل استغرق كل فترة الصباح.

وجد الولد المتخلّف عقلياً الباب مفتوحاً فخرج.

وجد الزقاق فارغاً فمشى، وأفضى به الزقاق إلى زقاق آخر، والزقاق الآخر إلى طريق، والطريق إلى. . .

لم ينتبه أحد إلى خروجه إلّا حين عاد الولد الأصغر من المدرسة ودخل غرفة أخيه فلم يجده، وبحث عنه في بيت الراحة، بيت المونة، تحت الدرج، وراء الياسمينة، عند الأرجوحة، من دون أن يعثر عليه.

وهنا أصاب الولد الأصغر الذعر فصرخ: ضاع زياد. . ضاع زياد. سمعت ملك صراخ شقيقها الأصغر فألقت ما بيدها جانباً وأسرعت تستجلي الأمر. صعدت الدرج. هبطت الدرج. بحثت هنا. بحثت هناك. وعندما أعياها البحث صاحت بأعلى صوتها.

وعلى الرغم من ضجيج (البابور) في غرفة الغسيل فقد تناهى إلى أذن الأم ما جعل القلب يوجس خيفة. فمسحت بالمنشفة الجافّة ذراعيها، وجفّفت ما علق بهما من ماء وصابون، وهبّت واقفة.

صارت هي الأخرى تبحث هنا، وتبحث هناك. تأتي وتروح على غير هدى، ثم انهارت. وقعت على الأرض وهي تنتحب.

ووصل صوت نحيبها ونشيجها وولولتها إلى البيوت المجاورة فجاءت زوجة خالي، وجاءت أمي، وجاءت الجارات. . وطار النبأ سريعاً إلى دكان العم حدّو في (السويقة). فأسرع إلى المخافر والمستشفيات. مرّ بدكان خالي في الحميدية، وكنت أجلس إلى جواره، فأعلمنا بالخبر. .

ضرب خالي كفّاً بكفّ وقال: لا حول ولا قوة إلّا بالله.

وقام خالي على الفور فأغلق محلّه، واقترح أن يمضي كلّ واحد منّا إلى بقعة للتفتيش، على أن نلتقي آخر النهار في البيت.

وكان نصيبي أن أفتّش عنه في الشاغور وأطراف الغوطة، لكنني لم أعثر له على أثر.

كان الرجال يجلسون على كراسي القش في مدخل الحارة. كانت ملامحهم تشي باليأس والقنوط.

نظروا إليّ وأنا أعود خالي الوفاض، ولم يسألوني عمّا فعلت فالمكتوب مقروء من عنوانه.

وهكذا جلست مع الجالسين الذين تشاوروا فيما بينهم حتى أعيتهم الحيل.

ظل الأمل معقوداً على خبر يصل إلى مكتب المختار من الشرطة التي عمّمت الحادث على جميع مراكزها.

في تلك الليلة لم ينم أحد حتى ساعة متأخّرة من الليل. قبل أن آوي إلى فراشي تذكّرت ملك، وتخيلتها شاحبة الوجه، محمّرة العينين.. ها هو الولد المتخلّف الذي كان منسيّاً في غرفته يصبح عزيزاً وتنكسر لغيابه القلوب.. أيّ فراغ تركه ذلك الذي لم يكن يشعر بوجوده أحد؟!

في اليوم التالي ظللنا ننتظر، وكبر الحزن في بيت الجيران، وتحوّل جوّهم إلى ما يشبه جوّ التعزية.

أما في اليوم الثالث الذي أعقب هروب زياد فقد قرّر والداي العودة إلى حلب.

وعندما كنت أقبّل أيديهما أمام الحافلة بكت أمي حتى شرقت بالدمع، وظلت تدعو لي وتوصيني، وتنذر النذور من أجل عودتي سالماً.

وبعد رحيلهما لم يبق سبب يدعوني للبقاء أكثر من ذلك، فقرّرت العودة.

وليلة السفر ذهب خالي لصلاة العشاء في الجامع، وغابت زوجة خالي في بيت الجيران.

لذلك فإنه عندما طرق الباب وجاءت ملك كنت وحيداً. كانت تعرف أنني وحيد. خطت خطوة واحدة وتركت الباب الخارجي نصف مغلق. خطت

خطوتها وتوقّفت. كانت تضع حول شعرها منديلاً خفيفاً. كان وجهها متعباً. لقد غاب زياد ولم يعد، وأصبح اليسر عسراً. كانت تحاول أن تتجّلد، وأن تتجمّل بالصبر، فهمست:

ـ هل ستتركنا قبل أن يعود زياد؟

شعرت بالضعف، فأمسكت بيدها، أمسكت بكفها المخضبة ببقايا الحناء، أمسكتها بكلتا يديّ.

سحبت يدها سريعاً. وقالت وهي تنظر خلفها:

ـ الله معك.. رافقتك السلامة.

قالت ذلك وفتحت البوابة، وعادت من حيث أتت، وخلّفت وراءها فراغاً بحجم الجبال..

ولا أدري كيف مرّت تلك الليلة. لقد حاول خالي وزوجته أن يدخلا البهجة على قلبي، وأن يغيّرا هذا الجوّ الذي خيّم على نفوسنا جميعاً بعد ضياع زياد، فصنعت لنا امرأة خالي على عجل (زلابية). ووضعت أمامنا طبقاً من الفواكه.. وفتح خالي لأول مرة منذ غياب زياد المذياع فملأ الغرفة صوت أسمهان.

غير أن ذلك كان محاولة للتغيير من الخارج. وأما في الداخل، في أعماقنا، فقد كان هناك أسى بلا حدود.

ومهما يكن. فإنني في الصباح الباكر ودّعتها وخرجت.

مشيت في الزقاق الصامت، وكنت أحسّ بالضياع.

كانت شوارع المدينة خالية، ولم يكن من أحد في الشوارع في تلك الساعة المبكرة سوى عمال التنظيفات الذين يجمعون القمامة.

عندما حملتني الحافلة المتوجّهة إلى القنيطرة، وهي محطّتي في الطريق إلى فلسطين، حاولت أن أقنع نفسي بأن المهمّة التي نذرت نفسي من أجلها هي

أسمى من كل قضيّة شخصيّة. وقلت في داخلي غداً تندمج في أجواء الحـرب فتنسى..

قال أسد الشهباء كلمته الأخيرة وصمت.

كنت أستمع إليه بكل جوارحي وهو يقصّ عليّ هذه التفاصيـل الصغيرة التي ظلّ يردّدها بينه وبين نفسه طوال الوقت.

هل استطاع أن ينسى وهو يغرق في أجـواء الحرب؟

آه.. كم تستيقظ الحواسّ في هذه البراري.. كم يصبح لذيذاً استحضار التفاصيل الصغيرة.. وكم تعمل أحلام الرجال في إيقاظ الأشياء الغافيـة من غفوتها!

الفصل الحادي عشر

سقطت طبريّة بعد قتال عنيف.

سقطت وخرج أهلها نحو سمخ مشياً على الأقدام. قلّة قليلة منهم خرجت بالشاحنات أو السيارات الصغيرة. كان البشر يتدفقون إلى سمخ بلا انقطاع. يقبلون من وراء الدخان في سيل لا ينقطع. يشاهدون من مشارف جسر باب التمّ وهم يحملون أمتعتهم القليلة وسط بكاء الأطفال ودموع النساء. يُقبلون بالشاحنات أو السيارات الصغيرة، ويتوقّفون لشرب الماء أو تفقّد الأبناء دون أن ينقطع العويل والصراخ.

اعتدل عبد الكريم في سريره وفتح نافذة العلّية. كان القادمون يتدفّقون في الشوارع ويملأون الساحة الواسعة ومبنى المحطة. كانت أخبار الكارثة تشتعل وتندلع كألسنة اللهب.

وكان منصور الذي ما يزال يلبس بدلته الرسمية ذات الأزرار الصفراء، جالساً على كرسي قرب السرير، يشرب آخر رشفة من الفنجان ويتكلم.

«منذ أسبوعين والمعركة محتدمة. بدأت في الحيّ القديم بين الأهالي وقوات يهودية من لواء غولاني، وكان الإنكليز - أولاد الحرام - يغذّون اليهود بالأسلحة والمتفجرات عن طريق الزوارق البخارية. احتل اليهود في البداية تلة الشيخ قدّومي غرب طبريّة، وقرية ناصر الدين، فعزلوا طبرّية عن لوبيه، ومنعوا وصول النجدة إليها، وتمكنت القوات اليهودية بعد قتال ضار من

قسمة البلدة القديمة إلى نصفين، وبذلك تغلّبت على الأهالي والمجاهدين الذين يدافعون عن المدينة. . ».

لخّص منصور المعركة على هذا النحو. لقد ظلّ يردد الرواية نفسها منذ يومين، ولا يكفّ عن ترديدها.

كان عبد الكريم قد تعوّد وقوع الكوارث، ولذلك لم يكن ينتظر حدوث ما يسرّ البال. . لقد كان يرى ما حصل في خياله أثناء النوم.

وهبط راضي عن سطح العلّية. هبط ودخل الغرفة منفعلاً: ـ لقد ملأ القادمون منطقة الشاطىء.

هزّ منصور رأسه بكل أسى، كأنه يتخيل ما الذي سيلمّ بسمخ في الخطوة التالية.

إنهم يملأون شاطىء البحيرة. كأنّهم يريدون أن يلقوا على بيوتهم في الشاطىء الآخر نظرة أخيرة.

نظر منصور عبر النافذة إلى الفضاء، وبين أصابعه كانت حبّات المسبحة تتحرّك برتابة.

ومن أسفل كانت رائحة الطابون ورائحة الخبز الذي ينضج بسرعة. . أم راضي وفطيمة تخبزان، وخالد الزهر يملأ العربة ويوزّع على القادمين.

* * *

لقد اضطرب كل شيء في البلدة إذن وتدفّق المزيد من أهالي طبريّة، وامتلأت الشوارع بالضوضاء، والعربات، والأمتعة والأطفال.

امتلأت ساحة البلدة. امتلأ صحن الجامع، امتلأت كل الدروب التي تؤدّي إلى الحمّة.

وتحرّكت النخوة فاندفع حامد أبو حامد بسيارته الصفراء عبر الطريق

الترابية متفادياً الجموع الراجلة التي تملأ الشارع العام.. تاركاً خلفه زوبعة من الغبار.

هناك.. عند (باب التمّ) كان يتجمّع أولئك المسنّون الذين عجزوا عن مواصلة المشي. كانوا ينتظرون عربات الفلاحين لتنقلهم. لقد ظلّ عدد كبير منهم ينتظرون منذ ليلة أمس وهم يلفّون أنفسهم بالأغطية الصوفيّة وينظرون إلى الوراء بعيون دامعة.

كانوا يلتفتون إلى الخلف، ويطلقون التنهيدة إثر التّنهيدة.. وكانت الريح الشرقية تمر من فوق طبريّة وتحمل معها رائحة الدخان والحريق.

شمر أبو حامد عن ساعديه وفتح أبواب السيارة على سعتها فصعد إلى مقاعدها عشرة من المسنين.. امتلأت السيارة، وحملت أكثر مما تحتمل.

أوصل الركاب إلى البلدة. أنزلهم في مبنى اللجنة القومية وعاد.. ظل يذهب ويجيء بلا توقّف، ولم يفطن إلى الوقود إلاّ بعد أن توقّفت السيارة. توقّفت فجأة. نفد زيتها فتوقّفت.

توقّفت عند مشارف باب التمّ. توقّفت ولم يعد بوسعها أن تتقدّم بوصة واحدة.

كان قد أفرغ حمولته وعاد، وكان ثمة من ينتظر.. من يحتاج إلى المساعدة.

وهكذا حاول وحاول، لكن البنزين قد نفد. نفد تماماً.

لم يعد في الخزان قطرة واحدة، فمن أين يجيء بالوقود في مثل هذا الوقت؟ الوقود لا يتوفر إلاّ في طبريّة أو بيسان، وفي الأوقات الحرجة عندما كان ينفد الوقود فجأة كان يلجأ إلى أحد معارفه في معسكر قوّة الحدود، فمن أين يأتي في مثل هذه الظروف بالبنزين؟ فتح باب السيارة وهبط. كانت مسافة ميل تفصله عن جسر باب التمّ وبضعة أميال أخرى تفصله عن سمخ.

أجال بصره في الناحية، كانت جموع متفرقة من الناس ما تزال تمشي على الطريق.

مرّ من أمامه سرب من تلك الطيور البيضاء تحلّق على علوّ منخفض، فقد سمع حفيف الأجنحة بوضوح. كانت تلك الطيور البيضاء تشمّ رائحة الخطر، وتعبّر عن ذعرها بالانتقال من مكان إلى مكان دون أن تخلد إلى السكينة وتطوي أجنحتها وتسند رؤوسها على ريش صدرها الأبيض.

«ما أتعس هذا الحظ!» قال أبو حامد لنفسه، وفكّر فيما يجب عليه أن يفعل، لكنه لم يفكر طويلاً، فقد رفع زجاج النوافذ، وأغلق أبواب السيارة بالمفتاح، وقرّر أن يمشي ويعود من حيث أتى..

مشى عبر الطريق الترابية التي تؤدي إلى البساتين، ولا تَبْعُد عن مستعمرة (دجانيا). مشى بحذر، ومفاتيح السيارة بيده. المفاتيح المربوطة بسلسلة من الخرز الأزرق الصغير. يمسكها، بل يطبق عليها قبضته.

مشى ومشى، ثم التفت خلفه ينظر إلى سيارته الصفراء.

إنها المرة الأولى التي يغادرها، ويبتعد عنها عندما يصيبها العطب، ففي الماضي توقّفت كثيراً، لكنه ظل إلى جانبها، بقي يحرسها إلى أن تمر سيارة أخرى فتقدم له المساعدة.

وتذكّر ليلة الضباع، عندما بقي وبصحبته عبد الكريم الحمد، لكنّ الأمر مختلف هذه المرة، فالبلاد تضيع، والكوارث تتالى.

الطريق تتعرّج، وتتلوّى. يمشي ويطبق بقبضته على سلسلة المفاتيح. يمشي وتصفع عينيه الريح الشرقيّة التي هبّت حاملة ذرات الرمل، ورائحة الحريق.

وفكّر وهو يغذّ السير في ما يجب أن يفعل بالضبط.

لن يستطيع الحصول على البنزين في مثل هذه الظروف، لذلك فكر في أن

يبحث عن سيارة أخرى يحصل منها على بضعة جالونات. . فإذا لم يجد فليبحث عن عربة خيل تجرّها إلى البلدة. .

وفجأة سمع صوت بكاء. بكاء طفل رضيع أنبجس من بين الحشائش. بكاء حادّ يجرح القلب.

التفت حوله. التفت هنا وهناك، ثم أيقن أن الصوت قادم من وراء شجرة السوس القريبة.

أسرع عبر الهشير والشوك. وقع بصره على الطفل الرضيع في لفّة من قماش أبيض.

كان يبكي لحظة ويصمت لحظة، كأنه يستغيث.

كان وجهه شديد الزرقة، فلعلّه ظلّ يبكي منذ فترة طويلة. اقترب، انحنى، التقط الطفل وضمّه إلى صدره، فتوقف عن البكاء، وجالت حدقتاه بلهفة كأنه يبحث عن ثدي أمه.

هجمت عاطفة الأبّوة المكبوتة واعتصرت قلبه، هو الذي حرم من إنجاب الأطفال. هجمت عاطفة كاسحة.

كان الطفل يلوب من العطش أو الجوع، فهو يفتح فمه مثلما تفعل السمكة، ولم يكن يحمل ما يمكن أن يطعمه. نظر حواليه. ما الذي أتى بهذا الطفل إلى هذا المكان؟

كان يعرف أن كثيراً من أهالي طبرية قد سلكوا طرقاً شتّى، وقد رأى عدداً من الناس فرادى أو في مجموعات صغيرة يسلكون هذه البراري نحو القرى الأخرى القريبة، فأيّ حظّ عاثر هذا الذي ألقى به على قارعة الطريق؟ أين أبوه. . أين أمه. . أين؟

وقع بصره على قطعة قماش بيضاء ملقاة على شجرة جافّة من أشجار

(البلّان) الشوكية. كأنّ الهواء حملها وأسقطها على النبتة التي غرزت بها أشواكها ومنعتها من الحركة.

خطر له أن أمه قد وضعته في هذا المكان وذهبت تبحث عن الطعام أو الماء، أو أنها ذهبت لقضاء حاجة وعما قريب تعود، فإذا ما عادت ولم تجد وليدها. فأيّ جنون سيحلّ في بدنها؟

كانت قطعة القماش البيضاء هي غطاء رأس لامرأة، فإذا كان هذا أثراً من آثارها فأين يمكن أن تكون تلك المرأة المسكينة؟ ظلّ الطفل الصامت الملفوف بالقماش ينظر ويفتح فمه منتظراً حلمة ثدي. هدهده بحنوّ، وأيقن أن زمناً طويلاً قد مرّ منذ أن تركته أمّه تحت شجرة السوس هذه، فاللّفّة مبتلّة، ورائحته بدأت تعلن عن نفسها.

مشى به يستطلع المكان.. يستقصي أثر والدته إن كان لها أثر. خيّل إليه أنه رأى آثار أقدامها فوق التراب والعشب الناشف، لكن لم يستطع أن يتابع أكثر من ذلك، فقد ظهرت آثار قطيع غنم مرّ ومحا آثار الأقدام التي مرّت قبله.

قرّر أن ينتظر قليلاً، فلعلّها تعود. أحسّ فجأة بملمس سلسلة المفاتيح في قبضة يده فتذكّر السيّارة. وقال لنفسه إن من يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته. طال انتظاره.. وقرّر أن يعود.

عمد إلى غطاء الرأس الملقى على أشواك البلان فنزعه عنها ولفّه حول الطفل.. وأسرع يغذّ السير قبل أن يحلّ الظلام.

***

عندما اجتاز بوابة الدار ورأت زوجته ما يحمل بين ذراعيه تركت ما بيدها وهرعت إليه.

كانت تعدّ الطعام في المطبخ، وكانت تفوح منها رائحة الثوم.

أقبلت نحوه تستطلع الأمر وكأنها لا تصدّق ما ترى. سألته باهتمام: ـ لمن هذا الطفل؟

ـ وجدته..

ـ أين وجدته؟

ـ في الخلاء.. في البراري..

ـ مدّت ذراعيها وتناولته.

ـ تمهّلي فالطفل نائم.

كان قد أغفى، فالمسافة التي مشاها لا يستهان بها، ومنذ اللحظة التي حمله فيهاشعر الطفل بالألفة، فصمت ولم يلبث أن أغمض عينيه ونام.

كانت المرأة المفعمة بغريزة الأمومة تنظر إلى وجه الطفل ويتفتح على وجهها ما يشبه الورد.

ـ كيف وجدته.. متى.. لماذا؟.

طرحت عليه أسئلة لا تحصى. فأجابها ما استطاع صبره إلى ذلك سبيلاً. لم تجد المرأة إجابات شافية، لكنها حملت الطفل وذهبت للعناية به.

غسل أبو حامد يديه ووجهه، وبحث بنفسه في (النملية) عن طعام يأكله. أكل ما تيسّر دون أن ينتظر الطبخة التي تنضج على مهل تحت نار الموقد.

أكل وهو يفكّر فيما يجب عليه أن يفعل. فكّر في أن يذهب إلى الجامع، ويطلب من المؤذّن أن يعلن من على المئذنة عن الطفل الرضيع، فلعلّها الوسيلة السريعة للبحث عن أهله وذويه.

ثم فكر في السيارة، فانتابه القلق من جديد.

المساء يقترب، وبعد حين تحلّ العتمة وينتشر الظلام، فكيف يمكن في مثل هذه الظروف الصعبة أن يتحرك في الليل إلى المكان القريب من (باب التّم)، وهو لا يبعد كثيراً عن (دجانيا) و(شعار هاغولان)؟

ظل يتربّع على الأرض فوق جلد الخروف، يقلّب أموره ولا يجد جواباً حاسماً. وعندما جاءت زوجته كانت تحمل الطفل بين ذراعيها بعد أن نظّفته ولفّته بقطعة جديدة من القماش.

ـ إنها طفلة.. إنها أنثى..

قالت زوجته بفرح، وأضافت: ـ إنها طفلة جميلة.. ما أحلاها!!

دارت بها دورة وسط الغرفة، وتابعت قائلة:

ـ أطعمتها الماء المحلى بالسكّر، ولكنها تحتاج إلى حليب.

صار يتعيّن عليه أن يعلن عن استعداده لإحضار الحليب على الفور، غير أنها قالت:

ـ إنها تحتاج إلى حليب أمّ.. تحتاج إلى صدر امرأة مرضعة.

كان يعرف أن صدر هذه المرأة ـ التي لم تحبل في يوم من الأيام ولم تلد ـ جافّ، ولم يجر الحليب في عروقها.

ما العمل إذن؟

ـ جارتنا نظميّة ترضع طفلة في مثل سنّها، سآخذها إليها قبل أن تظلم الدنيا.

قالت ذلك وأسرعت إلى الداخل لتضع غطاء رأسها. وأوصته قبل أن تغادر المنزل أن ينزل القدر عن النار في الوقت المناسب.

قام فتوضأ ولبس حذاءه، وحين رفع رأسه وقعت نظراته على صورة المفتي المعلّقة على الجدار. نظر كل منهما إلى الآخر.. المفتي بوجهه الهادىء ونظراته الوديعة، وأبو حامد بانفعاله والصخب الذي يدور في أعماقه.. أدام إليه النظر كأنه يستحثّه أو يرجوه أو يتوسّل إليه.

ثم أنزل القدر عن النار. وخرج..

مشى باتجاه الجامع. صلّى صلاة المغرب ثم طلب من المؤذن أن يعلن من على المئذنة عن وجود الطفلة الضائعة في بيته.

وتوكّل بعد الصلاة وتوجّه إلى مضافة الحاج حسين.

طرق القبضة النحاسية على البوابة الكبيرة، ثم دخل من (الخوخة) وهو يعلن عن حضوره بكلمة (يا ساتر).

دخل فكانت المضافة تغصّ بالناس، وفي الصدر كان ستة من الرجال القادمين من سما الروسان، وملكا، وإربد.. جاءوا لابسين الأحزمة المحشوّة بالرصاص، حاملين بنادقهم للدفاع عن البلدة.

طرح السلام وجلس. جلس وأخذ يتحين الفرص ليطلب من الحاج حسين أن يرسل معه خالد الزهر قبل حلول الفجر ليجرّ السيارة التي توقّفت عند مدخل (باب التمّ).

كان الحديث يدور عمّا جرى في طبريّة، وعما سيحدث بعد ذلك في سمخ.. لقد أصبحت سمخ هي الخطوة الثانية!! وقد حانت الفرصة أكثر من مرّة، لكن أبو حامد لم يغتنمها، وفضّل أن يتحدث مع الحاج حسين بعد أن يذهب الناس. لكن الناس لم يذهبوا، وظلّ الحديث يدور وتتشابك قصّة بقصّة، وحادثة بحادثة ثانية، حتى جاء منصور ببدلته الكحلية ذات الأزرار النحاسية وقال دون أن يطرح السلام: إن اليهود بدأوا يتقدّمون إلى الضواحي تحت جنح الظلام.

توقّف الرجال عن الكلام. كفّوا عن الحديث، وصمتوا... كانت المعنويات مهزوزة، والوجوه قلقة وذابلة.

أعاد منصور الرواية التي سمعها من أناس يسكنون حي المنشيّة، ثم جاء سليم العيد من اللجنة القومية فأكّد الخبر، فقال الحاج حسين:

ـ ماذا تنتظرون؟ هيا!.

وقفوا وقفة رجل واحد، وانتقلت البنادق من الأيدي إلى الأكتاف.

***

عاد أبو حامد إلى بيته، فوجد زوجته قد عادت.. كانت مشغولة بالطفلة التي رضعت من ثدي الجارة نظمية حتى أرتوت. لقد نسيت المرأة نفسها، وانشغلت عن كل ما حولها، وأعطت كل ما لديها من جهد ووقت للطفلة التي جاءت من وراء الرياح.

وجدها تهدهدها، وأشارت له بإصبعها حتى لا يثير الضجيج. عمد إلى الخزانة فأخرج بندقيته السريعة الطلقات، وأخرج من الصندوق الخشبي الذي تحفظ فيه زوجته شراشفها ومطرزاتها وأشياءها الثمينة، أخرج حزام الجلد. ثم نظر إلى صورة المفتي المعلّقة على الجدار. نظر إليه ليستمد منه العزيمة والرضا..

وعلى الرغم من استغراق زوجته في تهيئة الطفلة للنوم فقد نظرت إليه بعينين فيهما تساؤل وشيء من الفزع. أشار لها بيده كي تطمئن. لبس الحزام الجلدّي ذا الجيوب المحشوّة بالفشك، ثم أمسك بالرشّاش من أخمصه، وخرج.

تبعته المرأة إلى حوش الدار بعد أن اطمأنت إلى نوم الطفلة، وسألته عند البوابة الخارجية:

ـ إلى أين ستذهب؟

لم يقل شيئاً، فمشت وراءه، وعندما لم تشاهد السيارة في مكانها سألت بقلق:

ـ وأين السيارة؟

ـ سأشرح لك فيما بعد.

أجـابهـا دون أن يلتفت، وأسرع يغـذّ الخـطى في الـطريق المؤدّي إلى مبنى اللجنة القوميّة.

* * *

كـان الرجـال يحفرون الخنـادق وراء سكـة الحـديـد التي تشـطر البلد إلى شطرين. يحفرون الخنادق، ويعبّئون الأكياس بالـرمل، ويقيمـون المتاريس، فالمعركة أصبحت على الأبواب، وقد وصلت السكّين إلى العنق.

انتشر أولاد البلد عـلى امتداد خطّ سكـة الحديـد. كانت البيـوت وراءهم صامتة. الأضواء مطفأة، وزاد الجوّ وحشة تلك الأصوات الرتيبة الصادرة عن حشرات الحقـول، فقد كـانت الجنادب والصراصـير والضفادع تـطلق عالياً أزيزها ونقيقها.

وقد أطبق الصمت على طبريّة، وأمّحت أضواؤها التي كانت تبدو من بعيـد كعقـد من اللؤلؤ. جثم الصمت، وخيّم الليل، فـلا من يضيء قنديـلاً، ولا من يرفع صوته بالغناء.

سيطر الوجوم على الفضاء والأشياء، ووحدها الأمواج ظلّت تخفخف كأنها أجنحة الطيور.

علّق رشاشه بكتفه، وظلّ يمشي.. يمرّ على المواقع التي لا يبتعد بعضها كثيراً عن بعض. يطرح السلام ويمشي حتى بلغ المحطّة.

لم يكن منصـور وحده، فقـد كان هنـاك رشّاش من نـوع برن عـلى سطح المحطّة، وكان طاقم الرشّاش يتكوّن من ثلاثة رجال. كانوا يعبّئون الأكيـاس ويصعدون بها عبر السلّم إلى السطح لتحصين الموقع.

توقّف أبو حامد. استقبله منصور باهتمام وسأله:

ـ ما هي الأخبار؟

كان أبو حامد يعرف أنهم يتحدّثون عن صلة سرّيّة تربطه بجماعة المفتي، وأنهم يعتقدون بأنّ لديه معلومات عما يجري، فضحك وقال: انتبهوا فاليهود قادمون.

فتل منصور الكرسي الهزّاز الذي أخرجه من غرفة المدير وقال:

- اجلس..

جلس أبو حامد، كان بحاجة إلى الجلوس بعد يوم عمل طويل.

- يقولون إن سيارتك تعطّلت هناك، عند جسر باب التم.

لم يجب أبو حامد، وإن كان قد شعر بغصّة.

- ويقولون إنك وجدت طفلة رضيعة في البراري..

لم يجب أيضاً، وإن كان تذكّر وجهها الناعم، وأصابعها الطريّة، وعينيها العسليتّين.

ولعلّ منصوراً أحسّ بأن أبو حامد زاهد في الكلام فصمت.

* * *

مرّ الوقت بطيئاً.

انتصف الليل وظلّت الجنادب والصراصير والضفادع تطلق عالياً أزيزها ونقيقها.

خفّت أصوات الرجال الذين ظلّوا يجلسون وراء المتاريس، ويتحلّون بالانتباه واليقظة.

مرّ الوقت بطيئاً. أخذ أبو حامد يشعر بتعب ونعاس، وفرش منصور الغطاء الصوفيّ الذي يتدثّر به، وتمدّد ليأخذ قسطاً من الراحة، ولم تعد تسمع أية نأمة ولا أيّة حركة للرجال الثلاثة الذين يجلسون وراء رشّاش (البرن).

وفجأة سقطت قنبلة في مكان ما وراءهم.

استيقظ أبو حامد، وأسرعت أصابعه إلى الزناد.
هبَّ من على الكرسي فقفز منصور كالملسوع.
سرت قشعريرة في بدنيهما.
تعالى صوت من هنا، وصوت من هناك.
ثم سقطت قنبلة في مكان أكثر قرباً.
وعلى حين غرّة فتحت النيران من كل الاتجاهات.
أضاء الأفق لشدّة غزارة الرماية.
- الاشتباكات في منطقة المنشية.
- وفّروا الذخيرة..
- تقدّموا إلى الكمائن الأمامية.

وقف أبو حامد. دبّت في أعماقه القوّة فقفز من فوق السور الصغير واندفع إلى المواقع الأماميّة وهو يشهر سلاحه. كان يندفع صوب الغول الذي ينشب أظافره.

* * *

ظلّت الأصوات تتردّد ويتردّد صداها.
أصوات بشريّة، ووابل من الرصاص.
الرجال يهتفون، ويشدّ بعضهم أزر بعض، وأزيز الرصاص الذاهب والآتي يتردّد صداه حتى عمق البحيرة. الوضع لم يتّضح بعد، والقلق انتاب كل شيء. حركة الأغصان. اندفاعة الأمواج. انتقال الأسماك في العمق.

وفي غرفته بالعليّة ظلّ عبد الكريم الحمد معتدلاً في سريره مسنداً ظهره يستمع إلى الأصوات القادمة من بعيد. الجبيرة ما زالت على صدره، وفي صدره يختنق زئير الأسود الحبيسة في أقفاصها.

هبط سكّان البيت إلى أسفل. اختبأوا في البايكة.. خديجة وطفلها

الرضيع. فطيمة وراضي. وعدد لا يحصى من نساء البيوت المجاورة وأطفالها.

عندما بدأ إطلاق الرصاص. جاءه الحاج حسين: اطمئنّ يا عبد الكريم، قال له. ثم تقدّم وشدّ على يده (أطمئن يا عبد الكريم سوف نهزمهم) كانت البارودة معلّقة على كتفه. وكان قد ردّ طرفي الحطّة إلى الخلف، وأمال العقال فوقها، ورفع أطراف قنبازه فأدخلها تحت الحزام. كانت له مهابة الرجال الذين يعودون من زيارة النبيّ.

غاب الحاج حسين، وغاب معه الرجال، وبقيت وحدك يا عبد الكريم مع النساء والأطفال والعجزة. طفرت من عينيك دمعة، وكانت مخارز الوجع إذ ذاك ما تزال تخز صدرك وما بين ضلوعك.

جاءت خديجة تحمل صغيرها ماهر. كانت قد عزمت على أن تقول كلمتها، لكنها تراجعت إذ رأت ملامحك التي تنطق بالتحفّز. لا تخافوا عليّ من الرصاص الطائش. لا تخافوا عليّ من القنابل التي تسقط من عل، لا تخافوا، فالقنبلة التي تنفجر في أعماق صدري أشدّ فتكاً.

جاءت بعد ذلك فطيمة. دبّ في قلبها الخوف، فها هي ترتعش.

- عودي إلى البايكة يا فطيمة..

لم تجب وإن كانت لم تذهب أيضاً.

كان يطلّ من وجهها رعب تلك الليلة الحالكة التي قتل فيها قاسم النايف. أيّة خواطر مخيفة تدور بخلدها في هذه اللحظات.

جلست في الركن، على الأرض. لم تجرؤ هي أيضاً على أن تقول له انزل إلى البايكة فذلك أسلم لك.

جلست صامتة دون أن تقول كلمة واحدة.

لم يكن بحاجة لأن يسألها كي يعرف أنها تفكّر بدار الأمان.

وشعر هو أيضاً بحنين إلى دار الأمان التي لم يدخلها منذ أن أصبحت على مرمى نيران اليهود. هل يبست أسراب نباتات الباذنجان والبندورة؟

هل ذوت زهور الحبق والخزامى وقرن الغزال؟

وهل جفّت شجيرات الورد الجوريّ والدوالي؟

وماذا عن. . . ؟

هل يظلّ السرّ حبيس صدره العليل؟

ـ اسمعي يا فطيمة. .

هتف، وحاول أن يعتدل في جلسته. فوقفت وسارعت إلى مساعدته. عدّلت من وضع المخدّة وراءه، وساعدته على أن يسند ظهره.

فكّر في أن يتراجع ويعود إلى صمته، لكنها اقتربت وأشعرته أنها تصغي إليه بانتباه.

ـ سأقول لك سرّاً. .

حدّقت فيه باهتمام منتظرة أن يكمل حديثه.

ـ لقد خبّأت مدّخراتي من النقود وبعض القطع الذهبية. . مئة جنيه وأونصة ذهب، وثلاثة خواتم، وأسوارة مبرومة.

وتسرّعت فقاطعته: وأين خبّأتها؟

صمت، فاستحثّته بحركة من يديها.

قال لنفسه: الناس تحارب، وأنا لا أفكّر إلاّ بأموالي.

داهمه إحساس بالخجل. أحسّت هي بذلك فكفّت عن الإلحاح وتركته لكي يقول ما يريد على راحته.

وبعد صمت قصير قال: خبّأتها في الحديقة بدار الأمان، على بعد خمس خطوات من العتبة، وثلاث خطوات من شجرة الليمون. لففتها في كيس من النايلون، وحفرت لها حفرة على عمق متر ودفنتها.

قال ذلك، ونظر إلى وجهها ليرى انفعالاتها. وكما توقّع فقد ازداد احتقان بشرتها. حطّ على رأسها همّ جديد.

سألته: وهل يعرف هذا السرّ سواك؟

تذكّر أن قاسم النايف شاهده وهو يحفر ويضع الصرّة في تلك الليلة الحالكة السواد، لكنه لم يشأ أن يذكّرها بزوجها الراحل ويزيد من أحزانها. فأجاب:

ـ لا.. لا أحد يعرف.

ـ عندما يتوقّف القتال سأذهب بنفسي وأحضرها.

هكذا قالت فطيمة. قالت بثقة وبنبرة حازمة.

دخل راضي فجأة. فتح الباب ودخل، فزجرته فطيمة وقالت:

ـ ابقَ في مكانك في البايكة.. ألا تسمع صوت الرصاص؟

كانت قد نسيت خوفها، وكانت الاشتباكات تزداد قرباً.

ـ دعيه يا فطيمة، فالفتى لم يعد صغيراً.

جلس راضي على حافة السرير، أما فطيمة فقد كانت بها رغبة في أن تطرح على عبد الكريم الكثير من الأسئلة عن كنزه الدفين في حديقة دار الأمان، لكنها لم تشأ أن تحكي عن الموضوع أمام الفتى فصمتت. وكان صوت الرصاص يقترب فاستيقظ الذيب من نومه، ونبح نباحاً متقطّعاً.

* * *

اقترب صوت الرصاص، وعلت الجلبة والضوضاء في الأزقّة والحواري. جاءت الأخبار التي تبعث على الفزع.

تقهقر المدافعون عن حيّ المنشية أمام عنف الهجوم اليهودي.

سقط الشهيد سليم السعدي، وجرح عشرة رجال.

نفقت الحيوانات والمواشي التي كانت ترعى في المنطقة الزراعيّة. أصبح

خطّ سكة الحديد خطّ الدفاع الأخير عن البلدة. نزح الأهالي من حيّ المنشية، فهزّ ذلك المعنويات.

انتقل موقع (البرن) من سطح المحطّة إلى سطح مبنى اللجنة القومية. أطلق اليهود النيران بغزارة، ونسفوا البيوت في المنطقة التي سيطروا عليها.

كانت أصوات الانفجارات تهزّ البلدة. سقطت قنبلة قريبة تناثرت شظاياها على قرميد المحطّة فتحطّم على الحواف الإسمنتيّة.

تراجع المدافعون إلى التحصينات، إلى ما وراء سكة الحديد. تقدّم اليهود وأخذت أصواتهم تصل بوضوح وهم يرطنون بالعبريّة.

كانت اللحظات عصيبة. نظر مسؤول في اللجنة القوميّة من وراء أكياس الرمل وقال للرجال الذين يقفون إلى جانبه:

- إذا لم نصدّهم فسوف يذبحوننا ويبقرون بطون نسائنا. ومن أعماق الليل، من وراء الريح، مع نسمة هواء هبّت فجأة، انطلقت زغرودة من امرأة. زغرودة شرخت هذا الليل إلى نصفين.

جاءت المرأة من أقصى البلدة. وصلت إلى منطقة الكمائن وأطلقت زغرودتها، ثم صاحت بصوت عالٍ:

- اللّه أكبر.

وإذا ذاك انطلقت الزغاريد من وراء نوافذ البيوت، ومن وراء العتمة.

وبلغ الحماس أقصاه، ففتح الرجال نيران بنادقهم، وقفز الشباب الذين يكمنون في المواقع المتقدّمة من وراء المتاريس، وهبّوا لملاقاة الأعداء الذين كانوا يندفعون بلا حذر.

* * *

- العمّة حفيظة تقاتل مع الرجال.

قال راضي، وأضاف:

ـ يقولون إنها جاءت من عزبة الدوير مشياً على الأقدام عندما سمعت بالهجوم.

كان عبد الكريم قد هبط عن سريره، وبدأ يفكّر بالخروج من هذا المكان لمعرفة ما يجري.

وكان البكاء والعويل في البايكة قد أثار أعصابه فنادى فطيمة لكنها لم تسمعه.

ـ العمّة حفيظة ما زالت هناك معهم.

تمنّى عبد الكريم لو أنه احتفظ بالبندقية التي غنمها من الجندي، وكان الاشتباك يبدو قريباً وكأنه يجري تحت النافذة.

ظلّ الفتى ينظر إليه دون أن يداخله الخوف.

ووجد نفسه يبتسم في وجهه على الرغم من كل شيء.

أيّة أيّام تنتظرك أيّها الفتى.. أيّة أيّام؟

في آخر الليل ابتعدت الأصوات.

توقّف قصف القذائف، وتوقّف رمي القنابل، ولم يبق سوى أصوات الرصاص المتقطّع.

فشل اليهود في اختراق خطّ الدفاع، وتراجعوا إلى الوراء عندما بدأت خيوط الفجر الأولى تبزغ.

لم ينم أحد في البلدة، وعندما أضاء الفجر كانت أصوات الطلقات قد توقّفت.

الفصل الثاني عشر

آخر الليل أغفى عبد الكريم الحمد.

أمضّه التعب فأغمض عينيه ونام.

نام نوماً مضطرباً. نام أو أصابته غيبوبة، لكنّه حين فتح عينيه رأى أمامه راضي.

ـ لقد فشلوا في دخول البلدة.

قال راضي الذي ظلّ ينتظر طويلاً، وأضاف بصوت يشتعل بالحماس:

ـ عاد الوالد قبل ساعة. عاد بعد توقّف القتال وقد تلطّخ قنبازه وسرواله بالطين.. لقد ظلّ يقاتل طوال الليل.

فتح عينيه جيداً، وبدأ يستوعب، فاستند على مرفقيه وقال بقلب خافق:

حقاً؟...

ـ عاد الوالد يحمل البارودة وقد سخنت ماسورتها لكثرة الطخّ.

وصمت الفتى لحظة، وأضاف:

ـ وعادت عمّتي حفيظة، عادت وهي تلفّ رأسها بالكوفية وتلبس على خصرها حزاماً عسكرياً.

ـ ساعدني على النزول..

تحامل عبد الكريم على نفسه ونزل. لم ينزع ثوب النوم، وإنما لبس فوقه العباءة الشاميّة.

ـ هل هم في المضافة الآن؟

هـز الفتى رأسه. فتـح عبد الكـريم النافـذة فدخـل الهواء المشبـع برذاذ أمـواج البحيرة. ثـم جلس عـلى كرسيّ في الـركن. وأما الفتى فقـد جلس عـلى حافة السرير وقال:

ـ لم أنم طَوال الليل.. ظللت أنتظر، وعندما توقّف إطلاق النـار نزلت إلى الحوش. كانت الأرانب قـد بكرّت في الخـروج وبدأت تنـطنط كأنمـا أثارت ارتباكها رائحة البارود.

كان خالد الزهر قد فتح البوّابة الكبيرة على سعتها: وقال لي إنه فعـل ذلك لكي يدخل الرجال مرفوعي الـرأس بعد ليلة أمضوها في القتـال. وقد عـاد الرجال تسبقهم الضوضاء ويتقدّمهم الوالد.

دخلوا ببنادقهم وذخيرتهم دون أن يحنوا رؤوسهم.

دخلوا وقد تلطّخت ثيابهم بالطين والتراب.

دخلوا عـلى الفور إلى المضـافة. دخلوا بـزهوّ وخيـلاء وهم يتحدّثـون عـما صادفوه، وعما وقع لهم.

تكوّمت أحذيتهم عند العتبة، وفي الداخل شاهدتهم ينامون بملابسهم وقد نامت إلى جانبهم بنادقهم العتيقة.

أما العمّة حفيظة فقد دخلت وراء الـرجال، دخلت وتحـدّثت معهم بثقة، وكانوا يمدحونها ويصفونها بالبطلة أخت الرجال.

لم يستطع الوالد النوم، فقد صلّى الفجر وأخرج من جيبه المسبحة، وظلّ يسبح بشرود، فيما أيقظت العمّة حفيظة النساء في البيت وحثتهنّ على إعداد وجبة الفطور للرجال.

قال عبد الكـريم لنفسه: لـو كانت معي بـارودة.. آه لو احتفـظت بتلك البارودة.

وفكّـر عبد الكـريم من بعد في أيسر السبـل. فكّر في الشبـريّـة المخبّـأة في خـزانة أم راضي. قـال لنفسه لتبقَ الشبـريّـة إلى جـانبي، فمن يـدري كيف ستتطوّر الأمور؟!

ـ سمعتهم يقولون إن اليهود سيعاودون الهجوم.

دخل المزيد من الهواء المشبع برذاذ البحيرة، فاستطرد راضي:

ـ وسمعتهم يتساءلون.. أين الجيوش العربية. أين القاوقجي.. بـل أين الحاج أمين؟

صاح أحد الديكة، ثم جاء صوت العمّة حفيظة تنـادي، فأيقن راضي أن الإفطار قد أصبح جاهزاً.

بعد ذلك بقليل سمعا خطوات على الدرج، ثم ما لبثت أن دخلت فطيمة تحمل صحن فطائر بالعسل.

ـ صباح الخير يا عميّ.

ـ صباح الخير يا فطيمة.

وضعت الصحن على المنضدة، ولفت انتباهها جلوسه على الكرسي متدثّراً بعباءته الشاميّة التي كان يضعها على كتفه كلما خطر له أن يجلس عند الغروب تحت العريشة في البستان الذي يحيط بـدار الأمان، في تلك الأيـام الهادئـة، الـطيّبة. وهـاج أشجانها مـوضوع المـال المخبّأ في بـاطن الأرض، وكانت قـد أدارت الأمر مراراً في خاطرها.

ـ من المستحسن أن تأكل الفطائر وهي ساخنة.

دوى ـ فجأة ـ صوت قذيفة. صوت يشبه الرعد. صفـير ريح ثم انفجـار هزّ البيت، وارتجّت له النوافذ.

لم يكن قد غسل وجهه بعد، ولم يكن بحاجة لأن يصفع وجهه بحفنـة ماء حتى يتملّكه الصحو.

حدثت جلبة، وحركة مفاجئة أسفل الدرج. هل استيقظ الرجال؟ هل أطارت المفاجأة النوم من عيونهم فهبّوا يبحثون عن مصدر الصوت ومكانه؟

هبط راضي الدرجات. أسرع بغريزة الخوف أو حبّ الاستطلاع لمعرفة ما يجري. تلقّت فطيمة ما حدث بدون ردّ فعل، فلقد تعوّدت على أن يأتيها الخطر عن يمين وعن شمال، ومن كل الجهات.

أما عبد الكريم فقد نظر عبر النافذة، ورأى عموداً من الماء يرتفع في عمق البحيرة، مثلما ترتفع عالياً نافورة تتدفّق.

قال لها: إنها قنبلة كبيرة.. سقطت هناك في البحيرة. لم تتوقّف فطيمة عند هذا.. كانت تفكّر وتذهب بعيداً.. تذهب إلى دار الأمان. إلى المال المخبّأ تحت التراب.

وحينما وجدها صامتة قال: ما بك يا فطيمة؟

فأجابت على الفور: اسمع يا عمي.. إنه الوقت المناسب.. هل تأذن لي أن أذهب وأحضر المال من هناك؟

- لا..

أجابها بحدّة، ثم أضاف برقّة:

- اليهود موجودون هناك.. حذار من الذهاب يا فطيمة.

كانت ترغب في المغامرة وركوب الخطر، وكانت تودّ لو أنه أذن لها، لكنها على الرغم من رفضه داخلها نوع من الارتياح والطمأنينة.

أيّة نبرة حنون تلك التي اكتسى بها صوته؟

أيّ إحساس هذا الذي دخل قلبها مع كلماته الدافئة؟ ثم سقطت قذيفة أخرى. أين؟. لم يستطع أن يحدس، لكنه ظلّ يراقب البحيرة. كان عمود الماء قد تلاشى. ارتفعت موجة عاتية من الماء عالياً ثم حطّت بضراوة، وعكّر ذلك هدوء البحيرة فتدافعت الأمواج إثر الأمواج.

ومرّت الطيور البيضاء التي تزور سمخ في هذا الوقت من كل عام. مرّت وهي ترفرف وتصدر أصواتاً مذعورة هي أقرب إلى النعيق، فالتفت إلى المرأة وقال:

- أهبطي يا فطيمة، وحذار أن تفكّري بالذهاب إلى دار الأمان.

أطاعته، واستدارت هابطة.

ظلّ عبد الكريم يقف مع نفسه. يشمّ رائحة الخطر، بل يشعر بها بحواسّه الخمس.

عاد راضي لاهثاً: يقول لك الوالد انزل إلى المضافة.

لم يتردّد عبد الكريم، فقد كان ينتظر إشارة ما. كان يرغب في معرفة ما يجري. توكّأ على كتف الفتى، وهبط الدرجات. دخل المضافة فوجد الحاج حسين يتكلّم مع الرجال وقد ظهر عليه الانفعال.

دخل. طرح السلام وجلس في مكان شاغر بين الرجال الذين ظهر جلياً أنهم تلقّوا أخباراً مقلقة.

كان رجل من اللجنة القومية يتحدّث:

- لقد وصلتهم مدافع ميدان، وهم يطلقون لكي يجرّبوها.

ثم دخل منصور. طرح السلام وجلس. جلس وسأل عبد الكريم عن صحّته. ثم سأله إن كان قد سمع عما فعله صاحبه حامد أبو حامد في قتال الليلة الماضية، وعندما لم يبد عبد الكريم ما يشير إلى أنه يعرف سرد منصور شيئاً مما يحمل من أخبار.

* * *

في الليلة الماضية اشتبك أبو حامد معهم. أطلق عليهم طلقات رشّاشه السريع. اختبأ بين الزرع وفاجأ مجموعة منهم تسلّلت لفتح ثغرة من جهة البحيرة.

فتح نيران رشّاشة على المهاجمين فسقط من سقط، وفرّ الباقون. انتظر قليلاً. خشي أن يكون الذين ارتموا على الأرض قد فعلوا ذلك على سبيل الخديعة. خشي أن يفتحوا عليه فجأة نيران أسلحتهم، لذلك انتظر.

كان الزرع قد ارتفع عن الأرض ذراعاً، وظلت السنابل تتحرّك مع النسيم. كان رماة البرن الذي نصب على سطح المحطّة قد وعدوه بالحماية إن هو تعرّض لمأزق، لذلك لم يداخله الخوف وإنما الحذر. وفكّر بهدوء كيف يتصرّف؟

التقط حصاة ورماها نحوهم. هناك على بعد أمتار قليلة. ثماني خطوات واسعة أو تسع تفصل بينه وبينهم.

التفت وراءه فلم يَرَ سوى أشباح البيوت والمحطّة. تحرّك شيء ما بين الزّرع. أوجس خيفة. انقبض قلبه. توتّرت أصابعه على الزناد.. هل يطلق النار؟

أهي خطوات جنديّ، أم فأر الحقول خرج من حجره، أم ثمرة يابسة سقطت عن غصن؟

انتظر وكتم صوت تنفسه. انتظر وخطر له أن مجموعة أخرى تسلّلت وراءهم. خيّل إليه أن فوهات بنادقهم ستصبّ نيرانها.

ظلّت السنابل تتمايل، أفعمت أنفه رائحة الزرع، الرائحة اليانعة، فتنفّس بعمق.

طال انتظاره. دون أن يسمع حركة أخرى، فبدأ يزحف، يزحف بحذر. يزحف وينقل رشّاشه من ذراع إلى ذراع. كان يزحف نحوهم وقد هبطت عليه الشجاعة التي تهبط على المرء في اللحظات التي تفصل بين الحياة والموت.

فكّر هنيهة وهو يزحف إن كانوا هناك في سمخ سيعرفون أنه تحلّى بكلّ هذه الجرأة إذا ما كُتبت له الشهادة؟!

فكّر هنيهة، ثم كفّ عن ذلك.

كانت هناك جثّة. جثّة واحدة. لا بدّ أن الآخرين زحفوا وابتعدوا.. جثّة واحدة. جثّة جندي سقط دون أن يتمكّن من إطلاق حتى رصاصة واحدة. جثّة سقطت كيفما اتفق. سقطت بفوضى فوق الزرع.

وقف وقد أخذته المفاجأة.. هل هو حقاً الذي فعل هذا؟ لم يكن يستطيع أن يشاهد ملامح الجندي، ولم يكن يرغب في ذلك.. حرّكه بقدمه. كان مقتولاً بلا حراك. وبجانبه تتمدّد بندقية. جرّده من جعبة الرصاص التي يحملها وأخذ بندقيته. قرّر أن يعود من حيث أتى زحفاً. زحف على بطنه. زحف على التراب والحصى. أحسّ بالإرهاق. ارتجفت عضلاته. توقّف للاستراحة. أفعمت أنفه من جديد رائحة العشب والندى وزهور البراري.

رفع رأسه. لم تكن المسافة بعيدة. ها هو الفجر يقترب. أصوات الرصاص بدأت تخفت. أخذ الفضاء يعلن عن اقتراب انبلاج الفجر، فتذكّر سيارته الصفراء.

التفت إلى الوراء. التفت بقلبه وجوارحه.. لم ير شيئاً بسبب الضباب.

لا بدّ أن اليهود تراجعوا بعد أن فشلوا في التقدم.

لم يعد يسمع بعد قليل في هذه الجبهة صوت طلقة واحدة. فضّل أن يمكث قليلاً للاستراحة، إلى حين طلوع الفجر، فقد يطلقون عليه من الكمائن الأمامية الكائنة وراء سكة الحديد طلقة بطريق الخطأ.

عندما سمع أذان الفجر بصوت أبو عدنان الزبادنه داخلته الطمأنينة، وتذكّر زوجته، بل وتذكّر تلك الطفلة، وأحسّ بحنين لرؤيتها.

هبّ واقفاً يحمل أثقاله. يحمل البندقية.

مشى بخطوات سريعة، أصبح على مقربة من المحطّة.

صار بإمكانه رؤيتهم. وقد رأوه. رآه منصور من خلال المنظار الذي يقرّب المسافات البعيدة.

كان منصور يقف مع الآخرين عند مدخل المحطّة التي تحطّم سقفها القرميدي. هبّ منصور والرجال لملاقاته ومساعدته.

وصل إلى المحطّة. جلس على حافة الإسمنت فانصبّت النظرات نحو البندقيّة الغريبة التي يحملها إلى جانب رشّاشه.

طلب كأسا من الماء. شرب حتى ارتوى. كان الرجال قد قاتلوا طَوال الليل. اشتبكوا مع اليهود من مسافات بعيدة أو مسافات قريبة. أدرك أبو حامد عندما ارتوى أنه لّما قفز من وراء السور وأوغل باتجاه الأعداء، كان قد كسر حاجز الخوف ووضع الله في قلبه الجرأة والشجاعة. أما منصور فقد وقف أمامه يثني على القوة، ويسوق الأمثال على الجسارة. وقال رجل كان يتفحّص البندقية:

- إنها بندقيّة إنجليزية، لعلّها من نوع (لويس جن) القنّاصة.

نظروا إلى البندقية باهتمام، ونظر بدوره إلى المنظار الذي يتدلّى على صدر منصور. خطر له خاطر فهبّ واقفاً. ومدّ يده إلى المنظار. رفعه عن رقبة منصور، وصعد درجات المحطّة. وصل إلى السقف العاري الذي تحطّم غطاؤه القرميديّ.

ثبّت أقدامه خوفاً من الإنزلاق. وضع المنظار على عينيه وصوّبه إلى البعيد.. هناك.. نحو السيّارة الصفراء المتوقّفة. لم يكن هناك سيارة. كانت الفورد الصفراء قد اختفت من مكانها، وشاهد عبر السهل سيارات عسكرية تقطع الطريق الذي يربط طبريّة بالمستعمرات المحاذية لطريق بيسان.

كان رتل السيارات يزحف بلا انقطاع.

* * *

قالت حفيظة: الناس بدأوا ينزحون عن البلدة.. فماذا ستفعل؟

أطرق الحاج حسين، وحكّ ذقنه، وأجاب:

- إذا ساءت الأمور كثيراً فقد ننقل النساء والأطفال وكبار السنّ إلى الضواحي، إلى الحاوي أو تلّة الدوير أو التوافيق، وربّما الحمّة.

ثم رفع رأسه إليها وأضاف:

- علينا أن نصمد أسبوعين آخرين يا حفيظة إلى أن تتدخّل الجيوش العربية.

كانت حفيظة جسورة وقويّة القلب، ولكنها كانت تعرف أن الطريق إلى سمخ قد أصبحت مفتوحة بعد احتلال طبريّة، فسألته:

- وهل تستطيعون الوقوف في وجوههم إلى أن تأتي الجيوش العربية؟

- كانا وحيدين في المضافة. وكان قد صبّ لنفسه فنجان قهوة سادة فملأ ذلك فمه بالمزيد من المرارة. وأجاب:

- لا أدري.. لا أدري.

وفي الخارج كانت الحياة مضطربة. تغيّرت حركة البلدة، فالعابرون يمرّون بخطى سريعة، والنازحون من طبريّة والذين حطّوا الرحال في سمخ صاروا يغادرون إلى الحمّة والعدسية وشرق الأردن. وظلّت الأبقار والماشية تسرح بين البيوت لأنّ (العجّال) لم يأت هذا اليوم لأخذها إلى المراعي.

* * *

عاد أبو حامد إلى بيته فوجد زوجته تغسل غيارات الطفلة التي كانت ممدّدة على (الجاعد) قربها تلهو وتحرّك يديها وقد تورّد خدّاها.

مسحت المرأة الماء الذي ينقط من كوعيها، ووقفت.

ـ ماهذا؟

أشارت إلى السلاح الذي يحمله على كتفه، إلى بندقية (لويس جن) التي تبدو جديدة ولامعة ولا يشبه حديدها حديد الستن الصدىء.

أجابها باقتضاب: لقد غنمناه في المعركة.

عبّرت عن فرحها بابتسامة قلما تضيء وجهها الذابل، فسألها بدوره:
ـ وكيف الطفلة؟

ـ يخزي العين الحسودة.. مثل (جبينه) التي يحكون عنها في الخراريف.

ثم أضافت: الله يحميك ببركة هذه الطفلة البريئة.

وقد تكون تنبهّت إلى ما كان يتعين عليها أن تسأل عنه منذ دخوله: ـ وماذا حلّ بالسيارة؟

أسند الستن على حافة الخزانة، ثم أنزل البندقيّة الجديدة عن كتفه وقال:

ـ على الله العوض يا امرأة.. البلاد تضيع فهل نحزن على سيارة؟

ودسّ أبو حامد يده خفية في جيب سرواله وتحسّس سلسلة الخرز التي تتدلّى منها مفاتيح السيارة.

تحسّسها، وشعر كأنه فقد صديقاً. كأنه فقد إنساناً له قلب ينبض لا قطعة من الحديد.

اقتربت زوجته خطوة وقالت: ـ الناس بدأوا يفكرون بالرحيل إلى مكان آمن.

لم يأبه لكلامها، وحدّق أبو حامد في الطفلة التي تلهو، في شآبيب الوجه البريء، وتذكّر غطاء الرأس الأبيض الذي حملته الرياح وحطّت به على

أشواك شجرة البلاّن، ولأمر ما خشي من صخرة المجهول التي قد تسقط من عل بين لحظة وأخرى.

- لم تقل لي ماذا نفعل.. هل نبقى إلى أن يبقر اليهود بطوننا؟

هرب من سؤالها. وعبر إلى الغرفة الثانية ليتسنى له أن يختلي قليلاً بنفسه.

دخل الغرفة الثانية فسقطت نظراته على صورة المفتي المعلقة على الجدار. كانت ابتسامة خفيّة ترتسم على شفتيه.. أرأيت يا سماحة المفتي.. سندافع يا سماحة المفتي ولكنّ اليهود مدجّجون بالسلاح.. حبذا لو أرسلت لنا فصيلاً من الجهاد المقدس. حبذا لو أرسلت لنا ثلاثة مدافع هاون. حبذا لو أرسلت لنا الطاهر مع إخوته في فرقة التدمير. الوضع عصيب يا سماحة المفتي... مدّ لنا يدك.

الفصل الثالث عشر

من أوراق عبد الرحمن العراقي

تسارعت الأحداث. كأننا في ساحة سباق للنوائب والخطوب. الفواجع يمسك بعضها بتلابيب بعض، والكوارث تسقط من عل أو تنبجس من باطن الأرض. بدأت المدن والقرى تسقط بيد الأعداء، وكثرت الحشود أمام المدينة المقدّسة.

عشنا حالة الاستنفار القصوى، وذقنا من جديد طعم الأخبار المرّة. لم يعد يخفى على أحد أن جيشنا تعوزه الأسلحة والذخيرة والمال.

انتقلنا إلى مواقع جديدة. انضمّت قوّتنا الصغيرة إلى تجمّع كان يتمركز في قرية (النبي صموئيل).

استعاد أسد الشهباء هدوءه النفسي. وكفّ عن اجترار المزيد من الذكريات، ولم يعد يتفوّه بكلمة واحدة أو يحكي عن ملك والولد الضائع زياد. انصّب اهتمامه على سماع الأخبار من المذياع، وقراءة الجرائد اليومية التي تصلنا من القدس.

وجاء قائد القوّة العقيد (نور الدين) ذات مساء: وأبلغنا أن الأوامر صدرت إلينا بالتحرك إلى قرية (بيت نوبا)، وأننا بصدد المشاركة في عملية قتالية لمنع اليهود من الوصول إلى القدس.

كان يتكلم وهو يلبس بزّته العسكرية الأنيقة، وفي اليوم التالي، وقبل أن

نتحرّك إلى موقعنا الجديد، أطلّ العقيد نور الـدين وهو يلبس الستـرة الواقيـة من الرصاص فـوق بزّتـه العسكريّـة تلك. . . إنها السترة الـواقية نفسهـا. . الدرع العظيمة التي كادت تخلب لبّ صاحبنا نجيب.

* * *

ويا للمفاجأة! لقد ظهر نجيب. .

ظهر بعد انتهاء معركة باب الواد التي شاركنـا في وقائعهـا. كانت القـوات اليهودية قد احتلّت منطقة (بيت محسير) وبعض التلال المطلّة على باب الواد، وأصبحت تهدّد مدينة القدس.

لقد وصل إلى اليهود مدافع ميدان جديدة، وصارت جرّافاتهم تشقّ الطرق في التلال الوعرة.

بدأ هجومنا في الساعة الرابعة من صباح الحـادي عشر من أيّار. انـدفعت الأرتال، وفتحت المدفعيّة نيرانها. اشتبك المشاة مع اليهود وجهاً لوجه.

وجاءت قوات إضافية عزّزت قواتنا وشدّت من أزرها. استمرّت المعركة الجبليّة ست ساعات، وأسفرت عن اندحار الأعداء. استولت قوّاتنا على كل المواقع التي كان يشغلها العدوّ في التلال والأحراش.

استعـدنا منـطقة (بيت محسـير)، وكانت جثث اليهـود ملقاة هنـا وهناك، وكذلك مصفّحاتهم المعطوبة، والمحترقة، وأسلحتهم المدمّرة.

وبالمقابل سقط عدد من الشهداء في صفوفنا. من بين الشهداء كان العقيد نور الدين نفسه.

وجدناه بعد انتهاء المعركة مصاباً برصاصة في رأسه خلف متراس متقدّم في (خربة حرسيس). كانت رصاصة رشّـاش كبير. دخلت من جبينـه فمزّقت جمجمته. أصيب في المراحل الأخيرة من المعركة.

لقد كان ذلك الرجل الأنيق شجاعاً فقاتل بضراوة وهو يلبس السترة الواقية من الرصاص. لكن تلك السترة لم تنفعه.. لم تأت الرصاصة إلى صدره، وإنما ابتعدت قليلاً، وأصابت الرأس.. فيا للمفارقة!

ألقيت عليه نظرة أخيرة وهم يحملونه إلى سيارة الإسعاف جسداً هامداً. حملوه دون أن يخلعوا عنه سترته الواقية.. لم يهتّم أحد بذلك. نقلوه إلى السيارة وانتهى كل شيء، وقلّل ذلك من إحساسنا بعذوبة الانتظار.

وعندما توقّف إطلاق النار تماماً، وأصبحت الجبهة تحت سيطرتنا، وتلاقت قواتنا التي تقدّمت من عدّة محاور. في لحظة من اللحظات ظهر نجيب فجأة.

كان يركب مصفّحة، يطلّ من فوق برجها، ويعمل على الرشّاش المحمول..

عندما شاهدني لوّح لي بذراعه، ثم قفز من فوق قفزة واحدة فإذا به أمامي.

تعانقنا، وتحدّثنا حديثاً قصيراً.

استفسرت منه عن أخباره فأجابني إجابات مختصرة إذ كان يتعينّ عليه أن يعود إلى مصفّحته. لكننا التقينا بعد ذلك بأيام، عندما أخلينا مواقعنا لتحلّ مكاننا قوات من الجيوش العربية النظامية.

التقينا في أريحا، في معسكر التجمع. جاء بصحبة الرئيس أحمد بيك الذي شدّ على أيدينا وخاطبنا من جديد بكلمة يا أبنائي.

كان رجلاً متعباً ومكدوداً أحمد بيك هذا، وكان يستحقّ التعاطف، وربما الرثاء.

وقد دخل الخيمة المخصّصة له واستغرق في النوم. واغتنمنا

الفرصة. فخرجنا ـ أنا ونجيب وأسد الشهباء ـ إلى المدينة، وسهرنا في أحد المقاهي. بين أشجار النخيل، وأجاب نجيب على أسئلتنا إجابات عاجلة، قال لنا بلغة البرقيات إنه جاء إلى القدس للبحث عن ابن بلده الطاهر الضابط في قوات الجهاد المقدّس، فلم يجده.. قالوا له إنه ذهب في مهمّة للضرب وراء خطوط العدوّ.

وبعد عدة أيام من التسكّع عاد نجيب والتحق بقوّة من جيشنا كانت تتمركز في (بيت سوريك)، قبله قائدة القوة على الفور دون أن يعود لأخذ موافقة القيادة، لأنهم كانوا بحاجة ماسّة إلى مقاتلين.

وتحدّث عن المشاعر التي كانت تنتابه وهو يستمع إلى أخبار سقوط طبريّة، ثم سقوط سمخ، وسقوط المدن والقرى الأخرى..

كان يجهل مصير أبناء بلدته ومصير أولئك الذين عاش بينهم وعاشرهم. ولم يخصّ مطلّقته بدريّة بكلمة واحدة، لكن على الرغم من ذلك فإن ذوائب شجيرات (مكنسة الجنة) كانت تلوح في نظراته العميقة.

* * *

ارتحلنا بعدها بأيام في رتل كبير من أريحا إلى عمّان.. نمنا ليلة واحدة في ضواحي العاصمة الأردنية، ثم واصلنا الطريق إلى دمشق، ومنها إلى معسكرنا القديم في الضمير.

كانت أخبار دخول الجيوش العربية أرض فلسطين تطغى على كل شيء، وكانت أخبار المعارك الأولى لا تبشّر بالخير..

سرت شائعات في المعسكر مفادها أن دورنا قد انتهى، وأن قراراً صدر من المفتّش العام بتسريح نصف القوات وإخراجها من الخدمة، وإلحاق القسم الباقي بالجيوش النظاميّة.

لم نحمل تلك الشائعات على محمل الجدّ في بداية الأمر، لكن تبيّن فيما بعد صحّتها.

بدأت قوائم التسريح تصل أولاً بأول. وأخذ المعسكر يفرغ من الجنود.

مرّت عدة أسابيع، وبدأت القوائم تحوم حولنا.. وصل في البداية قرار بتسريح أسد الشهباء، فتدخّل أحمد بيك بنفسه وأوقف القرار. لكن بعد ذلك بأسبوع جاء اليوم الذي تمّ فيه تسريحنا جميعاً.

فذات صباح جاء أحمد بيك عابس الوجه. جاء ومعه ضابط صفّ يحمل قائمة من عشرة أسماء. لم نكن بحاجة إلى كثير من الذكاء كي نعرف أن الدور قد وقع علينا.

لم يطلب منا أحمد بيك أن نسلّم العهدة. لم يطلب منا أن نأخذ ورقة براءة ذمّة. لكنه قال: لم يعد لنا جميعاً مكان في هذا الجيش.. هيا يا أبنائي.. رتّبوا حاجياتكم، لقد تمّ الاستغناء عن خدماتنا.

لبسنا الملابس المدنية وحملنا حقائبنا الصغيرة وصعدنا إلى سيارة شاحنة عبرت بنا الطريق الصحراوي، ثم انعطفت نحو الغوطة.. شقّت طريقها بين الأشجار الخضراء، ودخلت المدينة من جهة باب توما وتوقّفت في ساحة المرجة. كان الوقت ظهراً. كنا عشرة رجال في صندوقها الخلفي. لم يتحدّث أيّ منّا إلى الآخر. كان كل يعيش في منفاه، ويسكن جزيرته، ويذهب بعيداً في أفكاره.

أية مشاعر كانت تنتابنا في تلك اللحظة؟ مزيج من الإحباط والحزن. من الألم الحادّ والغضب المكبوت.

توقّفت السيّارة في ساحة المرجة.

هبط أحمد بيك من المقدّمة إذ كان يجلس بجانب السائق. هبط وهو يحمل

حقيبته الصغيرة أيضاً، ودون أن ينتظر هبوطنا لوّح بيده وقال بصوت دامع: «وداعاً يا أبنائي!»

نزلنا من صندوق السيارة على عجل، لكنه لم يتوقّف.. ظل يبتعد حاملاً حقيبته، ظل يبتعد إلى أن ابتلعته الزحمة.

استدار سائق الشاحنة دون أن يقول لنا شيئاً. لعلّه اعتاد عمله هذا، فلم يعد هناك ما يثير الدهشة!

ابتعد بشاحنته، فهزّ كل منا كتفه، وتفرق الرجال بعد أن ودّع بعضهم بعضاً، وبقينا نحن الثلاثة على الرصيف بجانب النافورة التي، لأمر ما، لم تكن هذا اليوم تضخّ الماء. لم يتكلّم نجيب، فعلى الرغم من أن الأمر لم يكن مفاجئاً فإنه ظلّ تحت تأثير الصدمة.

أشرت عليهما أن نجلس في المقهى القريب، فحملنا حقائبنا واجتزنا الشارع إلى الرصيف المقابل.

جلسنا على كراسي المقهى. لم يكن هناك حماس للكلام. احتسينا فناجين القهوة ونحن ننظر إلى حركة الشارع. كنت بيني وبين نفسي أحسد هؤلاء الذين يغذّون السير باتجاه أهدافهم.. فأين سنذهب نحن، وماذا يتعيّن علينا أن نفعل؟

كانت دمعة كبيرة تملأ عيني أسد الشهباء. دمعة اختفت وراءها ليالي القصف، وزوابع الغبار، وبريق النياشين، وسقوط المدن..

خرج نجيب عن صمته قائلاً: يجب أن أبحث عنهم.

لم يقل مَنْ هؤلاء الذين سيبحث عنهم، لكن الأمر بدا في غاية الوضوح، فمن يكون هؤلاء سوى بقايا أهله وأبناء بلدته سمخ؟

أيّدتُ رغبته هذه، واقترحت على أسد الشهباء أن يذهب بدوره إلى بيت

خاله ويسأل عن ملك، بل ويسأل عن ذلك الولد الضائع. . أتراه عاد ذلك الفتى الذي سرقته الحواري والدروب؟

ظلّت دمعة أسد الشهباء تكبر وتكبر وتخفي وراءها أغنية البلبل الذي حطّ على شجرة الرمّان، وموسيقى النحاس في جنازة الرئيس مأمون، وبقعة الدم على صدر تلك السترة الواقية من الرصاص.

شددت على يده، وكنت أستطيع أن أتفهم المشاعر التي تضطرب في أعماقه.

أهكذا تكون نهاية هذه التجربة؟. أهكذا يلقى بنا على قارعة الطريق وتنكسر الأحلام بالمجد والنياشين والبطولة؟!

تذكّرت الصحراء التي عبرتها منذ عدة شهور، وتذكرت أمي. .

تذكّرت عمي (الحجي)، وتذكرت ذرات الرمال، وعواء الذئاب، وغناء الفرح باقتراب موعد المعارك، والفجر الذي له لون اللبن الرائب، والنسيم الذي تدمع منه العيون.

قلت لهم متصنّعاً اللامبالاة: على كل حال لقد قمنا بواجبنا. . هيا نبحث عن شيء نأكله.

أجاب نجيب: لا أرغب. . لا أرغب في الأكل.

مرت من أمامنا امرأة تلفّ نفسها بالملاءة وتتأوّد، ولكن كفّها لم تكن مخضبة بالحنّاء.

لم يلفت ذلك نظر أسد الشهباء. كانت الدموع في عينيه تخفي وراءها أغاني النار التي تشتعل على رؤوس الجبال.

قال نجيب: يجب أن أذهب للبحث عنهم.

شددت مرة أخرى على يد أسد الشهباء وشجّعته:

ـ هيّا . . عد إلى بيت خالك ودعني أذهب مع نجيب، ولا بد أن نعود في وقت لاحق ونلتقي . .

عند ذلك تحوّل بكاء أسد الشهباء إلى نشيج .

عندما هدأ وقفنا فوقف ومشى معنا إلى موقف حافلات درعا. ووعدني بأن يذهب إلى بيت خاله عندما يقدر على ذلك، ثم وصف لي عنوان المطعم الذي يملكه والده في حلب، وألحّ عليّ بأن أجيء في أقرب وقت . .

وقف ينتظر معنا وهو يحمل حقيبته . لم يكن يرغب في تركنا. كان يقف وفي عينيه إحساس حادّ باليتم .

وعندما مشى الباص لوّح لنا من على الرصيف. ثم استدار كأنما يخفي عاصفة هبّت على ملامح وجهه .

* * *

جلسنا في مقعد خلفيّ وانطلق الباص الممتلىء .

جلسنا جنباً إلى جنب، لكن نجيباً أدار وجهه إلى جهة النافذة عندما كان الباص يقطع الطريق .

احترمت صمته فتركته لتداعياته، وحاولت أن أنام . أغمضت الجفن، لكنني لم أستطع . . حاولت أن أشغل فكري بالنظر عبر النافذة أنا الآخر فلم أقدر على ذلك .

مررنا بقرى كثيرة . . الكسوة. عتمان . . الشيخ مسكين . . وتذكّرت وأنا أتابع الفضاء والشجر والبيوت ذات الحجارة السوداء، تذكّرت المرّة الأولى التي قطعنا فيها هذه الطريق، عندما كنّا نتوجه إلى فلسطين عبر الأردن . كنّا إذ ذاك نتأجّج بالحماس . . وفي الطريق إلى درعا كان الرجال يلوّحون لنا من وراء محاريثهم، ومن على أسطح المنازل كانت الفلاحات الحورانيات يزغردن بأعلى ما تستطيعه حناجرهن .

كنّا إذ ذاك نشتعل فرحاً، ونردّد أغنية جماعيّة، وكان الحماس يمرّ من الحناجر إلى الأكفّ، وكان للفجر إذ ذاك بالفعل لون اللبن الرّائب.

أما أسد الشهباء فقد كانت تظلّله في المعسكر في ذلك اليوم رهبة اللحظات التي طال انتظارها. وكان يفكر طويلاً في الأفق الذي يشتعل باللهب، والراية التي تخفق من وراء الدخان.

كم تعاطفت في تلك الآونة مع أسد الشهباء الذي تركناه وحيداً. . كم أحسست بأن قلبي معه.

لتمتلىء نفسك بالراحة وقلبك بالسكينة أيها المقاتل الشجاع، والإنسان الرقيق. . اذهب إلى محبوبتك ذات الكفّ المخضبة بالحنّاء، فلعلّها تلملم مزق نفسك المعذّبة، لعلّها تمسح جراحك. . اذهب إليها. .

لتجد الابتسامة طريقها إلى شفتيك، لتجد الفرح أمامك، لتعطّر أيامك رائحة الياسمين والحبق والنعناع.

* * *

هبطنا في موقف الحافلات وسط درعا.

هبطنا في الزحام غير العادي، بين الذاهبين والآتين، بين الباحثين عن ذويهم، والمنتظرين قدوم المفقودين. عربات محمّلة، أمتعة قليلة على الرؤوس. نساء وأطفال حفاة. المأساة ترتسم على الوجوه. . لقد تعرّضت المدينة لتدفّق بشري من اللاجئين الهاربين من المذابح. ظل التدفق البشري يندفع من بوابة الحمّة إلى القنيطرة إلى درعا. . فيضان بشري أضفى على المدينة جوّ الكارثة.

الأرصفة ممتلئة. الذهول على الوجوه، ولا شيء على ما يرام.

شققنا طريقنا وسط هذا الزحام، ثم توقّف نجيب على الرصيف يحدق في الوجوه وكأنه يدقّق ويبحث لعله يظفر بوجه يعرفه.

وقد وجد بالفعل رجلاً مسناً من أبناء بلدته. سلّم عليه وقبّله، وبدأ يسأله عمّا حصل، فأجاب الشيخ باقتضاب.

وسأله عن الأهالي.. لم أسمع إجابة الشيخ، لكن نجيباً قال لي بعد أن تابعنا سيرنا:

ـ لقد تفرّقوا.. جاء بعضهم إلى القنيطرة، وجاء البعض الآخر عبر النهر إلى الأردن.

لم يكن بحوزتنا بطاقات هوّية، فسلكنا إلى الأردن الطريق التي يسلكها المهرّبون.

مشينا عبر الأودية والجبال، وعندما أدركنا الليل نمنا في مناطق الرعاة والبدو. شاركناهم في طعامهم البسيط. نمنا نوماً عميقاً في مغارة واسعة ينام فيها الرعاة والأغنام جنباً إلى جنب.

وذكّرتني رائحة هذه الحيوانات الأليفة برحلتي الصعبة، يوم اجتزت بادية الشام من بغداد إلى دمشق.

في الصباح الباكر شربنا الحليب، وواصلنا السير عبر الأودية نحو بلدة (المخيبة) التي تحاذي الحمّة، والتي تجمّع فيها عدد كبير من النازحين.

وصلنا بعد مسيرة نهار كامل لم يرافقنا خلالها سوى الطبيعة والصمت والطيور السابحة في الفضاء الأزرق.

كانت الطبيعة موحشة. الوديان عميقة الغور. السهول تمتدّ حتى المجهول، ووراء المرتفعات مرتفعات..

ظللنا نمشي. نمشي ونراقب الشمس. نمشي ونراقب ظلال الأشجار. نمشي ونتكلم ثم نمشي ونصمت.

وحين غابت الشمس ألقينا نظرة على الاتجاهات، ولم نفكر في التوقّف

كانت السماء مطفأة أو هكذا خيّل إلينا.

وحينها شممنا رائحة كبريتية منبعثة مع الهواء الساخن القادم من وراء المنعطف... أيقنا بأنّنا على وشك الوصول.

وصلنا إلى قرية (المخيبة).شاهدنا من بعيد الأضواء الشحيحة. كان الألم قد أخذ يمزّق عضلات رجلي، وكان عليّ أن أتعايش مع هذا الألم إلى أن نصل.

عندما اقتربنا أخذت الكلاب تنبح بين بيوت القرية المتناثرة وبين بساتين الموز وعلى ضفة النهر.

هجمت علينا مجموعة من الكلاب النابحة، وخيّل إليّ أن رؤوسها الصغيرة سوف تنفجر لشدة النباح.

ومن بين دغل الموز خرج رجل يحمل عصا غليظة بيد، ويحمل مصباحاً باليد الأخرى.

صاح بصوت عال: من هناك؟

عندما أطمأنّ إلينا نهر الكلاب فابتعدت، وأشار علينا بالدخول. دخلنا كوخه الصغير الذي يتوسّط بستان الموز. كان رجلاً طيباً أسود الوجه أبيض الشعر، لم يسألنا عن هويّتنا ومقصدنا. أشار لنا كي نجلس، وقدّم ما عنده من تمر وخبز شعير.

كان نجيب قلقاً، لذلك سأله عن أهالي سمخ حتى قبل أن يأكل لقمة واحدة.

هزّ الرجل رأسه، وقال:

ـ لقد مرّوا من هنا.. مرّوا من هنا بالفعل..

وسرد وصفاً لما شاهد من قوافل اللاجئين الذين هجروا طبريّة، وسمخ،

والسحرة، والعبيدية، وناصر الدين ولوبية والشجرة، ثم توقّف قليلاً ريثما أشعل سيجارة وأضاف:

ـ لكنهم مروا سريعاً هرباً من وباء الملاريا الذي ينتشر في هذه البقعة في مثل هذا الوقت من كل عام.

وسأله نجيب إن كان هناك بقايا منهم فقال:

ـ يوجد قليل منهم عند النهر.. على كل حال الصباح رباح..

قال ذلك وتمدّد فوق البساط القديم في إشارة واضحة لرغبته في النوم.

نمنا.. هل نمنا فعلاً؟

هجم علينا البعوض عندما أطفأنا الضوء.

أسراب من البعوض العنيد. غرز إبره في جلودنا.

حاولنا المقاومة فلم نستطع، وفي نهاية المطاف هدّنا التعب والإرهاق فاستسلمنا للنوم.

* * *

البعوض والكارثة. البعوض الوحشيّ.. المفترس الذي يحمل في خراطيمه ومجسّاته الملاريا يسدّ الفضاء، أما الكارثة فهي ترمح في الطرق والساحات والدروب الذابلة.

في الصباح بدأنا ننتقل بين قوافل النازحين التي تعبر النهر إلى الأردن. وجوه ذابلة. عيون مطفأة. ملامح امتصّها الذهول.

نساء يرضعن أطفالهن من أثداء ناشفة. رجال بوجوه شاحبة يحملون على أكتافهم الأولاد الذين تعبوا من المشي. أناس ينتظرون ذويهم، حقائب وصرر وسقط المتاع، وضوضاء تختلط بما يشبه البكاء.

عند حافة النهر، عند المخاضة التي تعبر منها القوافل، رأى نجيب أحد معارفه. تعانقا بحرارة، وانفجرا بالبكاء.. كان الرجل يلبس بدلة عمل

كحليـة اللون ذات أزرار صفراء. كـانت ترتسم عـلى وجهه الشـاحب أقسى تعابير الألم.

قدمه لي: إنه منصور.. إنه بائـع التذاكـر في محطة القـطار هناك. جلسنـا قرب تلك الينابيع الحارّة التي يخرج منها البخار ورائحة كبريتية حادّة.

أخرج الرجل من جيبه علبـة سجائر وأشعل واحـدة. وبدَت إذ ذاك آثـار لسعات البعوض على كفّيه وعلى رقبته، وفوق حاجبيه.

تحدّث الرجلان طويلاً، فاغتنمت الفرصة وذهبت إلى نبع حارّ أبحث عن دواء للآلام التي تعتصر عضلات رجلي. وعندما عدت قال نجيب:

ـ يجب أن نستأنف السير..

ـ إلى أين؟.

أشار إلى المرتفعات، وراءنا، وقال:

ـ إلى جبال أم قيس أو إلى مدينة إربد.

ثم التفت إلى منصور يقول:

ـ أما منصور فإنه سيعـود إلى الحمّة لـيركب القطار الـذاهب إلى درعا..

إنه لمن الصعب أن يعيش منصور في مدينة ليس بها قطار.

ودّعنا منصور ومضى.. ظللنا نرقبه وهو يبتعد، فقال نجيب:

: ـ لن يجد أمامه إلاّ أبواب الضياع والغربة.

وأضاف:

ـ لقد جاء مع قافلة من أهالي سمخ قرّرت الاتجاه شرقـاً، وأما منصور فقد فضّل أن يذهب شمالاً..

وكنت سـاسأل منصـور إن كان قـد استقصى أخبـار بدرية، تلك التي طـالما رآهـا في أحلامـه وهي تسقي شجـيرات (مكنسـة الجنـة)، غـير أنني لم

أسأل لأنني كنت أعرف أنه لم يعد هناك مكان للأحلام في هذا الواقع المرير.

إذن فمحطتنا القادمة هي مرتفعات أم قيس، وهناك سيجد نجيب عائلة الحاج حسين كما أخبرني، سيجد عندهم الأخبار، وسيعرف ما يمكنه أن يفعل، وكيف سيحدّد مصيره ومستقبله.

وقد فكّرت بدوري في العودة إلى بغداد.

كان يشق عليّ أن أعود وأنا أحمل في ثيابي رائحة الهزيمة والكارثة.. لذلك فكرت في البقاء مع نجيب، فلقد ربطت مستقبلي بمستقبل هؤلاء الناس الذين فقدوا بيوتهم ومدنهم وقراهم.

كانت الطريق طويلة، تتعرّج وتصعد. كانت خالية حتى من الفلاحين والرعاة.

سرنا مسيرة نهار كامل، وقبل الغروب بقليل بدأنا نقترب من قرية (أم قيس)، وبدأت تظهر أطراف البحيرة من الجانب الآخر.

توقّف نجيب تحت شجرة خروب معمّرة، وأطل يراقب مغيب الشمس وانعكاسها على مياه البحيرة.

كان يشمّ رائحة سمخ لقد مرّت شهور كثيرة دون أن يراها أو يشمّ رائحة ترابها ومائها، لكنها ظلّت تعيش في أحلامه، بل وفي يقظته.

وفجأة تكلّم نجيب بصوت مرتفع. لا.. لم يكن يكلّمني. كان يكلّم أناساً يراهم ولا أراهم. يكلّم رجالاً ونساء يكلّم الشجرة والخيول. حكى كلاماً فيه نعومة وسلاسة ويكاد يجرح القلب. حكى مع الحسّون، مع القبّرة، مع الحجل البري. حكى مع الشومر، مع الكرسعنة، مع المرّار، مع النعنع البري..

تحـدث إلى سـطح البحيرة الـذي يشبه بـطن الغزالـة، وحكى مع سـمك المشط، وسمك الكرسين، ومع العظاظي والبلبوط والمرمور . .

شددته من يده لأوقظه، فمشى معي وهو يحكي . .

ظللنـا نصعد ونصعـد، والبحيرة عـلى الجانب الآخـر تكبر وتكـبر. وحين وصلنا إلى أعلى المرتفعات، وصرنا على مشارف (أم قيس)، وغابت الشمس تماماً، توقف نجيب مرة أخرى وبدأ يحكي من جديد مع أشياء يشـاهدهـا ولا أشاهدها، ثم تنهّد وزفر زفرة حرّى، وانهالت من عينيه العبرات.

أدركت عنـد ذلك أنـه قد ضـاع كـل شيء، وأن كـل الـدروب أصبحت تفضي إلى الغربة والشتات، فيا لكآبة المنظر، ووحشة الطريق!

انتهى الجزء الأول

تونس كانون الثاني ١٩٩١

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

توقّف نجيب تحت شجرة خروب معمّرة، وأطلّ يراقب مغيب الشمس وانعكاسها على مياه البحيرة.

كان يشمّ رائحة سمخ. لقد مرّت شهور كثيرة دون أن يراها أو يشمّ رائحة ترابها ومائها، لكنها ظلّت تعيش في أحلامه، بل وفي يقظته. وفجأة تكلم نجيب بصوت مرتفع، لا، لم يكن يكلّمني. كان يكلم ناساً لا يراهم ولا أراهم. يكلم رجالاً ونساء، يكلّم الشجرة والخيول...

حكى كلاماً فيه نعومة وسلاسة ويكاد يجرح القلب. حكى مع الحسّون، مع القبّرة، مع الحجل البري. حكى مع الشرمر، مع الكرسعنة، مع المرار، مع النعنع البري.

تحدّث إلى سطح البحيرة الذي يشبه بطن الغزالة، وحكى مع سمك المشط وسمك الكرسين، ومع العظاظى والبلبوط والمرمور.

شددته من يده لأوقظه، فمشى معي وهو يحكي...

ظللنا نصعد ونصعد، والبحيرة على الجانب الآخر تكبر وتكبر.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

أبو عبدو البغل